صدمة كونية

الملاك الأسود

عمار المصري

الكنزي
ALKANZY

ساحر الكتب

صدمة كونية
الملاك الأسود

صدمة كونية
الملاك الأسود

عمار المصري

إهداء

إهداء إلى أمي وأبي من أعطياني الحياة والشغف للاستمرار والتطور إلى الأفضل.

وإلى رفيق الدرب أحمد المهدي والذي شجعني كثيرًا في هذا المجال المليء بالعقبات.

وإلى رفيقي حمزة ماهر الذي شجعني كثيرًا على تعلم الكثير من العلوم النافعة، ودفعني دائمًا للقراءة باستمرار بلا ملل أو كلل.

وإلى صديقي طيب القلب وعبقري التاريخ سيد صبري والذي قرأ أعمالي عدة مرات بكل شغف وشجعني كثيرًا برأيه.

وإلى إخوتي وأصدقائي من قرأ أعمالي وشاركاني أحزاني وأتراحي "علي وسلمان".

وإلى كلّ أصدقائي الذين جعلوا حياتي مفعمة بالحيوية وتعلمت منهم الكثير بكفاحهم المُستمر ضد صعاب الحياة.

عمر إبراهيم: صديقي المترجم طيب القلب وعبقري الترجمة.

وإلى صديقي أسامة الفرت الذي أفادني بملاحظاته كثيرًا حتى يكتمل هذا العمل ويخرج إلى النور.

وإلى صديقي رامي جمال الصديق الوفي الذي أفادني بالكثير من النقاشات المثمرة معه.

وإلى: مصدق الطيب - كاظم عماد - عمر محمد - أحمد حسام - محمود مجدي - أحمد السيد أبو مكي - عمار جمال

وأعضاء الجمعية المصرية لأب الخيال العلمي:

دكتور عماد الدين عيشة الذي ألهمني بالكثير من الأفكار.

دكتور حسام الزمبيلي مؤسس الجمعية ولهُ الفضل الأكبر في شغفي بالخيال العلمي.

المهندس محمد نجيب ودكتورة قدرية سعيد وأستاذ خالد جودة أعمدة النقد في الجمعية.

وإلى أصحاب دار الكنزي محمد صلاح وإيناس الدسوقي من ساعداني في الوصول إلى طريق الأدب من أوسع أبوابه ودعموني بكل محبة حتى قطعت شوطًا طويلا صعبًا لم أكن لأبلغه لولاهما.

وإلى روح العراب: ((أحمد خالد توفيق)) رحمه الله وجعل مثواه الجنة هو وكلّ من ألهمنا بقلمه وأدبه وفنه وأفكاره من أجل نهضة فكرية وعلمية ودينية أفضل.

***

الفصل الأول

عالمٌ بلا نور

انتفضت خديجة على سريرها مما أفزع زوجها كريم إذ رآها ترتعد وتشهق وتتمتم بكلمات مبهمة استطاع أن يفهم أن بعضها من القرآن الكريم. أمسك بها ولفها بذراعيه حتى يغمرها بالأمان ويخفف من عذابها إذ لاحظ أن جسدها كله مبلل بالعرق الكثير على الرغم من أنهما في الشتاء والبرد يلفح جلديهما يوميًا! وتعجب من حالة زوجته أشد العجب وقال لها بخوفٍ ووجل:

- هل أصابتك الحمى يا عزيزتي؟

بكت خديجة بحرقة وانهارت دموعها بغزارة وتلجلج لسانها واضطرب قلبها واصطكت أسنانها من الخوفِ ونظرت إليه بعينٍ جاحظة وقالت متلعثمة:

- لقد رأيتُ.. رأيتُ كابوسًا لم أرى مثلهُ قط في حياتي!

ضمها كريم أكثر ومرر يده على رأسها حتى يعطيها الأمان ويزيح عتمة خوفِها وعلق على كلامها قائلاً بكل اهتمام:

- وما مضمونه؟

بكت أكثر ووضعت كفيها على وجهها إذ كانت تشعر بقلبها يختنق وجسدها يرتعد وبرودة مُؤلمة تُحيط بكلّ أوصالها رغم أنّ جسدها قد ابتل عرقاً. وبعد أن هدأت قليلاً عادت لتتم قائلة وصوتها يتهدج ويتقطع وسط بكاءها المرير فخرجت الكلمات عسيرة الفهم ولكنّ كريم ألفها وفقهها لأنه تعوّد على زوجته أثناء البكاء:

- لقد رأيتُ الظلام يُحيطُ بكلّ شيءٍ حتى غطى الشمس والسُحب ورأيت البشر يفرون ويصرخون طلباً للرحمة، وفي النهاية جاء!

نظر لها كريم بحيرة وطغى عليه الذُعر عندما رأى نظراتها العَجيبة التي لم يرها في حياته، فقالَ لها مستفهماً وشفتاهُ ترتجفان:

- من هو؟

ابتسمت نِصفُ ابتسامة مُخيفة وقالت مُعللة:

- لا أعرف من هو ولم أرهُ جيدًا ولكنّهُ يختلف عن كلّ ما أبصرناه أو سمعناه. لم أستطع تبين ملامحه ولكنهُ كان آخر شيء أبصره قبل أن أستيقظ من الفزع، ومن رحمة الله أنّي لم أتبين ملامحه. عالمٌ بلا نور هكذا أصبح عالمنا.

قالتها وانهارت في البكاء وفي نفس اللحظة ومض البرق في السماء وأنار غرفتهما وتبعه صوت هزيم الرعد، فهلع كريم واهتز قلبه حتى اختنق بين أضلعه بينما صرخت خديجة بصوت كاد أن يوقظ الأطفال وأشارت بإصبعها عبر النفاذة وقد اقشعر بدنها:

- لقد رسم البرق هيئته. هل رأيتَ هذا؟ هل رأيتهُ؟

قام كريم من على سريرهِ وفتح النافذة فلفحهُ الهواءُ البارد بشدةٍ غير معهودة وأبصر السحب إذ التفت حول بعضها على هيئة دوامة عجيبة تحت ضوء القمر الذي أصابته حُمرة مُريبة، واشتدت الرياح وعصفت وضربت النوافذ والطُرقات، وهطل المطر بغزارةٍ وأغرق طرقات مدينة الشيخ زايد بمصر، وفي نفس اللحظة سمع كريم صوت آذان الفجر يدوي بين هذه الملحمة ليُضفي مزيجًا غريبًا ومريحًا وسط هذا الظلام العجيب. أغلق كريم النافذة ونظر إلى زوجته بابتسامة هادئة وقال ليُطمئن قلبها:

- إنها مُجرد عاصفة طبيعية يا عزيزتي.. لا تخافي من هذا الكابوس، فالكل يتعرض لكوابيس عجيبة من وقتٍ لآخر، وكما ترين لا شيء يحدث لهم.. ارتاحي الآن وسأذهب لأصلي الفجر في المسجد.

وقفت من على سريرها وتمسكت بتلابيب ملابسه بخوفٍ وقالت تحذره:

- أرجوك لا تذهب فالعاصفة هوجاء، وأخاف أن يَمسسك سوء، كما أنّي خائفة وأحتاجك.

احتضنها كريم وهمس في أذنها اليمنى بكلامٍ طيب معسول قائلاً:

- وهل تخاف كعكتي الصغيرة من بعض العواصف والكوابيس؟ ليس هذا ما عهدتك عليه. لن اتأخر أكثر من نصف ساعة فنداء الله أعظم من أي عاصفة.

تركته خديجة وجهزت له جلباب الصلاة ومِعطفه ومظلته حتى يحتمي من الأمطار، وما طمأن قلبها أن المسجد يبعد عن بيتهم بعض الأمتار لا أكثر، وبعد أن تجهز كريم ودعها وذهبت هي حتى تتفقد الأطفال.

كان كريم شاب في الثلاثين من عمره، مليح الوجه، ناعم الشعر، يتسم بعينٍ سوداء ثاقبة شديدة المُلاحظة وكانت الابتسامة لا تُغادر محياه وكانت له لحية متوسطة الطول وناعمة ومتناسقة بشكلٍ يُضفي عليه وقارًا، كان يُعرف في مدينته بأخلاقه وتديّنه المُلحوظ، ولكنه كذلك كان يُعرف بعلمه وثقافته، فكان يستشيره الناس في شتى العلوم الطبيعية والإنسانية وكانوا دائمًا يجدون إجاباته جاهزة ولو لم تقنعهم، ولكنها كانت تنم عن مدى معرفته، وكان ينبهر كلّ من يزوره بمكتبته التي تمتلئ بشتى الكتب التي لا حصر لها، وكان البعض يستعير منه الكُتب والروايات ليقرأها ثُمّ يعيدها له ويناقشه في مضمون الكتاب أو الرواية حتى يتأكد أنه فهم العمل وأزاح كلّ الإشكاليات واللبس عِنده. وكان يعمل كمُعلم فيزياء في أحد المدارس الخصوصية.

شق كريم طريقه نحو المسجد والهواء يضرب صدره وينسل بين ملابسه فيرتجف جسده، وكادت المظلة أن تُحلق بعيدًا وهو يحاول أن يحتوي جسده ليدفئه. وبعد صراعات طويلة مع الرياح والبرق والرعد اقترب من المسجد أخيرًا ولكنه أبصر ما جعله يتسمر مكانه. إذ رأى في نهاية الطريق المُغطى بماء المطر المُنهمر كائن ما يقف بعيدًا وينظر إليه. دقق كريم النظر ولم يستطع أن يره من شدة المطر والهواء، وإذ فجأة انطفأت أضواء أعمدة النور بالتوالي حتى عمّ الظلام الطريق وبعدها ضرب البرق في السماء بنورٍ كاد يغشي عين كريم فأشاح بوجهه وعندما فتحهما مُجددًا كان هذا الشخص الغريب قد اختفى وعادت الأضواء مُجددًا، فاحتار كريم من أمره وظن أنه يتهيأ وتوجه إلى المسجد ومن حسن حظه أن أنوار المدينة كانت تضيء الشوارع وإلا ما كان ليرى خطواته على الأرض.

وصل أخيرًا إلى وجهته ونظر إلى الجامع الأبيض الضخم المُنير والذي لطالما سحره جماله ومعماره المُميز، وكلما تفرس فيه أكثر شعر كأنه يضيء بنورٍ يغشي الصدور. خلع حذاءه ودخل إلى الجامع وشعر بدفئه وهدوءه يغشيانه وأحس أن صراعه مع الطبيعة كان يستحق كلّ هذه المَشقة أمام هذه الراحة والبهجة التي تعتريه بمجرد أن يدخل إلى هذا المكان المُبارك. رأى أن المسجد فارغ اليوم اللهم إلا من خمسة أشخاص فأصابه الإحباط من قلة إيمان الإنسان المُعاصر وتفضيله النوم على الصلاة، ولكنه لم يعد يتحير من تصرفات البشر فقد قرأ ما يكفي ليفهم ما يعتري العالم من حيرة وبؤس وانهماك في كلّ ما هو يسير من منافع وملذات.

رأى إمام المسجد الشيخ عامر يستقبله ويسلم عليه بحرارةٍ قائلاً:

- كنت أعرف أنكَ ستأتي ولن تخيب أملي يا بني فلنعم الذرية أنت.

ابتسم كريم في وجه والده العجوز الطيب ذو الملامح البشوشة وقال:

- وقليلٌ من عبادي الشكور.

اومأ والده برأسه بأسى وأمسك بمسبحته قائلاً بنبرة حزينة:

- أخاف أن يُرسل الله علينا عذابًا لا نجد منه مهربًا.

- لا تخف فما نحن فيه من فقرٍ وجهلٍ يكفي.

- ولكن الناس تتمادى وتنتهك كل الحرمات كلما أزداد الفقر ولا يرجعون إلى رُشدهم.. لقد حلمت بحلمٍ عجيب اليوم وأخاف أن يكون رؤية صادقة.

انكمشت حدقة عين كريم في محجريهما وخاف أن يسمع ما سمعه من زوجته، فابتلع ريقه بصعوبة ووضع يده على كتف والده وقال بنبرة مرتجفة:

- وما هو هذا الحلم؟

نظر إليه الشيخ عامر بتوجسٍ وخيفة وهمس بصوتٍ خافتٍ ومريبٍ قائلاً:

- عالمٌ بلا نور.

مرت الكلمات عبر جسد كريم وهزته هزاً كاد يتضح على ملامح وجهه لولا أنه تماسك وتوجه إلى القبلة ليصلي سنة الفجر قائلاً في محاولةٍ لتجاهل ما هو واضح:

- لا تخف يا والدي فأنا لم أسمع عن علامة من علامات الساعة تذكر أن الشمس ستختفي أو أن العالم سيصبح بلا نور.. إنهُ مجرد كابوس وقريباً سيعود الناس إلى رُشدهم فلله تدبيره وهو أعلم بعباده ولو شاء لهداهم جميعاً ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم.

كان الشيخ عامر إمام المسجد الأبيض في مدينة الشيخ زايد، ولكنه كان أيضًا مهندسًا بارعًا ويُحب أن يقضي وقته في الآلات الكهربائية والمصابيح وغيرها، فظل يحاول أن يقرأ كلّ ما يخص هذه العلوم والاكتشافات الحديثة، ويجرب مع نفسه صنع مصابيح بالطاقة الشمسية وغيرها من الأمور؛ عبر جمعه للقطع وشراءها، وبعد أن حصل على معاشه وجلس في بيته تفرغ أكثر لأبحاثه الخاصة، وعندما أصبح إمام المسجد جعل أحد الغرف بجانب المسجد خاصة باختراعاته وأفكاره، ينهي صلاته وقراءة بعض الكتب ومن ثمّ ينكب على العمل في هذه الغرفة بشغفٍ لا ينطفأ.

وبعد صلاة سنة الفجر ظهر مُهند وهو يرتدي بذلة سوداء مُنسقة غالية الثمن ويبدوا عليها الفخامة والأبهة. كان مُهند أبيض البشرة وشعره بني داكن وناعم وممشط للخلف، وتلمع عينه الزرقاء تحت أضواء المصابيح لتضفي عليه بهاءً خاص. فنظر له كريم وقال بنبرة لطيفة ساخرة:

- أأنت قادمٌ إلى الصلاة أم إلى عرسك؟

ضحك مُهند ووضع يده على كتفه قائلاً وقد رفع حاجبيه بمكرٍ:

- "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعبادهِ والطيبات من الرزق".. وأختم بآية "خذوا زينتكم عند كل مسجدٍ".

شعر كريم بالحرج وضحك قائلاً لصديق طفولته:

- سعيدٌ أنكَ أتيت رغم هذ العاصفة الهوجاء.. ما أخبار محاولاتك لفتح شركة الإلكترونيات التي تريد بها أن تُدخل مصر عالم التقانة من أوسع أبوابها؟

بدى على وجهه الأسى واستبد به خورٍ عميق فتنهد قائلاً:

- إن التعامل مع جشع الشركات هنا أسوأ مما كنت أتخيلِ.. لا أحد يريد أن تقوم هذه البلد من سباتها العميق وهذا لأنهم جميعاً مستفيدون من هذا الوضع المُذري، ولا يرون أن لديهم القدرة على المنافسة إذا ظهرت شركات حقيقية تكنولوجية تقدم أبحاثاً كثيرة ومنتجات أصيلة وهذا بسبب جهلهم بالعلوم والتقانة.. ولهذا فإنهم يحاربون كلّ من يحاول أن يُجدد ويبعث الروح العلمية البحثية من جديد. لقد هددوني بالقتل إن نفذت هذه الفكرة هلِ تتخيل هذا؟ لا يريدون إلا أن نستورد مُنتجات الغرب فقط وبيعها للمستهلك العربي. ليس لديهم أي مهارة غير أخذ ما

يصنعه الغير ويبيعه. لا يفقهون إلا في التجارة فقط ويخافون كثيرًا من قسم الصناعة ويُحرمونه فيما بينهم، ومن يحاول أن يدخل هذا الباب المُحرم تحل عليه لعنات كلّ الشركات أجمعين.

رأى كريم الإحباط على وجه رفيقه وعلم أنهُ يحارب ضد حيتان يأكلون كلّ شيء ولا يتركون وراءهم إلا الفتات، ولديهم من العلاقات القوية التي تجعلهم يُحطمون حياة أيّ أحد، ورغم أن مُهند من أغنياء مصر ولديه شركات تجارة ورثها عن والدهِ فإنه كان كالفأر بين مخالب عشرات القطط. قال كريم ليشدد من أزره ويشجعه في أمره:

- وهل أحبطوك بهذه السهولة؟ توكلٍ على الله ولا تيأس، ولكن حاول أن تهادنهم وأن تؤمن ظهرك جيدًا من غدرهم وبطشهم، وبعد هذا أنطلق حتى ييأسوا من اللحاق بك.

وقبل أن يرد مُهند سمع صوت إقامة الصلاة فتوجهوا جميعًا مع الشيخ عامر للصلاة.

***

الفصل الثاني

ما بعد الكارثة

بعد العاصفة الشديدة بعدة أسابيع سار كريم بسيارته في الصباح الباكر في طرقات مدينة الشيخ زايد متوجهًا إلى عمله في الشركة الأمريكية التي أُفتتحت قريبًا في مصر مِن أجل دراسة بعض الظواهر الغريبة التي حدثت في مدينة الشيخ زايد، وأثارت الهلع والذعر بين سُكانِها. وإذ سار في الطرقات أخذ يتأمل الأشجار وبديع خلقها وأبصر الطيور تُغني والأوراق تتراقص مع سيمفونية الرياح. كانت الطرقات مرصوفة بعناية والطبيعة تغلفها مِن كُلِّ جانب. مر على عدة مولات حديثة تمتلئ بكل القيم والمظاهر العالَمانية المُستفحلة في مجتمعه؛ من فتيات يُدخن مع بعض الأولاد ويتبادلون الغمزات والضحكات واللمسات، وسمع الموسيقى الشعبية الرديئة التي تَصُم الآذان، ورأى البعض يتراقص على أنغامها. وبالطبع لا يُمكنه أن يصف ملابس الفتيات التي تعدت كل ما هو مألوف في ثقافته وكأنهن نُسخ كربونية رديئة مُقلدة من فتيات الغرب، لا أصالة فيهن ولا تميز. ومن المظاهر المُضحكة التي كان تَلفتُ انتباهه أن

الفقراء يحتشمون بينما الأغنياء ينسلخون من ملابسهم ويتعرون. أكمل طريقه وهو ناقمٌ على ما يراه واتجه ناحية الشركة الكبيرة التي تقع في الحي السادس العشر، وأبصرها تتجلى أمامه والعلم الأمريكي يرفرف فوقها مُعلناً سيادته على هذه المنطقة – وبالطبع على البلد بأكملها في الخفاء – وكان المبنى مُغطى بزجاج أزرق يحجب الرؤية عمن في الخارج وتنعكس أشعة الشمس الذهبية عليه فتجعله يبرق كجوهرةٍ نفيسة. اقترب كريم من أسوار الشركة ووضع بطاقته في أحد الأجهزة فتعرف الجهاز عليه، وانفتحت البوابة الإلكترونية على مصراعيها أمامه وألقى الحارس عليه تحيةً الصباح. دلف بسيارته ورأى الجنود الأمريكان يحرسون المبنى جيداً ويجوبون أرجاءه بلا توقف. ركن سيارته ثمّ ترجل منها وتوجه إلى داخل المبنى.

كان المبنى مُجهز بأحدث الأجهزة الإلكترونية والتجهيزات الحديثة حتى أنّ من يدخله يتعجب من وجود مبنى على شاكلته داخل مصر. كان يُشبه مبنى المُنظمة الأوروبية للأبحاث النووية في سويسرا (سيرن). كان يعجُ بالعرب والأعاجم من ذوي الخبرات وكان جُل تركيزهم الأساسي هو البحث في الظواهر الخارقة التي أرهبت القاصي والداني.

توجه كريم إلى معمله ورأى الجميع يرتدون معاطفهم البيضاء ونظارات تقي أعينهم من الأخطار الكونية؛ بعضهم يجلس على حواسيب، والبعض الآخر يقوم بعمل تجارب أو يتفرس بمجهرٍ في العينات أمامه، أو يقوم بتشغيل بعض الأجهزة الغريبة التي تصدر اشعاعات عجيبة وكهرباء شديدة. توجه كريم إلى مكتبه وجلس بجانب أنس الذي كان يضغط على بعض الأزرار في حاسوبه ويتفحص بعض النتائج. تنبه من قدوم كريم وحياه قائلاً بملل:

- مرحبًا بالمتأخر.

جلس كريم وثناءب قائلًا وهو يُشغل جهازه:

- لم أستطع النوم بالأمس... التفكير فيما حدث يكاد يفتكُ بي.

- هذا لأنكَ مولعٌ بالخوارق، أما أنا فأعمل لأتكسب المال.

ابتسم كريم نصف ابتسامة ونظر إليه قائلاً:

- أنت تعمل من أجل المال، وأنا أعمل من أجل المعرفة والتوصل إلى إجابات كونية قد تغير كلّ ما نعلمه عن الحياة.

أكمل أنس الضغط على الأزرار بسأم وقال بلا مبالاة:

- وما الفائدة من بحثك المتواصل الدؤوب؟ سيكتشف العلماء الأمريكان السر على أي حال فهم يمتلكون الأدوات والذكاء ونحن لا نملك شيئًا غير أن نساعدهم.. ولكني لا أعمل حاليًا معهم من أجل المال فقط، فالأمر يثيرني أيضًا ولكن كما ترى فلا جديد ينير عقولنا ويخلب لُبَّنا ويحرك وجداننا من أجله... حدثت هذه الحادثة ومن ثمّ اختفت عندما جاء الأمريكان لدراسة الأمر.

علق كريم على الجملة الأخيرة ساخرًا:

- وكأن هذه العقول المادية التي تنظر إلى المادة على أنها الحقيقة الوحيدة – وأن الخوارق أو الأشياء الفوق حسية هي من الأساطير والخيالات التي ابتدعها البشر – تمحوا كُلّ أثر خارق تقترب منه.. من لا يؤمنون بالشيء لن يرونه، ولو تجلى أمامهم فسيقولون إنَّما سُكرت أبصارُنا بل نحن قوم مسحورون.

نظر له أنس بضيقٍ وتنهد قائلاً:

- لا زلت تردد هذه الكلمات مُجددًا ولا تيأس. فلتقبل الواقع وتعترف بالهزيمة، لأن الغرب قد سحقونا حضاريًا وهم أسياد العالم الآن، ويعلمون كيف يصرفون أمورهم وأمور العالم.. ونتائج العلم بارزة حولك من تكنولوجيات عظيمة واكتشافات جديدة كل يوم، أما أنت ومن هم على شاكلتك فأنتم لا تحلمون إلا بأوهام الماضي ولا تريدون أن تعيشوا في الواقع.

عدل كريم من كرسيه وظل يقلب الملفات بين يديه يتفحص الصور ولم ينزعج مما قاله أنس فقد اعتاد عليه وسمعه كثيرًا، فالغرب استطاع أن يسحر أعين الناس واستطاع أن يُريهم الجانب المُشرق منه ويُخفي جيدًا المشاكل التي أصابت وجدانه وكيانه. قال كريم وقد مط شفتيه وعدل من وضعية جلوسه:

- أنت تقدس القوة لا الحقيقة، ولو كنت تعيش في عصر الحضارة الإغريقية كُنتَ لتتباهى بعظمتها وقوتها وتُهين كلّ من يتجرأ عليها، وإن لم تكن تعلم فحضارة اليونان كانت في أحد الأيام أعظم حضارة على الأرض إذ انتشرت فيها الفلسفات والعلوم والأبهة في البنيان والملبس والمأكل وحتى في الديموقراطية، فاليونان هي أول من أسس للديموقراطية وليست الثورة الفرنسية كما تظن، ولكنهم كانوا يعبدون آلهة وهمية لم يعد لها وجود وكان عدد العبيد خمسة أضعاف عدد الأحرار، وكانت اليونان مُقسمة إلى دويلات متناحرة تقاتل بعضها بعضًا ولا وحدة بينها أو سلام، ومن أشهر الحروب كانت التي تُشن بين سبارطا وأثينا على الدوام حتى حطمت سبارطا أثينا منبع العلوم والجمال في هذا العصر. ألا

تذكرك قصة اليونان ببعض مما رأيناه في هذا العصر من دول قومية متفرقة تتعارك على حكم العالم واحتكار المعرفة، والنظر بدونية واشمئزاز لغيرهم من الحضارات، وحروب عالمية وباردة قتلت الملايين وشردت الكثير، ولكنهم هذه المرة يعبدون المادة والأموال والقوة والعلم بدلاً من آلهة أوليمب الإغريقية المُزيفة.

عبث أنس في شعره بعناد وانكمشت قسمات وجهه، ولكنهُ رأى عالِمة أوروبية شقراء تمر من أمامه، فنظر إليها كالسكير يتفرس جمالها، ودمدم قائلاً بصوتٍ خافت:

- إنها الشمس بضيائها.

نظر له كريم وهو يهز رأسه في إحباطٍ من تصرفاته وقال:

- هذا ما يُعجبك في حضارة الغرب، الجمال والمظاهر الخارجية! ولهذا أحيانًا لا أعرف هل من أناقشه يناقشني من أجل معرفة الحقيقة أم من أجل أن يُثبت أهواءه ورغباته.. لديك زوجة في البيت فحاول أن تقلل نظرك للنساء فأنت لن يملأ عينك إلا التراب.

تأفف أنس وأمسك بسيجارته وأشعلها قائلاً بحنقٍ:

- ارحمني ودعني أفعل ما شئت فالله من سيحاسبني وليس أنت.

- سأرحمك ولكن تصرفاتك لا تُعجبني من فترة.. لقد جاء أحد التجار الذين يعملون معك من فترة واشتكاك لوالدي في المسجد وأخبره أنكَ أكلت أمواله وأخذتها بغير حق، فهل هذا صحيح؟

تبدلت ملامح أنس وتوتر وبدا عليه الضيق فقال والغضب يقطر منه:

- هذا الكاذب اللعين.. يسرق أموالي ويشتكيني.. يا لخداع الناس هذه الأيام. خاف أن أشتكيه أولاً فسبقني ليُلقي عليّ بأصابع اللوم. ولكنّي لن أهدأ حتى أسترد ما أخذه مني.

وغير الموضوع حتى ينهي هذا الجدال قائلاً وهو يتثاءب:

- إذن ما الذي شغل بالك وأرق مضجعك البارحة؟

علم كريم أنهُ تهرب من النقاش ولكنه لم يهتم وترك الأمر لوالده ليحكم فيه، وضغط بالفأرة على عدة أيقونات وتنهد قائلاً:

- كنت أفكر في كلّ الاحتمالات... في البدء ضربتنا ريح صررًا عاتية وكادت تُهكلنا، وبعد أن هدأت ظهر ما ظهر ورأينا ما رأينا واستمر الأمر عدة أيام ثمّ اختفى... إذن ماذا لو أعادت هذه العاصفة كرتها ولكن بقوةٍ أشد، فهل سيتكرر الأمر؟ وهل هذه الريح عبثت بطريقة ما بالزمكان، وجعلت النسيج الكوني يتداخل حتى أنتج لنا ما أنتج؟ أم أنّ هناكَ شيء آخر يُلقي بظله وراء كل هذا الغموض؟ والأكثر من ذلك هو، هل هناك حياة مخفية عن أعيننا؟ هل هناك أبعاد تُطِلُ على عوالم لم ترها عينٌ قط؟

استند أنس على قبضة يده وشرد بخياله قليلاً ثمّ كسر حاجز الصمت قائلاً بنبرةٍ يشوبها الشك والتوجس:

- لا أعلم. إن الأمر مُفزع والبحث يتقدم ببطءٍ ولكن قد نكتشف شيئًا في النهاية... يقولون أنّ هناك عاصفة أقوى ستضربنا الأسبوع القادم... يبدو أننا سنختبرُ صِحة مقولتك.

فغر فاه كريم من الخبر وأصاب جسده رجفة ألمت به وبوجدانه. نظر إلى أنس وابتلع ريقه بصعوبة وقد ساوره ما حدث في العاصفة الأولى، فسرت رجفة متقطعة في جسده وقال والكلام يختنق في حلقه:

- يا إلهي. هل سيتكرر هذا الجحيم مرة أخرى؟!

- من يعلم. ربما تمر مرور الكرام فلا يُصيبنا فيها مَخمصة ولا عذاب.

- أشكُ في ذلك... لا بد أن الأمر سيتكرر وهذه المرة سيكون أسوأ.

- تفاؤلك يلمس قلبي.

نظر كريم إلى حاسوبه وظهرت أمامه بعض النتائج فتأملها قليلاً ثمّ كسر حاجز الصمت قائلاً بنبرة يملأها الشغف والشك والترقب:

- حسناً فلنفكر معًا... جميعنا يعلم ما رأيناه بعد حدوث هذه العاصفة، وقد أُصيب البعض بسكتات قلبية، والبعض الآخر أُصيب بنوبات عصبية، وكثرت الحوادث في الطرقات ومات القليل، وكثير من الناس قد استبد بهم الأرق فلم يناموا من هولِ ما رأوه، وأنا منهم... ولكن هل ما رأيناه هو مجرد خيالات عابرة أثارتها هذه العاصفة؟ أم أنّ هذه العاصفة بطريقةٍ ما عبثت بذاتنا وجعلتنا نرى ما يتجاوز عالم المادة والحس؟

ارتشف أنس رشفة من كوب القهوة وسحب بعض الدخان من سيجارته وزفره، ورفع عينيه إلى السقف قائلاً:

- حسنًا أنت كشخصٍ يؤمن بعوالم الغيب وبأنها حُجبت عن أعيننا لأسبابٍ كثيرة منها ما حدث بعد العاصفة، فإذا كانت هذه العوالم موجودةً فنحن قد أبصرنا ما كان محجوبًا عنّا، وقد أصابنا الهلع مما رأيناه.. ولهذا فالأصلح للإنسان أن تظل أعيننا جاهلة مُغلقة عن هكذا أشياء إن

لم يكن هناك تفسيرٍ علمي واضح لهذه الظاهرة.. وبالطبع سيكون هناك تفسير علمي صلب يبعد عنّا كل هذه الترهات والأساطير والخزعبلات التي ملأت عقلك.

- نعم ولكن تخيل لو أن هذه العوالم موجودة واستطعنا أن نكتشفها. سيفتح هذا لنا أبواب معرفة هائلة لا قِبل لنا بها، ولعل هذه المعرفة تنقلنا إلى مرحلة أكثر تطورا وتفتحا، وربما تُنهي الكثير من الجدالات عن الروح والوعي ومصير الإنسان وهدفه.. لدي فرضية ولكنها تحتاج إلى بعض الدعائم لأنها لا تعتمد على عالم المادة، وبالطبع لم أجد غيرك للأسف لأرويها له، وهذا لأنكَ لا تؤمن بالميتافيزيقا وما وراء الطبيعة على الرغم من إيمانك بالله، ولكن المذهب المادي يغلب على تفكيرك فلا تصدق إلا ما تراه عينك.

- وما هي يا سيد روحاني؟

عدل كريم من وضعيته وانتصب جسده في تركيزٍ شديدٍ وقال:

- نحن نؤمن بثنائية المادة والروح، وهذا بعكس الحضارات الغربية التي يطغى عليها الإيمان بأن العالم هو مادة فقط، وأنّ العلم التجريبي يمكنه تفسير أي شيء، وإن عجز عن ذلك فهذا الشيء لا وجود له، ولأن الروح لا يُمكن وضعها في المعمل وإجراء الاختبارات عليها، ولا يمكن تفسيرها علمياً فقد أنكرها بعض العلماء في الغرب.. وبالطبع أنتَ تعلم أنّ هذه الشركة هي شركة أمريكية، ولهذا إن تحدثت معهم بشأن هذه الفرضية فسينغضون إليّ رؤوسهم وينعتونني بالمجنون، أو أنني لا أفقه حديثًا، وهذا على الرغم من أن هذه الشركة قد صُممت من أجل دراسة الظواهر الخارقة، إلا أنني أعلم أن أكثرهم يؤمنون أنّ هناك تفسير علمي لكل هذا،

وأنّ الأمر يتعلق ببعض الأوهام العقلية... على أي حال فرضيتي هي أنّ الروح يمكنها أن ترى العوالم الغيبية، أما الجسد المادي فيعجز أن يرى إلا عالم المادة الذي لا روح فيه... فالعين هي وسيلة للرؤية وليست هي بحد ذاتها ما يرى، فهي تنقل الضوء الذي يسقط على الأجسام المادية وينعكس عليها فيعبر من خلالها إلى العقل الذي يُفسر هذه الأجسام ويضع شكلاً ولونًا لها، ولهذا فكلّ هذه الأشكال والألوان والأشياء التي نراها يوميًا هي من تفسير عقولنا... إن العين لا ترى إلا ما يسقط عليه الضوء، ولكن ماذا لو كانت هناك أشياء لديها أطوال موجية أصغر أو أكبر مما تراه أعيُننا؟ فالعين ترى من 400 إلى 700 نانومتر، وأي شيء أقل أو أعلى من هذه الأطوال الموجية لا تراه العين، فنحن لا يُمكننا على سبيل المثال أن نرى الموجات الصادرة من أجهزتنا الإلكترونية؛ بسبب اختلاف أطوالها الموجية، ولا يمكننا أن نرى الأشعة تحت الحمراء أو فوق البنفسجية... وهذا يعني أنه ربما هناك كائنات غير مادية لا تراها أعيننا بسبب اختلاف طولها الموجي، وبما أن هذه الكائنات غير مادية فقوانين الفيزياء لا تسري عليها، ولهذا فلا يمكن للعلم أن يكتشف وجودها، وهذا يعني أنهم قد تكون سرعتهم هائلة أو ربما يمكنهم التحليق لأن قانون الجاذبية والاحتكاك لا يسري عليهم، وهذا على عكسنا، فنحن لا نطير لأن قانون الجاذبية يسحبنا إلى الأرض إن حاولنا فنسقط.

عدل أنس من وضعية نظارته ونظر إلى كريمٍ بتعجبٍ وقد حفز كلامه عقله وجعله يشعر بالعجب مما قاله فقاطعه قائلاً:

- حسنًا لديك وجهة نظر وبالأخص لأن طيف الموجات الكهرومغناطيسية – الذي يكون الضوء جُزءًا منه – يقع في نطاق واسع جدًا بين موجات الراديو ذات الطول الموجي الكبير (10 أس 5 نانو متر)

وموجات الكوزميك (تلك القادمة من الفضاء وناتجة عن بقايا الانفجار الكبير) ذات الطول الموجي الدقيق جدًا (10 أس 10 نانومتر) وهذا هو النطاق الذي نعرفه فقط حيث لا يُمكننا التعرف على شيءٍ منها إلا ما تَسمح أجهزة رصدنا بالتعرف عليه، وذلك لأننا كبشر ندرك بأعيننا جزءًا من 30 مليار جزء من الأشعة الكهرومغناطيسية فقط، ونفس الأمر ينطبق علي الأذن، فنحن لا نسمع كل الأصوات التي تحدث من حولنا بل نلتقط فقط موجات صوتية في حدود ترددات معينة تقع ما بين 20 هرتز إلي 20 ألف هرتز، وهناك من الحيوانات ما يستطيع أن يسمع أعلى أو أقل من ذلك، وهذا ما يجعل بعضها أحيانًا يهرب قبل وقوع الزلازل لأنها تستطيع أن تسمع صوت انزلاق صفائح القشرة الأرضية قبل أن تنتقل الحركة إلى سطح الأرض بالفعل... وهذا يعني أنه ربما هناك شيء ما يتجاوز إدراكنا فلا نراه ولا نسمعه ولكن ما علاقة هذا بالروح؟

تحمس كريم لتقبل صديقه أفكاره الغريبة واستطرد يقول بشغفٍ عارم لا ينضب:

- حسنًا كما قلت إنَّ كلّ ما نراه هو تفسير عقولنا القاصرة لعالم المادة، ولكن ماذا لو كان هناك كائن يمتلك عقلاً يتجاوز قدراتنا بكثير بحيث يستطيع أن يرى ويسمع كلّ ما يدور حولنا في عالم المادة على كوكب الأرض أو في الكون.. ماذا لو استطاع هذا الكائن رؤية كلّ الأطوال الموجية للفوتونات! وماذا لو استطاع أن يسمع كلّ الموجات الصوتية من حوله! ألن يختلف العالم في نظره! سيرى ألوانًا وأشكالاً لم ترها عينٌ قط وسيسمع أصواتًا لا تعيها أي أُذن ولا تسمعها، وهذا يعني أنه سيرى عالم آخر يختلف عن العالم الذي نراه.. بل ربما نحن من نرى جزءًا من الصورة الكاملة بينما يرى هو الصورة بأكملها.. ألن يكون لهذا الكائن عقلية جبارة

وعظيمة لم يعلم عنها أي كائن في الوجود؟ ألن يظن أن من حقه أن يبسط سيطرته علينا نحن الكائنات الجاهلة الضعيفة ويوجهنا كما يشاء؟

- هذا مُثير.. إذا ماذا تريد أن تقول؟

- ما أريد قوله هو أن الروح أو النفس أو الجسد الاثيري أو أدعوها ما شئت، بإمكانها أن ترى ما لا يراهُ الجسد المادي! إنه كيانٌ مُختلف جاء من عالم السماء وسكن هذه الأجساد المادية حتى يخوض اختباره، ومن ثمّ يترك هذا الجسد يعود إلى التراب فيتعفن ويأكله الدود.. وكأنه أداة تستخدمها لفترة لهدف معينٍ ثم تُلقيها عندما تبلى وتفنى وتموت.. ألا تظنِ أنّ هذه الروح تسبقَ الوجودِ المادي؟ سأحاول أن أبسط لكَ أكثر. إنكَ تولد في هذا العالم طفلاً صغيراً ضعيفاً لا يفقه شيئاً ومع الوقت تكبر وتتأثر بعالمنا وبمن يعيش فيه، وتبدأ في تقليدهم وارتداء نفس ملابسهم واقتباس نفس أفكارهم ودينهم حتى تشعر أنك جزء من هوية مجتمعية معينة تعينك على الاستمرار في الحياة، ولكن ما لا تدريه هو أنك فجأة ظهرت للحياة في هذا الجسد البشري المُتأثر بالعوامل الوراثية والجينية لسلسلة بشريةٍ طويلة امتدت منذ آدم عليه السلام إلى اليوم، وأنكَ ربما كنت موجوداً في هيئة أخرى قبل أن تدخل إلى جسدك البشري في رحمِ أمك، وهذه هي الهيئة الروحية. الأمر أشبه بأنك جني عثر على جسد إنسان ميت فدخل فيه وصار يتحكم به لفترة طويلة حتى نسى شكله الأصلي، ونسي أن هذا الجسد ليس له، وأن هذه ليست هيئته الحقيقية، وأن هذا الجسد سيكبر ويشيخ ويموت، وبعد ذلك يخرج الجسد الروحي الحقيقي منه ويتذكر هيئته وشكله الحقيقي.

وضع أنس يده على ذقنه وشرد يُفكر قليلاً فيما قاله وقد أصابه بعض التوتر ثم قال:

- نعم بقناعتنا الدينية أننا جئنا من السماء إلى الأرض لنخوض الاختبار فنظفر بجنة الخلد أو نفشل فنُلقى في جهنم، فإن هذا يدعم نظريتك، وهناك بعض الأدلة على ذلك مثل قول الله عز وجل في كتابه الكريم: **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ**. وهذا يعني أن الله تحدث إلينا قبل أن نولد على كوكب الأرض وأشهدنا أنه ربنا كي لا نقول إنّا كُنّا عن هذا غافلين ولكن لماذا نسينا هذا؟ أنا لا أتذكر أنني تحدثت إلى الله!

- ربما لأنه أُعيد خَلقنا... أي أننا هبطنا من عالم السماء إلى عالم الأرض وأعيد ولادتنا في أجسادنا هذه ككائنات مادية لا ذاكرة لها من قبل... ولدنا أطفالاً لا نتذكر أي شيء عن هيئتنا الحقيقية وعن حقيقتنا الكونية... الأمر أشبه بأن يقوم أحدهم بغسل عقلك ومحو ذاكرتك القديمة حتى تعيش حياة جديدة مختلفة بالكامل، وينسيك كُلّ شيءٍ عن حياتك ثم يلقي بك في مدينة أخرى لا تمتُ بصلة لمدينتك التي ولدت فيها وجمعت فيها كل ذكرياتك.

- إذن كيف من المُفترض أن نتذكر هذا؟ لقد أُعيد غسل عقولنا ولن نتذكر شيئًا إلا عندما تُوفانا المنية وتعود أرواحنا إلى بارئها، عندها فقط سننفصل عن الجسد المادي ونعود إلى هيئتنا الحقيقة فتتدفق ذكرياتنا مرة أخرى عن ميثاقنا مع الله وسنتذكر كُل شيء. ولكن كيف سنتذكر أننا كلمنا الله أثناء مكوثنا هنا على الأرض؟

- وهنا جاء دور الرسل والرسالات لتذكرنا بهذا الميثاق فلا يكون لنا حجة على الله، ويأتي دور العقل للبحث عن الحقيقة والوصول إليها من أجل معرفة الغاية من الحياة، ويأتي دور القلب لتقبل الحقيقة حتى لو خالفت الأهواء والرغبات، كما أن معرفتنا بهذه اللقاء مع الله سيجعل الكل يؤمن به، ولن يكون هناك اختبار يظهر الخبيث من الطيب ويُحدد من يؤمن ومن يكفر بإرادته، والأدلة كثيرة على وجوده حتى لو لم نتذكر أنك كلمته، ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور... على أي حال فرضيتي هي أن هذا الجسد غير المادي المُسمى بالروح أو الوعي إلخ، له هيئة مُختلفة في الشكل عن هيئتنا المادية الحالية، لأن هيئتنا الحالية يدخل فيها عوامل بيولوجية مثل الوراثة ومراحل العمر التي تتغير هيئتك فيها عدة مرات حتى تموت.. أما هيئتنا الروحية فهي هيئة خالدة لا تموت بل تنتقل من حالة إلى حالة، تدخل في الجسد المادي الحالي ثم تخرج منه وهكذا. ولهذا فهي خالدة لا تفنى إلا بإذن الله، وهذا يُفسر خلودنا في الآخرة في الجنة أو الجحيم.. فأجسادنا المادية لا يمكنها أن تخلُد لأنها قاصرة ولا تعيش طويلاً. فهي تمرض وتضعف وتتأثر بعوامل الطقس وتُصاب إذا سقطنا، وتحتاج إلى الطعام والماء والنوم لتتحرك، أما الجنة فلا نوم فيها ولا جوع ولا ظمأ ولا مرض ولا ألم ولا كرب ولا حزن، وهذا يعني أننا في الجنة لن نكون في هذه الأجساد المادية الضعيفة الفانية، بل سنكون في هيئة أخري خالدة تتجاوز كل احتياجات الجسد المادي الحالي.. فالروح لا تحتاج إلى الطعام ولا تمرض ولا تنام إلخ... وهذا يعني أن الروح بإمكانها رؤية أشياء لا تراها أعيننا المادية، كألوان وأشكال ومخلوقات وعوالم. ستُبصر الروح الملائكة أثناء موتنا في هذه الحياة، وربما يُمكنها أن تري الشياطين أيضاً، أما الأجساد المادية فلن

تراهم ولو بعد ألف عام وكما قال الله: لقد كُنتَ في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُكَ اليومَ حديد.. ألا يثير تعجبك أنّ بصرك سيصبح حديد؟ صُلب يرى كُلّ ما خُفي عنه وكلّ ما يدور من حوله، وكلّ ما استعصت عينك المادية القاصرة عن رؤيته! وربما يدعم هذه النظرية كوننا في الجنة سنكون جميعًا في نفس السن ونفس الطول والحجم ونفس درجة الجمال، وهذا ما لا نراه بالطبع في عالمنا الحالي. فنحن بيننا الطويل والقصير والسمين والنحيف والأبيض والأسود إلخ. ولكنّ الله يستطيع أن يحيي عظامنا ويبعثنا من جديد بنفس الجسد المادي ولكنه سيختلف في بعض الأشياء عن الجسد الحالي، وظني أن هذا سيكون بعد أن تمكث الروح في البرزخ بعد موت الجسد حتى يأذن الله بقيام الساعة وبعث من في القبور. ولكن لا أظن والله أعلم، أننا سنبعث بأشكالنا الحالية، ربما نبعث بها مع بعض التعديلات، أو نُبعث في أجساد أخرى خالدة أو نبعث في هيئتنا الروحية.

أصاب أنس بعض الاضطراب وترك ما في يده ونظر إليه ويكأنه يرى عفريتًا، فقاطعه بنبرة مهتزة قائلاً:

- هذا غريب بعض الشيء... إذن هل تريد أن تقول أنَ هذه الروح ترى كُلّ ما في الكون وكلّ ما ظهر وبطن؟ وهل هذا يعني أنّ للشياطين والجن قدرة تفوقنا في رؤية الكون؟ فهم يرون الملائكة ويروننا ويرون أنفسهم، ونحن لا نراهم، بل الكثير من البشر لا يُصدق بوجودهم لقصورٍ عن رؤيتهم، ومن هنا انتشرت الرؤية المادية الغربية التي تزعجني بها يوميًا لأنني أؤمن بها، والتي لا تؤمن إلا بما تراه وتسمعه ويكتشفه العلم التجريبي، وما سوي ذلك خيالات بلهاء.

- نعم ولديك قول الله عز وجل: إنه يراكَ هو وقبليهُ من حيثُ لا ترونهم. كما ترى فهناك حيثية، أي على سبيلِ المثال لو اتصلتُ بكَ وأخبرتُكَ أنني أراكَ الآن تسير في الطريق من حيثُ لا تراني؛ ربما أكون فوق أحد المباني في زاوية تعجز عينك أن تراني منها فتظنَ أنني خفي، ولكنك تعلم أنني في مكانٍ ما أشاهدك... هل هذا إذن يعني أنَ بإمكاننا رؤية الشياطين والجن؟

هز أنس كتفيه وقطب حاجبيه قائلاً:

- ربما. ما حدث في العاصفة يؤكد هذا... لو كانت نظريتك صحيحة فأنا أظن أنَّ هيئتنا الروحية بإمكانها رؤيتهم، أما المادية فتعجز عن ذلك وهذا يعني أن ما حدث في العاصفة هو...

***

الفصل الثالث

عاصفة اللامعقول

بعد أن رجع كريم من صلاة الفجر عبر العاصفة وجد زوجته نائمة فنام بجانبها دون أن يقلقها. وفي الصباح الباكر استيقظ قبلها وجلس أمام التلفاز واتكأ على أريكته وألقى ببعض حبات العنب في فمه وهو يشاهد الأخبار التي تبشر باشتداد العاصفة اليوم حتى تصل إلى قوة لم يسبق أن شهدتها مصر، وبينما هو يفكر في تأجيل كل أعماله اليوم إذ دخلت عليه زوجته بطعام الغداء، ونظرت إليه بضيقٍ قائلة بنبرةٍ معاتبة:

- ألم أقل لكَ ألا تأكل العنب إلا بعد الطعام؟

ألقي بحبة عنب أخيرة في جوفه وابتسم بخجلٍ قائلاً:

- آسف يا عزيزتي، أخذتني الغفلة على حين غرة.

وضعت الطعام على المائدة وألقت نظرة على التلفاز ورأت خبر العاصفة فتنهدت قائلة:

- كم أكره الشتاء، يأتي بالبرودة والعواصف والأمطار ويحوّل حياتي اليومية إلى جحيم.

ترجل كريم وتوجه ناحية المائدة وهو ينفثُ في يده ليُدفئها من برودة الجو، ثمّ قال وهو يلقي بجسده على أحد الكراسي:

- أين حنان وحسين؟

- في غرفتهما يحاولان إنهاء واجباتهما.

- ألن يأكلا؟

- لا. ليس قبل أن ينتهيا من واجباتهما.

- هذه طريقة قاسية في التعليم وستحيل بينهما وبين التعلم الصحيح... عليهما أن يأكلا أولاً حتى تتجدد طاقتهما فيذاكران بجهد أكبر، رغم أنّي لا أرى فائدة من تعليم المدارس ولكن كيف أقنعك بما يدور في خلدي من أفكار.

وقف كريم ليُنادي عليهما وسط تذمر زوجته، وإذ البيت يهتز بقوة من أثرِ رياحٍ هوجاء ظلت تضربه بلا هوادة حتى اهتزت النوافذ بقوةٍ وتحطم بعضها وتهشمت على الأرض. تحف وأطباق وكتب من مكتبةً كريم سقطت كلها. أصاب الذعر والقلق قلبي كريم وزوجته وازدادت حدة الخوف إذ سمعا صوت الطفلان يصرخان ويستنجدان بهما بفزعٍ لم يسمعاه منهما من قبل. اندفع كريم يشق طريقه إلى غرفتهما وقد سبق امرأته إليهما وفتح الباب وتجمد مكانه إذ شعر ببرودة عظيمة تندفع من غرفتهما تتجاوز كل ما شعر به في حياته من قبل، ولم تكن برودة جسد بل برودة تتسلل إلى روحك فتصيبها بجفافٍ يجعلها تتآكل فلا تعود كما

كانت، ولكن هذه البرودة لم تكُ ما أفزعه بل الشيء الذي رآه هو ما جعل قلبه ينبض بعنفٍ حتى كاد يتفجر في صدرهِ على إثرِها. ثبتَ مكانه وقد اقشعر جسدهُ من الشيء الذي رآه. شاهده وطفلاه يندفعان إليه والدموع تترقرق من عينيهما، وقبل أن تصل زوجته سحبهما خارجًا وأغلق الباب بسرعة، وهو يلهث وقد تصبب العرق من جبينه بغزارة وكأنه تعرض لقيظ الصحراء الغربية. ركضت زوجته واحتضنت ولديها وأخذا يبكيان حتى ابتلت ملابسها، وشرعا يتحدثان بعشوائية قائلين في نفس الوقت:

- وحش... وحش... أسود... مُرعِب.

نظرت إليه بقلقٍ ورأت نظرة رعب في عينيه لم ترها من قبل، فتمتمت قائلة وقلبها ينبض كطبول الحرب:

- ما الذي رأيته؟ أخبرني.

لم يستطع أن ينبس ببنت شفة، وركز كُلّ جهده على محاولة التنفس ومحاولة السيطرة على نبضات قلبه حتى لا يصاب بسكتة قلبية. ألحت عليه زوجته ولكنه نظر إلى السقف في شرود مُريب، وبعد ذلك تحرك وهو يترنح وألقى بجسده على الأريكة واستمر لهاثه بطريقةٍ أصابت زوجته بالكرب وهي لا تدري ما حل بزوجها وأولادها.

ظلت العاصفة تضرب مباني الشيخ زايد، وحل الصمت على بيت كريم وقد هدأ الطفلان وغطا في النوم بعد أن بكيا لفترةٍ طويلة من الرعب حتى أصابهما الوهن والإرهاق وغطا في نومٍ عميقٍ في أحضان أمهما. حاولت خديجة أن تفتح التلفاز حتى تكسر حاجز الصمت القاتل في البيت والشرود الذي استبد بزوجها، ولكنها فوجئت بإشارة ضعيفة

ورأت القنوات تعمل للحظات معدودة ثم تختفي، فتأففت وأغلقت التلفاز في ضيقٍ ووجهت نظرها إلى كريم قائلة بتذمر وغيظ:

- ألن تخبرني بما رأيت؟ لقد أكل الفضول والخوف جزءًا من قلبي.

نظر لها كريم بعينٍ تُشبه عين السكير وقال بنبرة متقطعة:

- صدقيني.. من الأفضل لكِ.. ألا تعلمي.

- لست أنتَ من يُحدد هذا.. أريد أن أعرف، المعرفة ستُهدأ قلبي وفضولي.. ليس هناكَ شيء أسوأ من الخوف من المجهول.

شرب كريم زجاجة ماء كاملة والعرق يتصبب من جبينه ثمّ قال:

- صدقيني هناك أسوأ.. سأخبركِ في الصباح.

- فلتخبرني الآن أرجوك.

- أرجوكِ... أريد أن أستريح قليلًا وأفكر في احتمالية ما رأيت وإن كان محض خيالٍ أم لا، ومن ثمّ أعدكِ أن أُخبركِ بكُلّ شيء.. لا تنزعجي منّي أنا أُدرك جيدًا فضولك ورغبتك في المعرفة، ولكن لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم.

وقف كريم على قدميه وتوجه إلى غرفته رغم خوفه من البقاء وحيدًا، ولكنهُ أراد أن يجلس وحده ليفكر. دلف إلى غرفته وألقى بجسدهِ على السريرِ، ودون أن يشعر غط في نومٍ عميق، وحلم بأكثر الكوابيس شناعة ورعبًا مُنذ ولد. عالمٌ بلا نور.

استيقظ من النوم في الساعة السابعة ولم يجد زوجته بجانبه فتوقع أنها قضت ليلها مع الأطفال الخائفين. أخذ وضعية الجلوس وشعر بألمٍ شديدٍ

في رأسه وضيق في صدره يكاد يفتكُ به. كانت رؤيته خافتة فتثاءب ومسح عينيه ورأى خيوط الشمس تنسل كالحرير الناعم من النافذة لتضيء له الغرفة قليلاً، والرياح لا تزال تعصف في الخارج، فنظر إلى يساره وانتفض جسده إذ رأى عنكبوتًا بحجم كف يده يسير بجانبه فأزاحه بيده كردة فعل ولكنه فوجئ أن يده مرت عبر جسد العنكبوت كأنه شبح! وبعدها ورأى العنكبوت الأصفر الغريب يتلاشى ويختفي ويكأنه لم يكن. اتسعت عيناه ودقت طبول قلبه بسرعة رهيبة ووثب بسرعة من على سريره إذ لمح شيئًا على يمينه، ولكنه تجاهله والرعب قد تملّك اوصاله وانطلق إلى غرفة الأولاد، وأيقظ زوجته التي فُزعت من تصرفاته ورأته يلهث قائلاً:

- هناك شيءٌ غريب يحدثُ هنا.

وضعت يدها على قلبها وقالت وشفتاها ترتجفان وقد رأت وجه زوجها في غاية الشحوب:

- ماذا حدث؟ ما الذي يحدث هنا؟ ألن تُخبرني؟!

أضاء كريم الغرفة وحاول أن يُهدئ نفسه ويخفض من صوته حتى لا يستيقظ الأطفال فهذا آخر ما يرغب فيه. أخذ زوجته إلى غرفة المعيشة ونظر في كلّ اتجاه نظرة حذرة موارية وبعد أن تأكد من عدم وجود أي شيء، أجلسها على الأريكة وجلس بجانبها وأمسك يديها ونظر في عينيها الجميلتين قائلاً:

- أظن أنني جننت... أرى أشياء غريبة لا تفسير لها... مخلوقات لم ترها عيني قط وكأن عيني قد أبصرت عالمًا آخر يتجاوز كل ما نعلمه عن عالمنا.

انقبضت قسمات وجه خديجة ونظرت إليه بشحوبٍ قائلة:

- ماذا تقصد؟

- لقد رأيت في غرفة الأولاد... رأيتُ شيئًا لا أستطيع وصفه... ولهذا لم أقدر على وصفه لكِ... لا أعلم ماذا يحدث لي، ولكنَ الأغرب هو أن الأولاد رأوه أيضًا!

حاولت خديجة أن تمتلك اعصابها التي انقطع بها السبيل إلى الذعر المُطلق ودمدمت قائلة بلهجة صريحة طلقة:

- ألا إنكَ إن لم تخبرني بما رأيته فلسوف أمتنع عن الكلام معكَ حتى تتعلم أن تثق في.

نظر إليها كريم بشفقة وعلم ما يدورٍ في خُلدِها، ولكنه لم يرد أن يؤرق مضجعها وحياتها بما أبصره. تنهد قائلاً بيأس:

- تصرين على اجتذاب الخوف إلى قلبكِ... على أي حال ما رأيته هو...

ركض شيء صغير وغريب من أمام خديجة ودخل إلى غرفتها هي وكريم، فصرخت صرخة صغيرة أفزعت كريم من إثرها، فقال لها بقلقٍ عارم:

- ماذا حدث؟

أشارت بإصبعها ناحية غُرفته وقالت وهي ترتعد:

- لقد رأيت شيئًا غريبًا يركض إلى غرفتك!

- ما كُنهه؟

- لا أعلم. كان يبدوا صغيرًا ولكنه يُشبه البشر ويكأنه طفلٌ وليدٌ ولديه شيءٌ عجيبٌ على ظهره لم أكد أراه.

وقف كريم وتوجه ناحية الغرفة ببطءٍ وخديجة في ذيله والخوف ثالثهما، وعندما اقتربا من الغرفة سمع كريم صوت اصطدام سيارة في الطريق وتلاها عدة اصطدامات أخرى أرهبته فغير اتجاهه وتوجه ناحية الشرفة يحاول أن يُبصر أي شيء وسط إعصار الرمال الرهيب الذي يضرب البيت بلا هوادة، ولكنه لم يستطع أن يُبصر أي شيء. سمع صوت صراخ يصدر من الشقة أسفله تلاها صرخات في المباني والشقق المجاورة، وامتد الصريخ حتى كاد يشمل المدينة بأكملها، ففغر فاهه وأحس بزوجته وهي تطوق ذراعيه بيديها المرتجفتان فقال صائحًا:

- ما الذي يحدث هُنا؟

لمح شيئًا ضخمًا يتحرك بين العاصفة وكاد يقسم أنه رأى عدة أقدام تبرز منه.

تراجع إلى الخلف وأعتصر يد زوجته خوفًا ورهبًا.

استيقظت حنان الصغيرة قبل أخيها على صوت الاصطدامات والصرخات وكانت الغرفة مُظلمة ورأت أخيها نائم بجوارها ولكنها رأت شخصًا آخر يقف بعيدًا عن سريرها وينظر خارج النافذة وكأنه يتأمل شيئًا ما. اعتقدت حنان أنها والدتها فعدلت من وضعيتها وهي تمسح عينيها قائلة:

- أمي ماذا يحدث؟

التف الشخص برأسه ونظر إليها فأبصرت حنان وجهه وصرخت صرخة عصفت بأذن أخيها فأيقظته من مضجعه فزعًا، ورأت والديها

يندفعان إلى الغرفة. بكى حسين على إثر صريخ أخته فأمسكه كريم واحتضنه ليطمئنه، بينما احتضنت خديجة حنان وظلت تحثها على التكلم بما حدث، فقالت الصغيرة وهي تبكي بحرقة:

- الوحش قد عاد.

عندما فحصا الغرفة بأعينهما لم يجدا أثرًا لأي كائن حي. نظرت خديجة إلى كريم وقد ضاقت ذرعًا من جهلها بما يحدث، وعندما همت أن تُحدثه رن هاتفه فرفعه إلى مرأى بصره ورأى أنه مُهند رفيق طفولته والمليونير الذي يحلم بصنع شركات تكنولوجيا تنافس الشركات العالمية في مصر. رد كريم قائلاً:

- "مُهند" كيف حالك؟

خرج صوت مُهند كزئير الأسد قائلاً بصوتٍ مُرتجف:

- هل رأيت ما يحدث؟

- نعم ولكن لا أفقه شيئاً منه!

- هل رأيتهم؟ الأشياء... الكائنات؟

تردد كريم قليلاً ونظر إلى ولديه ومن ثم خرج إلى غرفة المعيشة قائلاً:

- أظن أن صوت بكاء الأطفال يشرح لكَ كُل شيء.

- كاد قلبي أن يتوقف مما رأيته... وقد عم الاضطراب والهلع أنحاء المدينة، مما تسبب بالعديد من حالات القتلى والمصابين... أتظن أن للأمر علاقة بتلك العاصفة الهوجاء؟

- يبدوا أن هذه العاصفة أحدثت خللاً ما في القوانين الفيزيائية لعالمنا مما تسبب بظهور هذه الهلوسة... نعم ربما تكون مجرد هلوسة سببتها العاصفة... أو خللاً في عالمنا ولكن كيف هذا؟ إن الغموض يكتنف الأمر برمته... لعلنا نجد ضالتنا فيما حدث بعد انقضاء العاصفة.

- أنت تعرف أنني رجل بالغ ولكنني خائف... خائف للغاية ولا أطيق أن أظل وحدي في البيت ولا أستطيع الخروج في هذا الجو العاصف، كلّ عائلتي في باريس حالياً وأنا وحدي في هذا القصر الغبي.. وهناك أشياء تتحرك حولي.. أنا أتحدث إليك الآن وعيني مُغلقة ولا أريد ان افتحهما لأنه.. لأنني ألمحُ شخصًا أمامي.

- من هو؟ قل لي؟

بدأ صوت مُهند يتحول إلى نحيبٍ ضعيف وخرجت الكلمات مُتقطعة من حلقه بصعوبة بالغة:

- لا أعلم... ما أعلمهُ هو أنه أبشع شيء رأيته في حياتي وأشعر به من حولي... لم أشعر في حياتي بطاقة سلبية ومخيفة كما أشعر الآن... وكأن شرور العالم أجمع تحوم من حولي.

أقشعر جسد كريم وتخيل وضع مُهند الآن، فهو قد رأى هذا الشيء المُفزع، وإن خوفه لا ينفك يتأجج عندما يتخيله، فماذا عن الجلوس معه وحدك في قصر كبير؟! قال كريم محاولاً طمأنته:

- لا تخف أنا معك... لن أتركك... فقط ابقى معي على الخط حتى تشعر بذهابه.

وإذ فجأة تقطع الخط وتشوش وبدأ يسمع أصواتًا متقطعة تصدر من هاتف صديقه وعلى حين غرة سمعه يصرخ ويستنجد به فقال كريم وقد استبد به خور عظيم:

- مُهند ما الذي يحدث؟ رد عليّ.

- أنقذني... إنه... الظلام... القديم... اهرب... الضياء سيذهب من العالم.

اختفت الإشارة وانتهت المكالمة ولمح كريم شيئاً يقف في غرفته فأطلق سيقانه للرياح وأغلق الباب عليه وعلى زوجته وأولاده. حاولت خديجة أن تصده ولكنها أزعنت له وقد رأت الهلع في أعظم صوره يظهر على وجه زوجها.

صرخت قائلة وهي تحتضن الأطفال:

- ما الذي يحدث؟

- لقد ظفر شيءٌ ما بمُهند ويبدوا أنهُ في بيتنا.. يبدوا أنهُ نفس الشيء الذي رأيته أنا والأولاد ومن الواضح أنهُ يذهب ثم يعود.

ارتعدت اساريرها وانقبضت قسماتها وانشأت تقول وقد استبد بها خوفٍ ليس له من قرار:

- ما الذي يحدث لنا؟ لماذا يحدث كل هذا الجنون؟ يا الله أنجدنا.

أشار لها كريم بأصبعه لتصمُت وطلب من الأطفال الهدوء. سمعوا صوت أقدام تسير في غرفة المعيشة وأخذ وقع الاقدام يقترب شيئاً فشيئاً حتى شارف على الوصول، ومع كل خطوة كان قلبهم ينبض بقوة معها، حتى اقترب من الباب وتوقف، وفجأة رأوا مقبض الباب ينفتح بهدوء

وبعدها هدء، وعلى حين غرة أخذ المقبض يهتز بسرعة رهيبة كادت تحطمه فصرخ الأطفال وأغمضت خديجة عينها في خوفٍ، واستمر كريم في مراقبة المقبض الذي يكاد يتحطم فيتحطم معه آخرَ لحظة عقلانية وسلامة نفسية له. انخلع المقبض وانفتح الباب على مصراعيه، وهبت رياح رهيبة باردة وعم الظلام الغرفة حتى لم يعد كريم يرى يده؛ فركض كريم واحتضن عائلته وأغمض عينيه وهو يسمع هذا الأنين المُرعب الذي كان جزءًا لا يتجزأ من الرياح الباردة، وكأنه لا يفارقها ولا ينفك عنها. أحس كريم بأيادٍ خفية تلمس جسده وتنسل إلى روحه فأحس ببرودة في قلبه نزعت عنه كُل ما يمتُ لعالم الإنسان وأجمته بما يتجاوزه ويعلوا عليه. شعر بالرغبة في قتل نفسه من أجل التخلص من هذا الشعور الجاف البارد المُجحف. فاستجمع آخر طاقته وصرخ صرخة هزت أرجاء المكان لعله يتخلص من هيمنة الظلام الذي خيم على الغرفة.

***

الفصل الرابع

ما بعد الظلام

انزاح الظلام عن الغرفة وخلف وراءه دمارًا في كل أنحاءها، وترك كريم وعائلته يتلوون من الرعب نكرفان مذبوحة. نهض كريم وجسده يرتعد ونظر من حوله بعينٍ زائغة وقلبٍ بارد كالثلج. كان أولاده وزوجته يبكون من صدمة ما حدث، وأجسادهم ترتعد كورقة في مهب الرياح. تفرس في أنحاء الغرفة ولاحظ أن البرودة والظُلمة تطغى على الجو وكأنهم انتزعوا من عالمهم للحظات معدودة وألقوا في عالمٍ مُظلمٍ لا يعرف للشمس سبيل ولا للدفأ دليل. ظلَّ كريم في ذهول وأحس كأن قلبه بارد كقطعة ثلج وكان هذا هو الإحساس الوحيد الذي يخالجه، وقد رأى أنه لم يعد يشعر بشيء ويكأن مشاعره ضمرت واختفت وحل الفراغ المُطلق محلها! وكان هذا الشعور يقتله ويشعره أنه لا شيء أو أنه لا غاية له ولا سبيل.

توجه إلى زوجته وحاول أن يهدئها رغم انعدام شعوره بالتعاطف أو الخوف، فأراد أن يستغل هذا الشعور ويفحص الشقة قبل أن تعود إليه مشاعره مرة أخرى فيُذعر ويخاف، وهذا بالطبع إن عادت مجددًا،

وذاك التفكير كان يقتلهُ إذ أحس أنه آلة باردة لا حياة فيها ولا مشاعرٍ ولا رغبات وتطلعات. خرج من الغرفة وتوجه ناحية غرفته ليُبصر شيئاً عجيباً. كان كالقرد الصغير المشوه ولديه جناحان ورآه يقف على الأرض وينظر إليه للحظة ثم حلق بأجنحته واخترق الجدار مُبتعِدًا. وقف كريم مشدوهًا للحظات وبصعوبة خرج عن ذهوله وتوجه إلى زوجته وأولاده وكتم عنهم ما رأى حتى لا يُصيبهم مس من الجنون الذي استشرى في مدينتهم، ولكنه تأكد أن هذا القرد الصغير لا دخل له بالكائن العظيم الذي كان في غرفتهم منذ قليل. سمع صوت الرياح وهي تُعلن سطوتها على المدينة وترفض أن تدعهم ينجون بحياتهم من هذا الرعب المُستعر. أدرك كريم أنه لا مفر لهم من هذا الجحيم فالبيت غير آمن والخارج ليس بمُختلف. شعر بروحه ومشاعره تعود إليه تدريجيًا وأحس أن الظلام على قلبهِ ينقشع ويحلُ مكانهُ شمس الإنسانية الذاتية. جلست خديجة على سريرها ووضعت كفيها على وجهها وانتحبت ببطءٍ ولم ترد أن تسأل كريم عن كُنه ما حدث لأنها تعلم أنه يجهل مثلها ما يحدث. رن هاتف كريم فجأة فرد على المكالمة ليجده مُهند يقول وهو يلهث:

- كريم هل أنت بخير؟

- نوعًا ما... أخبرني ماذا حدث لكَ؟

- لقد تحولت الغرفة إلى ظلام وشعرت بأشياء غريبة تهاجمني وتصرخ في أذني وتنسل إلى قلبي فتنزعه نزعًا وفجأة انتهى كُلّ شيء!

- هذا ما حدث لي أيضًا... ما الذي يحدث لعالمنا؟ أنا لا أفهم. لا أستطيع أن أفقه ما يحدث لنا ولعالمنا... هل هي ظاهرة طبيعية لها تفسير

أم أنه نوعٌ من العقاب الإلهي لطغياننا وفسادنا... أم أن هذه الرياح الملعونة تحمل في طياتها رعبٍ كوني قديم نجهله ولا نعلم عنه شيء.

- لا أعلم... أهم شيء أنه انتهى واتمنى أن تنتهي هذه الرياح وإلا فسأفقد عقلي وربما أصاب بسكتة قلبية مما أراه... ولكن هل رأيته؟ هل أبصرته كما أبصرته أنا؟

تردد كريم قليلاً وتذكر هذا الشيء اللعين الذي رآه في غرفة الأولاد وقال بحيرةٍ:

- لا أعلم هل هذه تخيلات أم لا ولكنني رأيته ورأيت أشياء أخرى.

تنهد مُهند وأصبح أكثر عصبية وقال:

- إذن لقد تم اختيارك. لقد وضع بصمته على روحك حتى يجدك مرة أخرى عندما يعود، لأن روحك مميزة وبها من النور ما يكفي.

لم يفهم كريم مقصده وقبل أن يطلب منه تفسيرًا أغلق مُهند الخط. حاول كريم الاتصال به عدة مرات ولكنه لم يُجب. وضع يده على قلبه وأحس برعشة متقطعة باردة في قلبه.

جلس كريم يهدئ ولداه ويخبرهما أن كُل شيء بخير وحاول أن يخترع عدة تفسيرات مُضحكة لما حدث حتى ينفض الخوف عن قلبِهما، فأخبرهما أن الرياح الهوجاء كثيرًا ما تُسبب تخيلات غير حقيقية واستدل ببعض القصص الكاذبة حتى يهدئ من روعهما، ونجح قليلاً في إماطة الذعر عنهما، ولكنه لم يستطع أن يُقنع زوجته بذلك ولاحظ جسدها وهو يرتجف. قالت حنان مستفهمة ببراءة طفولية:

- إذن الوحش الأسود لا وجود له يا أبي؟

- لا يا حبيبتي إنه محض خيال لا دليل عليه وإلا فأين ذهب الآن؟ عليه أن يظل في الشقة إن كان حقيقياً.

تدخل حسين قائلاً بعد أن تذكر قصص جدته المخيفة قبل النوم:

- ألا يمكن أن يكون عفريتًا من الجن؟

أوقدت جملة حسين البسيطة تيارًا من التفكير الذي لا ينضب داخل عقل كريم، فنفى ذلك لحسين وألف قصة مختلفة عن الجن ومن ثم قال لنفسه مفكرًا:

- هل من الممكن أن يكون من الجن؟ تعريف الجن في المُعجم هو كل ما خفي عن الأعين، ربما الجن ليسوا نوعًا واحدًا كالإنس بل ربما يكونون أنواعًا وأجناسًا وأعراقًا يختلفون، منهم الشياطين والعفاريت والمردة، وكل نوع له هيئته الخاصة التي يختلف بها عن النوع الآخر، ولكننّا نستشكل هذا فنظن أن الجن نوعًا واحدًا يُشبه بعضه بعضًا، والجن قد يكونون أجناسًا مختلفة تعيش في أبعاد أخرى لا نُبصرها وربما لا يُبصر بعضهم بعضًا، أي أن هناك عالمٌ مختلف لكلّ جنس من هذه الأجناس، وربما لا يرى الجن من الأجناس المُختلفة بعضهم البعض. ربما هناك بعض الأنواع فقط تحتك بعالمنا مثل الشياطين والعفاريت والمردة وأنواع أخرى مخفية عن عالمنا وعالمهم، وربما تكون أكثر رعبًا وقوة وقدمًا وشراسة وهولاً. ولكن كيف انسلت هذه الأنواع الجديدة إلى عالمنا وكيف تمكنا من رؤيتهم؟ وربما هذا القرد الذي رأيته والعنكبوت أيضًا، ربما يكونون من حيوانات عالمهم! ربما أيضًا أن مسمى الجن هو مُسمي شمولي يشمل كل الأجناس التي لا نراها، وهذا يعني أن لكل جنسٍ منهم اسم مختلف عما نعرفه، أي إنهم لا يسمون بالجن وربما الجن هم الكائنات التي تعيش

على كوكب الأرض وفي عالمنا، وأما الكائنات الأخرى التي لا نراها فربما لها اسم آخر ولكنهم قد يدرجون تحت مسمى الجن لأن الجن يعني ما خفي عن الأعين. من يعلم غير الله.

عزم كريم أن يصل إلى تفسيرٍ مُقنع لما حدث وأحس أنه إن بحث بجدية فقد يصل إلى تفسير شافٍ ووافٍ لما يحدث. جلس على الإنترنت طوال اليوم وظل يقرأ كُل شيء عن الظواهر الخارقة لعله يصلُ إلى شيء، وتفحص آيات القرآن والأحاديث التي تتكلم عن الجن لعله يصل إلى حلٍ يشفي غليله.

هدأت الرياح في اليوم التالي وبدأ كريم يكون بعض الفرضيات والنظريات، وعكف على جهازه بالساعات لا يمل ولا يكل يبحث ويقرأ بلا توقف حتى شعرت زوجته أنه سيقتل نفسه من شغفه العارم للبحث وراء هذه الأشياء، ونصحته ألا يبحث عما حدث فبعض الأشياء من الأفضل لها أن تظل غير معلومة، وأن الله قال ألا نقف ما ليس لنا به علم، ولكنه أصر على اكتشاف هذه الظاهرة الغريبة حتى لا تتكرر. أراد أن يفهم طبيعة هذه المخلوقات التي تعيش حولهم فلا يرونها، وطبيعة عالمهم وقوانينهم، ومدى تأثيرهم على عالم البشر، وتوصل بعد عدة أيام إلى تفسير شفى غليله قليلاً.

***

الفصل الخامس

عوالم لا تُرى

جلس كريم على مكتبة أمام أنس واستطرد كلامهُ قائلاً:

- وهذا يعني أن ما حدث في العاصفة هو أنّا أبصرنا عالم الجن من حولنا، وأبصرنا عالمًا آخر يتجاوز عالم الجن، بل هو أعظم من عالم الجن والشياطين.. يبدوا أن هذه الرياح اللعينة وبطريقةٍ ما استطاعت أن تُزيح الحجاب عن أعيننا لبعض الوقت، وهذا جعلنا نُبصر ما خُفي عنّا.. هذه الرياح لم تكن ذات أثر مادي وإنما ذات أثر روحي يؤثر على روحك فيجعلك تُبصر عبرها لا عبر عينك المادية القاصرة. هذه الرياح قد جاءت من عالمٍ آخر.. عالم يؤثر بطريقة ما على أرواحنا. لقد قال مُهند لي أن هذا الشيء قد ترك بصمة على روحي حتى يعثر عليّ عندما يعود. لم أفقه منهُ شيء ولا أدري ماذا يقصد بعودته، ولكن عندما أخبرتني أن الرياح غدًا ستكون أقوى أصابني هذا برُعبٍ مُطلق. لا أريد أن أرى هذا الشيء مرة أخرى، فمجرد تذكره تجعلني أرغب في قتل نفسي. لم أرى في حياتي

شيئاً أشد رُعباً مِنه. لا زال يطاردني في أحلامي وكوابيسي وأشعر وكأنه يخترق أفكاري يومياً ويوحي إليّ بأشياء عجيبة غريبة لا أفهمها.

عدل أنس من وضعية نظارته ورفع حاجبه قائلاً:

- ما الذي يوحي إليك به؟

أضطرب وجه كريم وشعر أنس بصراعه النفسي، وعلِمَ أنهُ لا يستطيع أن يُعبر عما بداخله، فحاول أن يغير مجرى الحديث قائلا:

- لقد رأيت كائناً لديه تركيبة أجسادنا ولكنه بجناحين هائلين ووجهٌ جميل ولكنه مريب وغريب. نظر إليَّ بتعجب وكأنه لم يتوقع أن أراه ومن ثم حلق مُبتعداً بسرعةٍ رهيبة.

- لا بد أنه من الجن الطيار لقد وصفهم الرسول في حديث وهذا يثبت ما أقوله... هذه العوالم لا تُرى أبداً بالعين المادية وهذا يعني أن الحجاب قد كُشف عنّا لبعض الوقت، وهذا يعني أنّ هذه الرياح تحمل في طياتها شيئاً جعل هذا مُمكناً، وفرضيتي هي أنها جاءت من عالم آخر شبه مادي، أي أنهُ يمزج بين المادة والروح (الاثير) مما جعل هذه الرياح تحمل شيئاً مادياً وآخر اثيرياً أثر على أرواحنا وأجسادنا الاثيرية فجعلها ترى ما خفي عن الجسد المادي، ولهذا فقد رأينا بعض الكائنات من عالم الجن من حيوانات وكائنات عاقلة وغيرها.. ولكن كيف وصلت هذه الرياح إلى هنا وما كُنه هذه المخلوقات التي جلبتها وما هدفها؟

- ربما تكون مُحقاً لأن هذه الرياح ضربت هذه المدينة فقط ولم تُصب أي مكان آخر في العالم مما يحتمل أنه قد حدث شذوذ في الزمكان تسبب بفتح بوابة لبُعدٍ آخر يُطل على عالمٍ آخر نجهلهُ، وقد يُحتمل أن هذه الرياح

صدرت عن هذا العالم وتسللت بعض مخلوقاته لبعض الوقت، وعندما شارفت الرياح على الانتهاء وعلموا أن الشذوذ سيختفي وأن البوابة البُعدية ستُغلق، ربما عادوا إلى عالمهم بعد ان اكتشفوا الكثير عن عالمنا، وربما يعودون مرة أخرى ولكن هذه المرة لن يعودوا للاستكشاف بل للغزو!

ارتجف كريم رجفة قوية وأحس بروحه ترتجف مما قاله أنس وبالأخص لأن هذه الرياح ستعود مرة أخرى فِي الغد وبقوة أكبر. ابتلع لعابه بصعوبة وقال:

- نعم ولهذا وجدنا العديد من الأحجار والمعادن والأشياء الغريبة التي لا تمتُ لعالمنا بصلة بعد العاصفة الأولى، ولقد كانت هذه الأحجار هي مُحركي الأول في فرضيتي للعالم الموازي لعالمنا، ولهذا أيضًا تأسست هذه المؤسسة حتى تدرس ما حدث وتفحص هذه الأشياء بعناية.. ولكن الغريب أن من ساهم فِي تأسيس هذه المؤسسة ودعمها بالمال والأجهزة واستورد العلماء هو مُهند! ولكني لاحظت أنهُ تغير بعد هذه الحادثة وأصبح يلبس بِذل سوداء ويبدوا وجهه شاحبًا ومُظلمًا، وتغيرت شخصيته المرحة كثيرًا حتى أنهُ صار كئيبًا ويرد علي السلام بصعوبة، ويتجاهلني ويتهرب مني معظم الوقت ولا يأتي للصلاة.. لقد أصبح همه الأكبر حاليًا هو فهم هذه الظاهرة الغريبة التي حدثت حتى لو دفع كل أمواله ثمنًا لذلك.. لعله يعود إلى طبيعته إن فهم ما حدث، وأنا أتفهم تغيره فقد رأى شيئاً مخيفاً لا يتخيله عقل!

عبث أنس في ذقنه وضيق عينيه قائلا بقلق:

- ربما يكون هناك تفسير علمي لما حدث ويكون كل ما رأيناه مجرد خزعبلات من يعلم.

علم كريم أن أنس خائف من أن تكون نظريته حقيقية فتجاهل كلامه واستأنف قائلاً:

- على أي حال ما يخيفني أكثر هو أن يحاول هؤلاء الحمقى فتح بوابة لأحد العوالم الموازية... لقد رأيتهم يتحدثون عن الأمر في فرضياتهم، فهم بالطبع ينكرون الغيبيات من جن وملائكة وحتى الله بسبب نظرتهم المادية للعالم وأن كل ما يُرى هو الحقيقة وكل ما خفي عن العين فلا وجود له، ولكنهم يظنون بوجود أكوان موازية لا نهائية ويحاولون إثبات هذه النظرية حتى ينكروا أن الكون يحتاج إلى خالق، فهم بهذه النظرية سيقولون أنَّ هذه الأكوان تصنع بعضها البعض وتؤثر على بعضها البعض فلا تحتاج إلى خالق ليوجدها ويخلقها. فهذه الأكوان التي لا تنتهي هي كالدائرة التي لا بداية لها ولا نهاية ولهذا فرأيهم أنها لا تحتاج إلى من يخلقها لأنها لا بداية لها، وأنه لو كان هناك مليار كون لا يصلح للحياة فبالتأكيد سيظهر بالصدفة كون يصلح للحياة، وقد آمن ستيفن هوكينج بهذه النظرية وسميت بنظرية الأوتار الكونية أو النظرية إم. أما إذا كان الكون واحد فسيحتاج إلى من يخلقه، فهو لن يخلق نفسه من العدم بل يحتاج إلى مُسبب. وهذا يعني أنهم سيحاولون بكل حماقة أن يفتحوا أبوابًا لهذه العوالم حتى يثبتوا نظريتهم فينجوا من مأزق زعمهم أنه لا يوجد خالق رغم كل الأدلة التي تُشير إلى ذلك. على أي حال، وجود عوالم أخرى لا يُنكر وجود الخالق بل يؤكده أكثر، وفي النهاية فالعوالم الأخرى ربما تكون محدودة وليست لا نهائية كما يظنون، والعلم التجريبي لا يستطيع أن يُحصي شيئاً لا نهائيًا ولهذا فهم لن يُثبتوا نظريتهم هذه أبدًا، ولكن إن تمكنوا من فتح أحد العوالم سيحاولون تأويل هذا الاكتشاف ليتناسب مع نظرية العوالم اللانهائية كما يفعلون دائمًا في الكثير من الاكتشافات.

وضع كريمٍ كفه على وجهه وصمت للحظات يُفكر ثم قطع حاجز الصمت قائلاً:

- إن أخبرتهم بنظريتي فلن يصدقوها لأنها قائمة على أساس ديني غيبي وعلمي، وهم لا يضعون الأسس الدينية في الحسبان بل ينكرونها بكل فظاظة، ولهذا فعلينا أن نأمل ألا يتمكنوا من فتح أي بوابة من هذه البوابات وأتمنى أن يمر الغد على خير.

وضع أنس يده على كتفه وابتسم قائلاً:

- إن شاء الله خير. على أي حال لقد نسيت أن أُريك نتائج بعض العينات التي فُحصت.

اقترب كريم بكرسيه من حاسب أنس وتفرس في الشاشة وكأنه يبحث عن دليل يؤكد نظريته. رأى بعض الأحجار الغريبة التي تمتلك سواداً سرمدياً عجيباً لم يره من قبل، والنتائج فوقه تشير إلى عدم التعرف على المكونات الكيميائية لهذا الحجر العجيب. رأى أن لديه خصائص غريبة لا تمتلكها أحجار الأرض، فهو إن تحطم سرعان ما يلتئم ويتكون من جديد وكأنه كائن حي بدائي يمتلك خلايا تنجذب لبعضها البعض وتقوم بعملية إصلاح معقدة للجزء الذي تحطم في الجسد حتى تعيده كما كان، مثل نجم البحر الذي إذا انقطعت أحد أطرافه تنموا من جديد، بل وقد يخرج من الأطراف المقطوعة نجم بحر جديد، أما الأحجار في كوكبنا فهي تتحطم ولا تتكون مرة أخرى. لمعت عين كريم وتوهج قلبه وانبسطت أساريره وأوجس في نفسه خيفة في آن الوقت، فقال والابتسامة لا تفارق وجهه:

- إن هذا الحجر بالفعل من عالمٍ آخر... وهذا العالم يمتلك قوانين تختلف عن قوانيننا بالكامل. على سبيلٍ المثال ربما هناك عالم يمتلك مخلوقات

لا تحتاج إلى الشمس والقمر ولا إلى النوم أو الطعام. ربما عالم كهذا موجود، وربما يمتلكون قدرة تفوقنا وذكاءً يتخطانا بآلاف السنين. ربما لا يحتاجون النور ولديهم رؤية في الظلام، ويرون كل الألوان المخفية عن أعيننا، ويسمعون كل الأصوات والترددات، ولكن هذه الصفات ربما تتوزع على عدة عوالم وعدة مخلوقات لا على جنسٍ واحد فقط، وإلا فسيكون هذا الجنس لا يُقهر!

- ربما من يعلم. على أي حال هذه الأحجار تخالف كل ما نعرفه عن عالمنا والكشف عنها للعالم سيُغير الكثير من الأشياء التي كُنّا نُسلم بها أو نرفضها.

قاطعهم صوت مكبر الصوت وهو يُعلن بالإنجليزية عن اجتماع مُهم بعد عشر دقائق.

***

الفصل السادس

بوابة إلى الجحيم

وقف عالم الفيزياء أرنولد شنايدر بجانب عالم الفلك جاك سبنسر، وكانا يفحصان جهازًا غريبًا مستديرًا وكبيرًا وموصولاً ببعض الأسلاك والأنابيب والأجهزة الحساسة الدقيقة التي صُممت مخصوصًا من أجل هذا الجهاز. نظر أرنولد الشاب بتوتر إلى جاك البالغ من العمر خمسة وأربعون عامًا ودمدم قائلاً بقلقٍ وترقبٍ ولهفة:

- إن نجحت هذه التجربة فإن عالمنا سينقلب بالكامل وإنّي لأخاف مما سنقابله إذ قد نخسر حياتنا من أجل هذه التجربة.

رد جاك وقد انقبضت قسماته من فرط التوتر:

- أعلم ولهذا أعددنا زِر الطوارئ لإغلاق الجهاز في اللحظة المُناسبة.

- على أيّ حال هذه التجربة ستغير العالم، وستخلد اسمينا في التاريخ إلى الأبد، وقد نحصل على جائزة نوبل من أجل هذا الاكتشاف العظيم،

وسيذكرنا كلّ لسان ويضرب بنا الأمثال مثل أينشتاين ونيوتن بل ربما نصبح أكثر شهرة منهما!

- نعم وهذا ما جعلني أُقدم على هذه المخاطرة رغم خوفي الشديد.

- لا عليك والآن فلنبدأ.

وقفا في غرفة زجاجية معزولة ومؤمّنة جيدًا وأمامهما غرفة أخرى عجيبة مليئة بالأنابيب والأجهزة والأسلاك.

ضغط أرنولد على زر جهاز التحكم في يديه، ورأى بعض الكهرباء الشديدة تصدر في منتصف الغرفة الضخمة وتنطلق حولها وكأنها البرق في السماء يضرب الأرض كالسياط. أخذت الكهرباء تتجمع وتلتف وتتكور لتشكل بوابة غريبة مُستديرة وبعد دقائق بدأت ظاهرة غريبة أخرى لم تصدقها أعينهما. ابتعدت الكهرباء على جانبي الغرفة وأخذ الهواء يتشقق والشق يتسع باستمرار وكأن الزمكان يتلاشى ويُظهِر ما خلفه وما يتجاوزه. رأيا عالم المادة وهو يتشقق ويتلاشى ويحل محله عالم آخر غريب. ظهرت نافذة حمراء أمامهم تطل على شيءٍ آخر رهيب.

اقترب أرنولد ونظر من خلال النافذة فصعق مما رأى وشهق واتسعت عيناه، فاقترب جاك بجانبه وأصابه نفس ذهوله وكأن صاعقة ضربته فألجمته مكانه.

رأى أرنولد عبر النافذة البُعدية حقلاً من النيران الحمراء الغليظة التي لم يرى مثلها في حياته يمتد لأميال، وفى الأفق تحولت إلى اللون الأزرق من شدة حرارتها، وارتفعت عواميد من النيران في كلّ مكان وكأنه وادي هائل لا يحمل في طياته إلا النيران الحارقة والصواعق الحارقة

تضربه، والبرق الأحمر يضرب سماءه بصوتٍ ترجف له الأبدان ويشيب له الولدان. وضع أرنولد يده على الزجاج وهو لا يصدق ما يراه، والبوابة تتسع وتتضخم، فدفعه جاك فجأة بعيدًا وأغلق البوابة بالريموت.

وقف أرنولد صارخًا فيه بسخطٍ وجسده يرتعد:

- لماذا فعلت هذا؟ لقد فعلناها أيها الأحمق ألا ترى.

نظر له جاك وجسده يرتجف وينتفض وقال بنبرة متقطعة:

- هذه النار كانت لتأكل المختبر بأكمله وربما عالمنا كله... هل كانت هذه بوابة إلى جهنم؟

ألقى أرنولد بجسده على أحد الكراسي وارتعد رعدة قصيرة ومسح العرق عن جبينه وقال:

- لا أعلم ما الذي رأيناه الآن ولكنه أفزعني وجعلني اضطرب. وهل جهنم في بُعدٍ آخر؟ إن ما رأيناه يتطابق مع بعض الأوصاف لها، ولكن ربما يكون عالمًا في بداية تكونه. أنت تعلم أن كوكبنا في البداية كان مليء بالحُمم والنيران والعواصف واستمر هكذا لملايين السنين حتى هدأ وبدأ يتشكل ويتطور حتى وصل إلى ما هو عليه الآن.

ربما ما رأيناه هو أحد الكواكب في حالته الأولى وليس جهنم. فنحن لم نرى ملائكة ولا كائنات تتعذب.

نظر إليه جاك وبداخله سيل من المشاعر المضطربة ما بين الفرح للاكتشاف العظيم الذي توصلوا إليه وبين الرعب الهائل مما رآه وبين التفكير في تبعات وعواقب هذا الاكتشاف إن وقع في الأيدي الخطأ، ولكن الحماس تغلب عليه وصرخ عاليًا بفرحٍ قائلاً:

- لقد فعلناها. يا إلهي لا أصدق ما رأيته. لقد وثقنا كُل شيء على الكاميرا، ويجب علينا أن نقوم باجتماعٍ لنُريهم هذه الاكتشاف حتى يتم التصديق عليه بشهادة الجميع، ومن حسن الحظ أن هذه الرياح الملعونة ستضرب المدينة غدًا، وبإمكاننا أن نُفسرها من خلال هذا الاكتشاف العظيم، ونسبر أغوارها، وربما يزداد الشذوذ في الزمكان فيسمح لنا أن نفتح بوابة أكبر لعالمٍ آخر مُختلف، ومن يعلم فقد نجد كائنات حية تعيش عليه.

- فلنجهز كُل شيء حتى نستعد للإعلان عن هذا الاكتشاف.

جلس مُهند على كرسيه في غرفة المدير وهو يراقب جاك وأرنولد عبر الكاميرات وقد اتسعت عيناه من هول ما رآه وارتعد جسده لما هو قادم، وشعر بحماسٍ وخوفٍ عظيم لا ينضب لم يصيباه مرة في حياته، وأحس أنّ الوقت قدً أزف للعثور على ضالته، وأحس أنهُ قد قاب قوسين أو أدنى من الوصول إلى غايته.

***

الفصل السابع

صدمة كونية

سمع أنس وكريم الإعلان وقاما بالاستعداد وانهاء كل ما بيدهما، ومن ثمَّ انطلقا ناحية قاعة الاجتماعات والتي كانت تُشبه المسرح، ويبرز في نهايتها منصة يقف عليها بعض العلماء الأجانب ووراءهم شاشة عرض كبيرة. توجها إلى المقدمة يتسابقان مع بقية العلماء في اللحاق بالصفوف الأولى واستطاعا بالكاد أن يجلسا في الصف الرابع، وبعد دقائق انطفأت الأنوار ورأيا العلماء على المنصة يجهزون أنفسهم ويضعون اللمسات الأخيرة قبل البدء. تقدم شاب أمريكي ذو شعر بني داكن وعينان مُرهقتان وملامح شاحبة وبدأ يحاول أن يتحدث على سجيته بدون أن يبدوا الإرهاق على وجهه. قال أرنولد بالإنجليزية:

- نسعد بتواجدكم معنا اليوم وبإسهاماتكم في هذا الأمر الهام التي لولاها ما توصلنا إلى الاكتشاف الذي سنعلن عنه اليوم... عصفت هذه الظاهرة العجيبة التي حدثت هنا بأذهاننا وجعلتنا نشك في عالمنا وفى أنهُ العالم الوحيد المتاح للحياة وبالطبع فقد أثمرت هذه الظاهرة عن جهلنا بالكثير

من الأشياء، وعلى أنّ هناك أشياء تتخطي إدراكنا، ويبدوا أنّ النظرية إم قد تكون حقيقية وأن هناك عوالم وأكوان موازية لعالمنا هذا، لها قوانينها الخاصة. بعضها لا يصلح لِلحياة وبعضها قد يعج بالكثير من الحيوات ويبدوا أن هذه الأكوان مُتصلة ببعضها البعض بطريقةٍ ما.

أخذ نفسًا عميقاً وأمسك بالميكروفون جيدًا في يده وعدل من ياقته ثم قال بلهجة ذات دلالة:

- ويبدوا أننا اكتشفنا طريقة لفتح معبر بسيط لهذه الأكوان.

حدث هرج ومرج وعلت الأصوات واضطرب الحضور فطالبهم أرنولد بالصمت، بينما نظر كريم إلى أنس نظرة هلع حتى شعر أنس أن عيناه ستخرجان من محجريهما. أكمل أرنولد قائلاً وهو يحاول أن يخفي توتره:

- لقد جمعنا كل ما اكتشفتموه وتحدثتم به من فرضيات ودرسناها بعناية وطبقناها في أحد المختبرات وبالفعل تكللت التجربة بالنجاح.. على أي حال هذه البوابات لم تنفتح بالكامل بل فتحنا نافذة صغيرة تُطل على عالم آخر، وهذه النافذة لا تستوعب أن يعبر من خلالها أي كائن كان. يُمكننا فقط أن نُرسلِ بعض الأحجار والعينات لا أكثر فهذه النوافذ غير مُستقرة، ولكن غدا ستعود هذه العاصفة الهوجاء بقوة أشد وعندها سنجرب أن نفتح البوابة مرة أخرى وسنرى إن كانت ستصبح أقوى وأكبر، وهل سنجد من خلالها أحد الغرباء ليعلن لنا عن وجود حياة أخرى غيرنا أم لا.

زاد الهرج والمرج، فقطعه أرنولد مُكملاً:

- سنريكم تسجيل فيديو لما رأيناه اليوم، ولكن على هذه المعلومات أن تظل في طيِ الكتمان حتى نعلنها في الوقت المناسب، ولهذا ستوقعون أثناء الخروج تعهداً بعدم إخراج أيّ شيء ترونه هنا.

انطفأت الأنوار واشتغل الفيديو في شاشة العرض أمامهم، ورأوا مظهر النيران العالية المُخيفة بشهيقها وزفيرها وهي تفور، ورأوها تتأجج وتأكل كلّ ما حولها بطريقة تقشعر لها الأبدان، فساد الهرج والمرج وامتلأت القاعة بالخشية والرعبً والفضول. فأوقف أرنولد الفيديو وقال:

- ستحضرون جميعًا التجربة بالغد عند بدأ العاصفة، ولهذا عليكم ألا تذهبوا إلى منازلكم اليوم إذ أنّ هذه التجربة ستغير حياة البشرية بالكامل، وستفتح لنا أفاقاً لم نعيها من قبل، وستكرمون جميعًا وسيتحدث عنكم التاريخ وعن إنجازكم العظيم الذي قد يساعدنا في تفسير حقيقة الكون للوصول إلى الحقيقة الكلية التي لا غبار عليها. والآن سأترككم مع عالم الفلك جاك سبنسر.

صفق الجمهور لهُ بعصبية وتوتر، فتقدم جاك وعدل من ملابسه وسلمٍ على صديقه والتقط منه الميكروفون. ابتسم جاك للجمهور وصمت قليلاً ليستجمع أفكاره ثم قال بحماسٍ لا ينضب:

- لقد فعلناها. أعود بالشكر إلى صديقي أرنولد الذي ساعدني في هذا الإنجاز العظيم ولولا جهوده لكللت التجربة بالفشل، ولكنّي أشكركم جميعًا ففرضياتكم وعملكم ألهمني للقيام بهذه التجربة العجيبة. على أي حال أنا مدين لكم ولهذا عليَّ أن أشرح لكم كل شيء... في البداية ربما سمع بعضكم

عن نظرية الأوتار الكونية والبعض ربما لم يسمع عنها ولهذا سأتحدث عنها باقتضاب قدر الإمكان. نظرية الأوتار أو النظرية الخيطية هي مجموعة من الأفكار الحديثة حول تركيب الكون تستند إلى معادلات رياضية معقدة. تنص هذه المجموعة من الأفكار على أن الأشياء أو المادة مكونة من أوتار حلقية مفتوحة وأخرى مغلقة متناهية في الصغر لا سُمك لها وأن الوحدة البنائية الأساسية للدقائق العنصرية، من إلكترونات وبروتونات ونيترونات وكواركات، عبارة عن أوتار حلقية من الطاقة تجعلها في حالة من عدم الاستقرار الدائم وفق تواترات مختلفة وان هذه الأوتار تتذبذب وتتحدد وفق طبيعة وخصائص الجسيمات الأكبر منها مثل البروتون والنيوترون والإلكترون. أهم نقطة في هذه النظرية أنها تأخذ في الحسبان كافة قوى الطبيعة: الجاذبية والكهرومغناطيسية والقوى النووية، فتوحدها في قوة واحدة ونظرية واحدة، تسمى النظرية الفائقة. تهدف النظرية إلى وصف المادة على أنها حالات اهتزاز مختلفة لوتر أساسي وتحاول هذه النظرية الجمع بين ميكانيكا الكم، التي تُفسر القوى الأساسية المؤثرة في عالم الصغائر (القوة النووية الضعيفة، القوة الكهرومغناطيسية، القوة النووية القوية) وبين النظرية النسبية العامة التي تقيس قوة الجاذبية في عالم الكبائر ضمن نظرية واحدة والتي تقول بأن الكون هو عالم ذو عشرة أو أحد عشر بُعداً، على خلاف الأبعاد الأربعة المحسوسة (الطول والعرض والارتفاع والزمن)، وأن هنالك 6 أو 7 أبعاد أخرى، إضافةً لأبعاد العالم الثلاثة مع الزمن، غير محسوسة ومنطوية على نفسها. أما هذه النظرية الجديدة فتعتقد بأن الكون مكون من 26 بُعداً، اُختزلت فيما بعد إلى عشرة أبعاد. ولتوضيح هذه الفكرة يستعمل البعض مثال خرطوم رش الماء، فعندما

ينظر المرء للخرطوم من بعيد لا يرى سوى خط متعرج. لكنك بفحصه عن كثب يلاحظ أنه عبارة عن جسم ثلاثي الأبعاد، حيث أن الأبعاد الجديدة ملتفة على نفسها في جزء صغير جدا.

صمت قليلاً ليتيح للمستمعين استيعاب ما قاله ثم أكمل قائلاً:

استناداً إلى نظرية الأوتار الفائقة فإن الكون ليس وحيدًا، وإنما هنالك أكوان عديدة متصلة ببعضها البعض، ويرى العلماء أن هذه الأكوان متداخلة ولكل كون قوانينه الخاصة به، بمعنى أن الحيز الواحد في العالم قد يكون مشغولاً بأكثر من جسم ولكن من عوالم مختلفة، وبحسب هذه النظرية فإن الكون ما هو إلا سيمفونية أوتار فائقة متذبذبة، فالكون عزف موسيقي ليس إلا، ومن الممكن معرفة الكون ومما يتكوّن من خلال معرفة الأوتار ونغماتها، فالكون يتصرف على نمط العزف على الأوتار. وقال عالم الكوزمولوجي والفيزيائي الأمريكي "مارتين ريز":

- في نظرية الأوتار بما أنه توجد عوالم مختلفة وعديدة، إذاً من المتوقع وجود عالم كعالمنا. فإذا دخلنا إلى متجر لبيع الثياب حيث توجد ثياب بمقاييس مختلفة وعديدة فليس من المستغرب حينئذ أن نجد ثوباً بمقاسنا. لذا ليس من المستغرب وجود عالم كعالمنا لأنه توجد عوالم عدة ومختلفة. على أي حال هذه النظرية لم تستطع التوصل إلى هذه الأكوان الموازية للكون الخاص بنا حتى اكتشفنا نحن ذلك واثبتناه. بالطبع قد تتساءلون عن كيفية فتحنا لهذه البوابة وهذا الأمر بالطبع في غاية التعقيد ويحتاج إلى ساعات طويلة من الشرح ولهذا سأختصره قدر الإمكان بعدة جمل بسيطة. قمنا بصنع مسارع للجزيئات كالذي تمتلكه مؤسسة المنظمة الأوروبية للبحث النووي (سيرن) ولاحظنا وجود شذوذ غريب في

النسيج الزمكاني في هذه المدينة وعندما قمنا بتشغيل الجهاز ظهر شيء يُشبه ثقباً أسوداً صغيراً، وبالطبع يتذكر الجميع ذكر ستيفن هوكينج عن أن الثقوب الدودية ربما تكون معبراً لعالم آخر لا نعلمه، فالثقوب السوداء تبتلع كل ما أمامها؛ فهي كالقبر بالنسبة للمادة، حتى أن الضوء لا يُفلت من سطوتها وشراستها، وقد اعتقد الجميع أن الثقوب السوداء عندما تبتلع النجوم أو الضوء أو أي شيء مادي يقترب منها فإن هذا الشيء يختفي نهائياً ولكن ماذا لو كانت هذه الثقوب تبتلع المادة لتنقلها إلى عالم آخر؟ ربما تكون هذه الثقوب هي فجوات في الزمكان تقودنا من كونٍ إلى آخر! ويبدوا أن هذا ما أثبتناه بنجاح تجربتنا. استنتجنا مما حدث أنَّ العاصفة المادية بطريقة ما صدرت عن كونٍ آخر وهذا ما تؤكده الأجسام المجهولة التي عثرنا عليها بعد العاصفة، ولكنَّ الأغرب من هذا أن هذه العاصفة حدثت بسبب شذوذ في الزمكان تسبب في فتح ثقب أسود صغير أطلق العنان لقوانين وخواص هذا العالم الآخر على عالمنا مما تسبب باضطراب في نسيج كوننا وجعل سكان المدينة يرون هذه الأشياء الغريبة. أما المريب في الأمر أن هذه الأشياء ربما تكون مخلوقات ذات طبيعة مجهولة جاءت عبر هذا الثقب وتوجهت لاستكشاف عالمنا وهذا يعني أن التفسير الوحيد لما حدث هو أنهم فتحوا بوابة لعالمنا كما فعلنا نحن!

اضطرب الجمهور وعلتِ أصواتهم المذعورة والمضطربة، فحاول جاك تهدئتهم وهو يهز يديه قائلاً:

- اهدأوا فالحل لدينا... ستشتد العاصفة غداً وهذا يعني أن هذه المخلوقات ربما تعاود كرتها ولكن هذه المرة لن يستكشفوا عالمنا بل ربما يقومون بغزوه ولهذا علينا أن نقوم بتجربتنا غداً ونسبقهم في فتح بوابة إلى عالمهم فنُبصر طبيعته لدقائق ولأنهم سيحاولون فتح بوابة أخرى إلى عالمنا فهذا

يعني أن نسيجنا الكوني سيتداخل مع نسيجهم الكوني مما يعني أن البوابة التي سنقوم بفتحها لا بد أن تفتح على عالمهم، وبعدها سنرسل من خلال البوابة جهاز استكشاف مزود بكاميرات لرؤية ما يحتويه عالمهم وكيف يفتحون بوابة إلى عالمنا وهذا الجهاز أيضًا سيكون مُحملاً بخاصية انفجار نووي هائل، سنقوم بتفعيله عندما نعثر على الجهاز الذي يستخدمونه في فتح هذه البوابة الملعونة لعالمنا... وربما تكون هذه الكائنات مسالمة ولكني لا أعتقد هذا بسبب ما حدث في المرة الماضية... على أي حال فلتتجهزوا ليوم الغد وحاولوا التفكير في طرق أخرى للنجاة من هذه العاصفة الهوجاء.

غادر جاك المنصة وتبعه أرنولد وسط تصفيق وتوجس وحماس من قبل الجمهور.

***

قبل التجربة بعدة دقائق

هز كريم قدمه اليمنى بعصبية مفرطة مما ضايق أنس فطلب منه أن يتوقف عن هذا، واستمر في تفحص حاسبه بتركيز. قاطع كريم حبل أفكاره قائلاً بخيفة:

- ما خشيته قد حدث. سيفتحون بوابة لهذه العوالم وسييسرون قدوم هذه المخلوقات، وقد ينتهي عالمنا كما نعرفه اليوم إذ أنّ هؤلاء الحمقى لا يدرون بما ندريه أنا وأنت، وإن حدثتهم عما أعلمه فلن يصدقوني وسيقولون أنّ كلامي مجرد عبث ديني لا حقيقة فيه وأن اكتشافهم العظيم هذا سيُفسر كل شيء وسيتعامل مع هذه الكائنات بما يراه مناسباً.

تنهد أنس قائلاً بضيق:

- غرور الإنسان الأبيض واندفاعه بحماقة نحو المجهول. على أيّ حال لن نتكمن من إيقافهم، وجلّ ما نستطيع هو المشاهدة وأن ندعو الله ألا يتحطم عالمنا، ولكن على أي حال إن لم يفتحوا هم البوابة فإنها ستفتح مع حلول العاصفة غداً، ولهذا فلا مناص من الهروب من هذا المصير الكوني المُرعب. فلنستسلم له، فما قضاه الله لا مرد له. لعل هذا الأمر لخيرٍ نجهله.

نفث كريم في يده ليدفئها وسقي نفسه شربة ماء وقال محاولاً تهدئة أعصابه التي كادت تحترق من التوتر:

- أتمنى أن يكون ما يحدث خير... ما أنا خائفٌ منه هو حديث مُهند عن أن هذا الشيء الرهيب قد وضع بصمته على روحي حتى يعثر عليَّ عندما يعود! وعلى سيرته حاولت أن أتواصل معه أو أزوره ولكنني لم أستطع أبداً وكأنه يختفي من الوجود!

- لا بد أنه غادر المدينة خوفاً ولم يعد يرغب في العودة إلى هنا بعد الذي رآه فهو حتى لم يحضر اجتماع اليوم رغم أهميته له.

- أتمنى أن أعلم ماذا رأى وكيف علم كُنه هذا الشيء وأنه وضع بصمته على روحي. لا أعلم هل يمزح معي أم أنه يقصد هذا. لا يهم.

صدر صوت أنثوي كالطلقة في قلوبهم الواهنة قائلاً:

- حان الآن موعد التجربة. فليتوجه الجميع إلى المكان المُحدد.

وقف كريم من على كرسيه وأقدامه ترتجف حتى شعر أنه سيسقط ويبدوا أن أنس لم يكن أفضل حالاً منه. توجها إلى المختبر ورأيا زملائهما يسيرون معهما ويتسامرون في أمر ما سيرونه، وقد أوجسوا في أنفسهم

خيفة. رأيا بابًا فضيًا كبيرًا يُشبه مدخل خزينة بنك هائلة، انفتح الباب لهم وأصدر صريرًا ودلف الجميع إلى الداخل ليُفاجئوا بمسارع الجزيئات الهائل. كانت الغرفة بأكملها مسارع جزيئات وفي منتصفه ارتكز جهاز مستدير علم الجميع أنه مركز المسارع. وقف كُلٌّ من أرنولد وجاك وراء الزجاج أمام أجهزة حاسوب فائقة وعلى وجهيهما ابتسامات صفراء شاحبة، ورأيا بجانبهما خمسة جنود يحملون أسلحة نارية استعدادًا لأي خطر، وسمع الجميع صوت الرياح وهي تهدر في الخارج فعلموا أن الوقت قد حان لبدأ التجربة. تقدم أرنولد وقال وهو يحييهم:

- مرحبًا بالرفاق. فلتقفوا مكانكم وتشاهدوا بأم أعينكم نتاج العلم وأعاجيبه. أنتم أول من سيرى هذه التجربة وأي تسريبٍ لها للخارج سيتسبب بفصلكم إلى الأبد ولهذا فلتعطوا هواتفكم للجنود، ولتلزموا أماكنكم حتى نبدأ التجربة التي ستغير وجه البشرية.. أعدكم أنكم ستخلدون في التاريخ بهذا الاكتشاف العظيم وستحصدون الجوائز العالمية.

ضحك جاك بحماسٍ يُخالجه بعض التوتر وضحك بعض العلماء معهم بينما اكتسى وجه كريم نظرة سوداء مضطربة إذ غرق في تأملاتٍ خطيرة.

انطفأت أضواء الغرفة الصفراء الكبيرة واضيئت بعض المصابيح وارتكزت على الجهاز المُستدير المليء بالأسلاك والأنابيب. تراجع الجميع وأشهر الجنود أسلحتهم ناحية المسارع من خلف الزجاج، ورجفت القلوب وبلغت الحناجر واهتزت الأبدان وارتعشت، وبعد ذلك ضغط جاك على جهاز تشغيل المسارع. تجمعت الكهرباء وضربت الجهاز كصواعقٍ جبارةٍ لا مثيل لها والتفت وتجمعت ومن ثمّ بدأت تبتعد على الجانبين مُحدثة شرخا في الهواء، وكأنها تجذب الزمكان وتمسك بتلابيبه، وبعد دقيقة من هذه

العملية ظهر ما يُشبه ثقبًا أسودًا أخذ في الاتساع تدريجيًا حتى شعر الجميع أنه سيبتلع الغرفة بمن فيها. ولكن أرنولد طلب من الجميع الهدوء وعدم القلق. اتسعت البوابة ببطءٍ ملحوظ وبدأ يظهر من خلالها ما بدا أنه عالم آخر! نظر الجميع بمزيج من الهلع والحماس والترقب ورأوا ما لم يتوقعوه. رأوا عالمًا مُظلمًا يغطيه الظلام من كل جانب، ولكنّ سحبه كانت ذات إضاءة شاحبة جعلتهم يبصرونه بوضوح رغم سواده. رأوا بعض النتوءات السوداء وأرض جرداء كصحراءٍ في جوفِ الليل المُظلم يكسوها السواد والظلام السرمدي العظيم، وكأنه عالم ميت طال عليه الأمد ولا حياة فيه. لكن أكثر ما لفت أنظارهم هو الرياح الهوجاء التي كانت تضرب هذا العالم مما جعلهم يتأكدون من حقيقة أن هذا العالم هو مصدر الرياح التي أصابتهم وتصيبهم الآن. ولكنٍ من أين تعبر هذه الرياح إلى عالمهم؟ تذكر كريم عندما رأى هذا العالم المُظلم كلمات زوجته والشيخ عامر عن عالمٍ بلا نور!

فتح العلماء بابًا صغيرًا في المسارع وأدخلوا سيارة بحجم جسد إنسان مُحملة بالكاميرات وسلاح نووي شديد الانفجار وانطلقت السيارة عبر المسارع باستخدام جهاز التحكم عن بعد ودلفت إلى البوابة ورآها العلماء وهي تتحرك على تراب هذا العالم العجيب فشهقوا من العجب وطربت قلوبهم من حقيقة ما يبصرون. وجهوا أعينهم إلى الشاشة ليشاهدوا كاميرات السيارة وهي تسير على أرض هذا العالم، ولم يصدقوا ما يرون إذ أنهم بالفعل فتحوا بوابة إلى بعدٍ آخر!

أشار أحد العلماء بأصابعه التي كانت ترتجف بقوةٍ ناحية الشاشة قائلاً بتردد:

- هناك شيء ما يتحرك وسط الرياح؟

سرت موجة من الخوف والقشعريرة في أجساد العلماء واتسعت أعينهم وهم يدققون النظر عبر الشاشة والبوابة ليروا ما لم يتوقعوه. رأوا كائنات سوداء كثيرة ذات أجساد عجيبة تقف وسط الرياح والظلام فلا يظهر منها إلا القليل، وبالكاد استطاعوا تحديد معالمهم، ولكنّ شيئاً واحداً كانوا متأكدين منه، أنها كانت قد لاحظتهم والتفت برؤوسها المريبة تنظر إليهم.

رفع الجنود أسلحتهم استعداداً لأي خطر وصرخ كريم قائلاً في هلع:

- أغلقوا البوابة اللعينة حالاً.

فجأة اتسعت البوابة أكثر فأكثر ولاحظوا تحرك هذه الأشياء السوداء التي تقبع في هذا العالم المُظلم ناحيتهم بسرعة كبيرة. ضغط جاك على زر الإغلاق الاضطراري ولكنه لم يعمل مما صعقه فحاول أن يُفجر السيارة ليمنع هذه الكائنات من الدخول إلى عالمهم ولكنّ السيارة لم تنفجر أيضاً! فظن أن وجود السيارة في عالم آخر يجعلها لا تستجيب له. وفجأة ازدادت الفجوة اتساعاً، فصرخ صرخة هزت أوصالهم قائلاً:

- اهربووووا... اهربووووا.

جهز الجنود أسلحتهم وأيديهم ترتعد من الذعر وظنوا أن أسلحتهم من الممكن أن توقف هذه الأشياء غير معلومة الهوية من الاقتراب. ولكن العلماء اندفعوا وصرخات الهلع تملئهم في محاولة لفتح بوابة الخروج للهرب، واشتد التدافع بينهم بينما وقف كريم يُحدق عبر العالم المُظلم وقد تجمد مكانه وشعر ببرودة رهيبة تكتسي قلبه وتغلفه.

تصبب العرق من أرنولد واغرورقت عينيه بدموع الهلع وهو يرى هذه الأشياء تقترب ناحيتهم بسرعة رهيبة، ومعها يتلاشى حلمه في النجاح في هذه التجربة، فدفع جاك وأخذ منه جهاز التحكم وأخذ يضغط على الزر باستمرار لعله يستجيب ولكنه لم يفعل.

انفتح باب الغرفة واندفع العلماء إلى الخارج في صراخٍ رهيب وسحب أنس كريم وأخرجه من ذهوله واندفع معه خارج الغرفة، ولكن فجأة أبصرا الظلام يندفع من البوابة البُعدية وفي نفس الوقت احترقت كل مصابيح المنشأة بالكامل حتى استعصت عليهما الرؤية وعجزا عن الإبصار، وإذ فجأة سمعا صوت صريخ الجنود وصوت إطلاق النار يزداد بشراسة ويمتزج مع صوت عويلٍ رهيب حتى خفت تمامًا واختفى، فسقط كريم على الأرض ولم تستطع قدمه أن تحمله، فسحبه أنس وجذبه بعيدًا إلى أحد الغرف وأغلقها عليهما فمكثا في الظلام يلهثان ويتنفسان بصعوبة ويستمعان إلى صوت صراخ رفاقهما في الخارج، بينما يخفق قلبيهما خفقًا عظيمًا. شعر كريم بجفافٍ يُغلف قلبه ويسحب منه آخر قطرة حياة ممزوجة ببرودة مزعجة، وكأن قلبه يُعطيه إشارات بقرب هذا الكائن الغريب منه. حاول أن يتحمل هذا الشعور المُزعج بالفراغ والجفاف وارتجف جسده مع سيمفونية الصريخ والأصوات الغريبة التي كانت تملأ المكان والتي ذكرته بالأصوات التي سمعها عندما كان مع عائلته وهجم الظلام عليهم. تأكد كريم من أنه نفس المخلوق لأن المنشأة أغرقها الظلام الدامس بالكامل. تسارعت دقات قلبه وأنفاسه فرأى أنس يضع يده على كتفه في محاولة لطمأنته أنه معه ولكنه هو الآخر كان في اضطرابٍ عميق.

لم يدريا كم لبثا داخل هذه الغرفة الصغيرة قبل أن ينتهي الصراخ والعويل المُرعب وصوت وقع الأقدام واستنجاد البشر من هذا الرعب

الكوني العويص على الفهم، ولكنه توقف وحل الصمت على المنشأة. همس أنس قائلاً وشفتاه ترتجفان:

- ما الذي يحدث هنا بحق الله؟ هل انتهي كُل شيء أم لا زالوا يهيمون في المنشأة؟ أسنخرج أم سنبقى؟

رد كريم بنحيبٍ مكتوم:

- لا أعلم. لم أعد أعلم أي شيء. سنموت جميعًا إن لم نجد طريقة لإيقاف هذه الأشياء!

- سنجد طريقة بالتأكيد ولكن أولاً علينا الهرب من هنا.

تذكر كريم شيئاً أزاد الهم عليه وضاعفه، فوقف قائلاً بتوتر:

- عائلتي. عليَّ أن أُنقذهم حالاً.

- فلنخرج من هنا أولاً ثم نذهب إليهم، لا تستبق الأحداث.

كان أنس محظوظا إذ أن زوجته بعيدة عنه وإلا لأصبح في نفس وضعية كريم، وكانت زوجته وِالداه يعيشان في مدينة نصر بعيدًا عن الشيخ زايد مما طمأنه وجعل جل تركيزه على أن ينجوا هو بحياته. أخرج كريم هاتفه وأنار لهم الغرفة فظهر وجههما كظلٍ شاحب ومُخيف وكانت قسمات وجههما منقبضة ومنكمشة من الذُعر. ضغط كريم على رقم زوجته ورأى أن الشبكة خارج الخدمة. انزعج وتذكر أنهُ نفس ما حدث أثناء تحدثه مع مُهند عندما ظهرت العاصفة الملعونة أول مرة، واستنتج أن تداخل العوالم هذا قد تسبب في هذا الخلل. أضاء الكشاف من هاتفه وفعل أنس مثله وتوجها خارج الغرفة بحذرٍ وأصاخا السمع وحواسهما مشحوذة. رأيا جثث رفاقهما مُلقية على الأرضِ لا روح فيها وعندما وجه

كريم مصباحه ناحية أحدهم أصابه الفزع من وجهه البارد النحيف وكأنه أصيب بجفاف في جسده جعلت وجهه كورق الشجر الذابل وجسده أزرق اللون وشديد البرودة. شعر أن هذه الكيانات قد امتصت آخر قطرة حياة فيه. كتم أنس فمه حتى لا يصرخ من بشاعة المنظر الذي رآه. كانت الجثث في كلّ حدبٍ وصوب. استمرا في السير وقد ضاق بهما ذرعًا ظلام المنشأة مع الجثث التي تملأها واحتمالية أن أحد هذه الكيانات لا زال فيها. كان وقع أقدامهما هو الأصعب على الإطلاق، فصدى صوته مع هدوء المكان الممزوج برائحة الموت كان يصيبهما بقشعريرة لا تنتهي. انتبه كريم أن شعور الجفاف في روحه لم يعد يساوره فعلم أنهم قد غادروا المنشأة ولكنه أصيب بالاضطراب عندما علم أنهم خرجوا للعالم الخارجي! أراد أن يخرج بسرعةٍ من هذا المكان حتى يبصر ما حدث لمدينته. خرجت الكلمات من حلق كريم بصعوبة، فقال معتل النفس وفرائصه ترتعد:

- ستكون إبادة كاملة لكل سكان المدينة! علينا أن نعثر على طريقة لإيقاف هذه الأشياء.

- أنّى لنا هذا؟ لا توجد طريقة لإيقافهم. ألا ترى ما أراه هنا؟ الأسلحة النارية لم توقفهم، وقد أبادوا العلماء في المنشأة في بضع دقائق، وربما يبيدون باقي المدينة الآن بينما نتحدث. علينا أن نعثر على عائلتك ونهرب من هذه المدينة ونترك الأمر لقيادات العالم والمختصين والعلماء، وعلينا النجاة حتى نحدثهم عما حدث هنا وعن مصدر هذه الكيانات.

قال كريم بثقة يشوبها الشك:

- أنت محق... لا أحد منهم هنا، فلنسرع في الخروج.

أسرعا الخطى وقطعا الردهات المُظلمة المُمتلئة بالجثث حتى اقتربا من البوابة فشعر كريم بالجفاف الروحي، فأمسك أنس وسحبه جانبًا وراء أحد المكاتب وأشار له أن يلتزم الصمت. أغلقا مصابيح هواتفهما وجلسا في صمت ينتظران حدوث أي شيء مُريب. مرت دقيقة من الانتظار حتى ظن أنس أن كريم يتوهم ولكنه سمع صوتًا غريبًا يُشبه العويل والنحيب المكتوم، ولكنه أغرب من أي شيء قد سمعه في حياته، فالصوت لم يكن يمت بأي صلة لعالمهما ولو عن قريب، وشعر به يمر أمامهما في الرِدهة وبالكاد استطاع رؤيته وسط هذا الظلام، ولكنه لمحه يتحرك ببطءٍ ويُصدر من داخله أصوات عويل ونحيب مئات الأشخاص بمزيج غريب وكأنهم كيان واحد ولكنه متعدد الشخصيات، وكأنه يحمل بداخله آلاف الأرواح المُعذبة التي تصرخ. شعر أنس أن قلبه يكاد يتوقف رغم أنه لا يراه وبالكاد يلمحه يتحرك إلا أن الصوت ألجم قلبه بعنف، وكان كريم يضع يده على قلبه الذي أزداد جفافه وشعر أنه يريد أن ينتزعه من صدره حتى تتلاشى هذه البرودة المُزعجة التي لا تمت لكونهما بصلة. مر الكيان الغريب من أمامهما وتوقف لبرهة مما جعل كريم يتكوم على نفسه ليكتم أنفاسه بينما فعل أنس مثله، أصدر الكائن صوتًا يُشبه سيمفونية كئيبة ومشوهة وبعدها سمعاه يتحرك مرة أخرى، ولمحاه يبتعد حتى وصل إلى البوابة وانطلق خارجًا، فتنفس كريم الصُعداء وشعر بروحه تعود إليه مُجددًا فحمد الله، بينما ظل أنس يحدق إلى الباب في شرود والأفكار السوداوية تُعذب نفسه بما لا يطيقه. هزه كريم في كتفهِ فأزاح عنه الشرود وأشار له بالتحرك.

***

الفصل الثامن

ظُلمات بعضها فوق بعض

وقف المُحقق إلياس أمام قسم شرطة الشيخ زايد وهو في العقد الثالث من عمره ويملك شعراً أسوداً طويلاً ناعماً مسترسلاً كالحرير حتى عنقه ولديه أعينٌ زرقاء كالسماء ووجه كالبدر في عتمة الليل، وكانت الرياح الباردة تضرب وجهه، ولكنها لم تشتد بعد فشرع بالتوجه ناحية سيارته بسرعة حتى يقي جسده من البرد وأستحى كوب الشاي الذي أعطاه بعض الدفأ ثمّ نظر إلى ساعته فوجدها الثانية عشر صباحًا، فأسرع خطاه حتى يلحق بموعده ولكنه لاحظ بعض الظلام في الأفقِ فأستوقفه الأمر، ثمّ أمعن النظر فرأى هذا الظلام يُغطي السماء تدريجيًا ويقترب. مسح عيناه ونظر مرة أخرى فرأى الظلام لا يزال يقترب. قال لنفسه:

- ظلامٌ في منتصف النهار؟ هل حان يوم الحساب؟

عاد أدراجه وتوجه ناحية الحارسان وأمرهما قائلاً:

- أطلبا من كل الضباط الاستعداد حالاً والقدوم إلى هنا هناك أمرٌ جلل سيحدث.

فتح أحدهما اللاسلكي وقال عدة كلمات كانت كشيفرة عند حدوث خطر. بعد عدة دقائق وصل عدة عساكر بأسلحتهم ووقفوا أمام المحقق إلياس وأعطوه التحية ثم تقدم كبيرهم وكان ذو شارب كثيف ويرتدي نظارة شمسية، فصالب أذرعه قائلاً وقال بتأفف:

- خير. لماذا دعوتنا إلى هنا.

أشار إلياس بيده إلى الأفق فأصاب الجميع صدمة ثقيلة عندما رأوا نصف السماء يُغطيها الظلام بينما النصف الآخر مُضيء. قال الضابط محمود وقد تلجلج لسانه:

- ما الذي يحدث هنا؟ كيف حدث هذا؟ هل هو يوم الحساب؟ يا إلهي لقد كنت أعذب أحد المساجين في الداخل. سامحني يا الله.

قال إلياس يأمرهم وملامحه قد انسحبت داخل وجهه حتى صار الخوف يتضح بالكامل عليه:

- جهزوا أنفسكم وأرسلوا دورية تُحذر الناس وتأمرهم ألا يخرجوا من بيوتهم أبدًا. حظر تجول منذ الآن حتى نفهم ما يحدث... وجهزوا أسلحتكم والأسوار الشائكة وتأهبوا لحدوث أي شيء غريب مثلما حدث في العاصفة السابقة... جميعنا رأينا العجب في هذه العاصفة ورأينا كيانات غريبة أصابتنا بالفزع، ومن المُرجح أن نرى شيئاً مشابهًا نظراً لما يحدث هنا.

انطلق رجال الشرطة يجهزون أنفسهم وبعد دقائق أتموا كل الاستعدادات، وزادت أعدادهم وطلبوا من الجميع أن يختبئوا في بيوتهم،

ووقفوا بسيارتهم وأسوارهم الشوكية في منتصف الطريق الخارجي والأشجار الخضراء حولهم تزين الأرصفة، وتهتز وتتراقص وسط الهدوء الذي خيم على المدينة. كان الشارع بأكمله تغطيه سيارات الشرطة والضباط والعساكر. وقف إلياس يتفرس في الظلام الذي أصبح فوقهم الآن ولا زال يمتد، فخيم الظلام على المكان مما جعلهم يشغلون أنوار السيارات وعواميد النور الرئيسية في الشوارع حتى خيم الليل عليهم وتوارت الشمس وراء سحب الظلام السرمدية.

سمع إلياس بعض الأصوات، فأمسك بمكبر الصوت وطلب منهم أن يصمتوا. صمت الجميع وأصاخوا السمع. سمعوا صوتًا غير واضح ولكنه ازداد تدريجيًا وكان يشبه العويل وكأن ألف امرأة ورجل يصرخون في آن واحد. أفزعهم الصوت ولكنهم فزعوا أكثر عندما سمعوا صوت السكانً في البيوت يصرخون ورأوا بعضهم يقفز من النوافذ ذعرًا ورأوا مئات السكان يخرجون من المباني ويركضون ناحيتهم والهلع على وجوههم. بعضهم يسقط من شدة الخوف فلا تقوى قدمه على حمله والبعض الآخر ينهض مرة أخرى ويكمل ركضه وكأن ملك الموت يلاحقهم ويلقي بهم في الجحيم لا الجنة. لم يرى إلياس هذا الهلع في قلوب المواطنين من قبل، فحتى رجال الشرطة بقسوتهم لم يرهبوا المدنيون لهذه الدرجة البشعة وهذا أصابه هو ومن معه بخوفٍ عميق.

اندفع السكان بالمئات يصرخون ويستنجدون رجال الشرطة. حاول إلياس أن يرى ما أفزعهم لهذه الدرجة ولكنه لم يرى شيئاً وسط هذه الأعداد الغفيرة والظلام المُهيب.

قال الضابط محمود لإلياس وشاربه يرتجف ويهتز مع أوصاله:

- ما الذي يحدث هنا؟ هل نسمح لهم بالمرور أم نوقفهم؟

- اسمح لهم، وإلا سيحطموننا في طريقهم... لم أرى هذا الهلع والخوف في حياتي. حتى العجائز يركضون!

كان الحشد يقترب من مكانِ تمركزهم تلمسًا للأمان، فأخرج إلياس هاتفه وطلب أحد الأرقام فرد بعد بضعة رنات، فقال إلياس بنبرة عصبية مرتفعة:

- لواء حُسني هل تسمعني؟

- نعم أسمعك ماذا هناك؟

- عليك أن تُرسل بعض قوات الجيش والشرطة إلى هنا حالاً.

- هل تمزح معي؟ هل تظن الجيش لعبة نخرجها وقتما نشاء يا إلياس؟

- قلت لكَ أرسلهم حالاً. هناكَ خطبٌ ما في الشيخ زايد. الأمر خطير للغاية.

سمع اللواء صوت الحشد وصراخهم مما جعله يرتاب فقال بتوجس:

- هل هناك ثورة عندك؟ أخرهم حتى آتي إليك بالإمدادات.

- ليست ثورة. إنهم فزعون. هناك شيءٌ ما يحدث هنا، لقد غطى الظلام المدينة ونحن في الصباح، والرياح الملعونة قد عادت من جديد ولكنها هذه المرة جاءت بالظلام... أرسل الإمدادات اللعينة حالاً أترجاك وإلا فسنندم جميعًا.

- حسنًا سأقوم ببعض الاتصالات وسأعود إليك، توخى الحذر.

وفى هذه الأثناء انسل الناس من كلِ حدبٍ وصوب من جميع الشوارع والمباني والطرقات ففتح لهم الضابط محمود الطريق وطلب من الجنود أن يفسحوا لهم الطريق حتى يهربوا بعيدًا، ولكن ما حدث كان كارثيٌ، فقد أمسك الناس برجال الشرطة يبكون ويتوسلون أن يحموهم حتى شعر رجال الشرطة بضيقٍ في الحركة والتف حولهم الناس حتى كادوا يقتلونهم خنقاً، فأمسك إلياس بمكبر الصوت وصرخ فيه قائلا وقد خرج عن طوره:

- اتركوا رجال الشرطة حتى نقوم بعملنا وتوجهوا إلى الخلف وحاولوا الابتعاد عن الظلام قدر الإمكان.

نظر إلياس أمامه ورآهم في الأفق يقفون وينظرون ناحيته فارتجف بدنه وشعر أن الأرض تمور به وإذ فجأة انطفأت جميع الأنوار في الطرقات وحل الظلام الكامل!

***

في محطة كهرباء الشيخ زايد جلس أحمد الدسوقي في مكتبه يملأ أوراق واستمارات مُهمة عن ميزانية الكهرباء ومتى يقطعون الكهرباء لينغصوا عيشة السكان ويخففوا من الحِمل على المحولات المُتهالكة، ولا يرجعونها إلا عندما يكون الناس على حافة الانتحار من اليأس، وعندما انتهى من ملأ الأوراق، تثاءب في مللٍ وأخرج من حقيبته قطعة كعكة قد أعدته لها زوجته حتى يأكلها عندما يجوع. شغل التلفاز وهو يعبث في كرشه وقلب في القنوات ليرى آخر أخبار هذا العالم البائس، وكانت الأخبار كلها سعيدة كالعادة!

إيران تحرق سفارة أمريكا في العراق.

أمريكا ترد بقتل قاسم سليماني.

تركيا تنضم لحكومة الوفاق في ليبيا للتصدي لحفتر.

حالات فيروس كورونا تزداد بشكلٍ سريع لا يُمكن إيقافه.

تنهد بيأسٍ وأغلق التلفاز وقال لنفسه:

- لا أمل في إنهاء صراعات البشر إلا أن تصيبهم مُصيبة مُشتركة تجعلهم يتوحدون لمواجهتها، وإلا فسينشغلون بضرب رقاب بعضهم البعض.

استند بظهرهِ على الكرسي وتمطى ورفع يده في وضعية غريبة حتى يلين جسده الذي تصلب بسبب الجلوس أكثر من ألف ساعة يومياً على نفس الكرسي، وفجأة لاحظ أن الغرفة أظلمت ولم يعد يرى شيئاً، فتذمر وصاح قائلاً وهو يقوم من على كرسيه:

- بحق الله نحنُ من نقطع الكهرباء عن المواطن، كيف تنقطع الكهرباء علينا؟! أيها الأوغاد ماذا حدث؟

ولكنه تذكر شيئاً غريباً وهو أن الليل لم يخيم بعد وأنهم في وضح النهار، فكيف تنقطع الكهرباء؟! التف وراءه ونظر إلى النافذة ولاحظ أنها قد اسودت في ظلامٍ سرمدي فتعجب من هذه الظاهرة العجيبة وأرتعد بدنه على إثرها، فاقترب من النافذة ودقق النظر فيها حتى ظهرت عين قرمزية غريبة تنظر إليه فتراجع في هلعٍ عارم وسقط أرضاً، وأوقع الكرسي فوقه فآلمه ذلك ولكنه أزاحه، وعندها سمع صوت صراخ كل من يعمل في شركة الكهرباء وتعالت الصرخات تلو الصرخات وسمع أصوات الناس يركضون والزجاج يتحطم والمبنى يهتز ويرتج والبرودة تملأ الأجواء حتى

شعر بأطرافه تتجمد، فأمسك هاتفه وشغل كشاف الضوء وجهه ناحية النافذة حتى يتأكد مما رآه، فأبصرها مجدداً ورآها تتحطم ولكن على هيئة مربعات زجاجية منتظمة تُحلق في الهواء، تحركت المربعات في الهواء والتفت وتركبت لتكون كلمات غريبة ثمّ تتغير الكلمات لكلمات أخرى بعد خمس ثواني، وأحمد الدسوقي فارغ الفاه يشعر بأنه في كابوس عجيب، أو أن أحدهم قد سحره وجاء بسحر عظيم. قطع ذهوله دخول أحد رفقاء عمله إلى غرفته يحمل كشافاً كبيراً، فسقطت المكعبات أرضاً وتهشمت، وسمع أحمد الموظف وهو يصيح وقد تصبب عرقاً قائلاً:

- سيدي ما هذه الأشياء العجيبة؟! لقد تحولت الشركة إلى معقلٍ للجنون والعجب.

التف أحمد الدسوقي ونظر إليه وكأنه طوق النجاة الذي جاء في الوقت المناسب، فصرخ فيه تكريماً له قائلاً وهو يقوم من على الأرض ويعدل من سترته التي كادت تتمزق:

- أخبرني ما الذي يحدث حالاً؟

- سيدي لقد أتصل بي قسم شرطة الشيخ زايد وطلب مني أن أشغل الأنوار في وضح النهار!

- ماذا؟ ما هذا الجنون ولماذا نفعل ذلك؟ ألا يكفينا أننا بالكاد نُشغلها بالليل، وأنهُ لا ميزانية الكهرباء ولا قوة المحولات تقدر على هذا الطلب؟

- ولكنّ هذا ما طلبوه منّا يا سيدي، فقد قالوا أنَّ الظلام قد ملأ السماء في وضح النهار!

نظر أحمد الدسوقي إلى نافذته وأدرك أنهم لم يكذبوا، فهدأ من نبرته قائلاً وقلبه يتلجلج ويختنق بين ضلوعه:

- إذن لماذا يصرخ من في الشركة ولماذا كل هذا الهلع؟ ربما يكون كسوف أو خسوف أو أيًا يكن اسمه!

- ولكن يا سيدي..

- ليس هناك ولكن.. فلتجعلهم يصمتون وإلا فسأطردهم جميعًا!

- ولكنّ الناس يموتون! الجدران تتشقق ويدخل الدخان الأسود عبرها وكلّ من يلمسه يتحول إلى ما يُشبه الجثة التي تعفنت وتحللت! الهلع قد أصاب كلّ من في الشركة.

لحظت عين الدسوقي مما سمع وشعر بجسده يتآكل من الداخل من برودة الجو، وعندما همّ أن يتحدث سمع صوت الغرفة تهتز وتهتز معها الموجودات من حوله، فوضع يده على فيّه ونظر إلى الموظف قائلاً:

- هل هذا الصوت يصدر من الخارج؟

اهتزت الأرض مُجددًا وربت ورجفت واقتربت أصوات الأقدام الضخمة مع كل خطوة. كانت خطوة هذا الشيء بطيئة ولكن الأرض والسماء ترجف معها.

نظر له الموظف النحيف وجسده يتراقص من الذعر داخل قميصه الواسع، واتسعت عيناه مما رآه وأشار بإصبعه المُرتجف خلف الدسوقي الذي نظر بدوره إلى النافذة ليبصر ما لا عينٌ رأت في عالم البشر والإنسان، إذ رأى مجسات اخطبوطية تدخل من نافذته وكان عددهم ثلاثة فتراجع الدسوقي وقد أحال الخوف جسده إلى فوضى هرمونية، وامتلأ كيانه

بسيلٍ من العواطف التي لم يدري أنه يملكها من الأساس، وقبل أن يخرج من حالة هلعه ويركض أمسكت المجسات به وأحاطته كما كان يلف الفراعنة المومياء بالكتان، وأبصر الموظف المسكين جلد الدسوقي وهو يزرق والحياة وهي تختفي من عينيه، ولاحظ شيء شفاف غريب يخرج من فمه ويذهب عبر النافذة وبعدها سحبته الأذرع فرأى مئات الأسنان الدقيقة الحادة اللامعة تبرز عبر النافذة والمجسات تسحب الدسوقي إليها حتى مر من عبر الأسنان وانغلقت الأسنان مرة أخرى، فصرخ الموظف بأعلى صوته من الفزع وأطلق سيقانه للرياح وهو يرى الدخان يملأ الشركة والمجسات تدخل من كل اتجاه لتشق المبنى وتحطمه وتتخطف البشر كأنهم جرادٌ مُنتشر، ورأى الطرقات مسدودة بالجثث والدخان والمجسات، ولم يرى أمامه مكان للاختباء غير غرفة المولدات فدخل إليها فارًا بحياته، وسمع صوت المولدات وهي تعمل فأنكمش في أحد الزوايا وأخذ يبكي من شدة خوفه وقد بلل سرواله دون أن يشعر. أمسك هاتفه وقلب في الأرقام واتصل بالشرطة فرأى أن الشبكة ضعيفة فلعن حظه وأنكمش ينتظر هذا الجحيم لينتهي، ولكنه لم يعلم أنهُ كان في أسوأ مكان للاختباء!

سمع صوت باب يتهشم فكادت عيناه أن تخرجا من محجريهما وانكمش أكثر على نفسه وهو يترقب الباب وكأنه مأواه من عذابٍ أليم، فتحطم الباب نصب عينيه ليحطم معه صوابه وعقله، وعندما نظر إلى الباب رآه يدخل ماشيًا وصوت عشرات الأرواح تصرخ من داخله وجسده يلمع كالعاج الأسود تحت ضوء النجوم. لم يتبين ملامحه جيدًا من شدة الظلام وسواد جسده، ولكنّ هيكله الضخم وهيئته المُخيفة التي تجعل أعتى البشر يتواضع أمامها إجلالًا ورهبًا كانت كفيلة بأن تجعله يصرخ كالمجنون ففضح مكانه، فنظر الكيان الأسود إلى مكانه واقترب منه ببطءٍ

وتريث إذ أدرك أنها فريسة سهلة، وعندما اقترب منه رفعه من وجهه وسحب كل قطرة حياة منه وكانت عيناه هي آخر ما يراه الموظف المذعور قبل أن يموت ميتة بشعة.

بعدها توجه الكيان لتحطيم كلّ مولدات الكهرباء حتى يعمّ الظلام على المدينة بالكامل فتبدأ حفلة الموت وتتجلى أقصى مظاهر الرعب الكوني لكلّ إنسان تعيس قاده حظه إلى التواجد في هذه المدينة في هذه الليلة البئيسة التي لن ينساها البشر أبدًا!

***

الفصل التاسع

بين ظلام الليل

توجه كريم ومعُه أنس خارج المنشأة ليشهدا ما حلّ بِها. رأيا الظلام يملأها والسماء قد احيلت إلى دخانٍ أسودٍ ليس له قرار، ولكنهما أبصرا ضوء الشمس ينسل من بينه بدرجةٍ ضعيفة تجعلك تُبصر العالم بشكلٍ رمادي قاتم وكئيب تمتزج به بعض الصفرة الخفيفة، وبالكاد ترى الموجودات من حولك، وصرخات أهل المدينة تدوي في آذانهم من مكانٍ بعيد، والأنوار تنطفأ تدريجيًا وأصوات إطلاق النار لا تتوقف عبر المدينة. فقال كريم وهو يضع يده على قلبه:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. أهو العذاب كما قال الشيخ عامر؟ عالمٌ بلا نور!

شعر أنس بالظمأ يكاد يحرق حلقه بعد أن فرت كل السوائل من جسده من فرط الخوف، فأشار بكشاف الضوء حوله وهو يقول بنبرة متقطعة:

- لقد تحطمت المدينة! لقد أضحت هباءً منثورا.

كانت الأعمدة مُحطمة والسيارات مُهشمة ومضغوطة وكأن عملاقاً وطأ عليها، وأضحت الشوارع مليئة بآثار الأقدام الضخمة التي لم يروا لها مثيلاً من قبل، وتلاشت المباني وأصبحت كالرميم، وامتلأت بخيوط سوداءٍ عجيبة كأنها خيوط عنكبوت، وعليها تعلقت عشرات الجثث مُحاطةً بهذه المادة السوداء العجيبة كأنهم داخل شرنقة. سقط كريم على ركبتيه وأحس أنه لا يقدر أن يخطوا خطوة أخرى وبكى وهو يدعوا الله ألا يمس عائلته سوء، وأن يحل عنهم هذا العذاب.

رفعه أنس من يده قائلاً في محاولة لشد أزره:

- ليس هذا وقت الخنوع والتذلل، يجب أن نعثر على عائلتك ونخرج من هذه المدينة الجهنمية في أقرب وقت.

اومأ كريم برأسه ومسح دموعه وتحرك معه عبر المدينة في خطى وطيدة حذرة ومضطربة وتتسم بالتذبذب.

تلاشت مظاهر الحياة من حولهما وحل بدلاً منها الظلام العظيم وأدركا أن الحظ حليفهما إذ لا زالا على قيد الحياة حتى الآن، بل ويعلمان حقيقة ما يحدث! وبعد أن سارا بعض الوقت لاحظا أن هذه المادة التي تُشبه شِباك العنكبوت تُغطي الطريق أمامهما وعليها تتعلق بعض السيارات والجثث، فقال أنس مُستفسرًا:

- أيُّ مادة عجيبة هذه؟ أهناك عنكبوت من نوعٍ ما قد نسجها؟

وجه كريم الضوء إليها فلاحظ أنها تتحسس منها ويخرج منها بخار أسود غريب إذ انكمشت قيد أنملة، فقال وقد لفتت هذه الظاهرة انتباهه:

- إنها تكره الضوء وتبغضه! ألهذا يُغطي الظلام كلّ شيءٍ حتى تنموا هذه الأشياء العجيبة في المدينة وترتوي من نبع الظلام السرمدي؟ ولماذا تتغذى على البشر ما الفائدة من هذا؟

- لا أعلم يا رفيقي ولكن من الواضح أن هذه الكائنات تبغض النور وتأكله بطريقة ما حتى يختفي من جوف السماء! ولكن إذا كانوا يتأثرون بالنور، بل ويؤلمهم مثل هذه المادة، فكيف أحيلت السحب إلى هذا السواد وتحولت المدينة إلى هاوية سوداء؟

- لا بد أنّ بحوزة هذه الكيانات ما يلزم لإطفاء النور في هذا العالم بل وربما لإطفاء الشمس!

- كيف يمكن لكائنٍ حي أن يفعل شيئاً كهذا؟!

- لا أعلم ولا أظن أننا سنعلم حقيقة ما يحدث دون أن نتعرض لهذه الأشياء، وأنا لا أرغب في هذا ولا أريد أن أراهم ولو من قريب.

غير كريم من طريقه والتف من حول الشبكة العنكبوتية السوداء ودخل من بين البيوت ليمر عبر حديقة قد تحولت أشجارها وحشائشها إلى السواد وتغيرت هيأتها المادية بالكامل حتى صارت وكأنها أشجار من عالمٍ آخر! كانت تُنبت فاكهة مُستديرة سوداء وكريهة الرائحة والدخان الأسود يحيط بها، فكتم كريم أنفه بتقززٍ قائلاً:

- إن هذا الظلام يغير قوانين عالمنا! يبدوا وكأنهم يُعيدون هندسة هذا العالم حتى يبدوا كعالمهم فيستطيعون أن يعيشوا فيه ويتغذوا على من فيه، ولكن كيف السبيل إلى هذا؟ كيف يمكنهم تغيير قوانين الفيزياء والكيمياء والأحياء التي تعجب بعض العلماء من أنها ثابتة حتمية لا تتغير ومُنظمة تنظيماً دقيقاً لا يشوبه الخلل ولا الفوضى؟!

نظر أنس إلى الحشائش السوداء الكريهة وتجنب بركات الوحل السوداء التي ملأت الحديقة وأردف يقول وقد صالب ذراعيه:

- يبدوا أن الكون لا يزال يحمل في طياته المفاجئات وأننا مهما تعلمنا فنحنُ كحبة رمال وسط صحراء شاسعة.

قطع حديث أنس صوت أجنحة ترفرف فتوجس كريم وأنس واختبئا وراء الشجرة السوداء واطفئا الكشافات ونظرا إلى السماء ليريا طائرًا ضخمًا يُغطي السماء ويعبر من فوقهما كطائرة عملاقة ترجف لها السماء والأرض؛ وهو يضرب بجناحيه الهواء فتهتزً الأشجار على الأرض بقوة حتى كاد كُلّ من كريم وأنس أن يسقطا لولا أن تمسكا بالشجرة بقوة، وشعرا ببرودة تكاد تفتك بأوصالهما، وبالزمكان حولهما يهتز ويتلاشى مع كلّ ضربة بأجنحة هذا الشيء العجيب الذي لم يتبينا هيئته جيدًا بسبب ضخامته، ولكنه لم يكن كأي طائر رأياه في حياتهما من قبل، فالظلام والدخان الأسود يُحيطه وأجنحته الأربعة ترفرف بتناغمٍ ووجهه الذي يتكون من خمسة عيونٍ صفر وفمان فوق بعضهم البعض يبرز منهما أسنان حادة تكفي لتقطيع مئات البشر دفعة واحدة! مر الطائر من فوقهما وصعد إلى السماء، فرأياها تزداد ظُلمة وكأنها يطليها بالسواد ويرممها من أي ثغرات يدخل منها ضوء الشمس! وبعدها أمتزج بالظلام في السماء واختفى بينه.

نظر أنس إلى كريم فرأى عينيه تلمع من الدهشة والذعر وسط الظلام، فبدأ بالكلام قائلاً وقد أدرك أنه توصل إلى نفس النتيجة:

- إذن أهكذا يملئون السماء ظلامًا؟! ولكن كيف يمكن لهذا الشيء أن يكون موجودًا؟ إنهُ ينافي كل قوانين العلم والفيزياء؟

شعر كريم أنَّ الواقع انقلب على عقبيه وسقط في الخيال، وأنهُ لم يعد يفرق بين حقيقة العالم وما يحدث الآن وأحس أن كل قناعاته السابقة قد تحطمت تحت هوة هذه الظواهر العجيبة، فقال وشفتاه ترتجفان من البرد والظمأ والذعر:

- العلم ما هو إلا أداة لتفسير عالمنا فقط وما سواه من العوالم يعجز العلم عن تفسيره وإدراكه.. الهوة بين الخيال والواقع لم تعد واضحة.. وهل كان الواقع غير نظرتنا البسيطة البدائية للعالم الذي وجدنا أنفسنا فيه؟ يبدوا أن الواقع يشمل أكثر مما يقدر عقلنا أن يتحمله!

***

نظر إلياس إليهم في الأُفق وهم يقفون على أعتاب أنوار المدينة، بعضهم يقف بشموخٍ فوق البيوت في مظهرٍ مهيب تقشعر له الأبدان، والبعض الآخر يقف في منتصف الطرقات في الظلمات ولكنّ آثار الضوء الخفيفة تبرز بعض معالمهم.

كانوا طوال القامة، وربما يصلون لثلاثة أمتار، والسواد يُحيطهم، وأجسادهم نحيفة وأرجلهم طويلة وأيديهم تصل إلى أردافهم، وملامحهم كأنها الرعب في أُعتى ملامحه، فكانت أسنانهم الحادة بارزة وكأنهم يبتسمون بوحشية مُفزعة، وأعينهم القرمزية تلمع بين الظلمات وملامحهم مبهمة وجلودهم تلمع كالذهب الأسود هذا إن كانت حقاً جلوداً! والدخان الأسود يُحيطهم بهالة من الظلام ومن ظهورهم تبرز ثلاثة مجسات تتراقص في الهواء وتحمل بعضها الجثث وتمتص منها الحياة حتى أصبحوا كورقة الشجر الذابلة.

تسمر إلياس في مكانه ونظر إلى هذه الكيانات العجيبة التي لم يتخيل في أسوأ كوابيسه أنها موجودة، وأدرك أن الشياطين نفسها ليست بهذه البشاعة، ومن ذعره أسقط مسدسه من يده فلم ينتبه له أحد. وقفت سيارات الشرطة مصطفة وصفارتها تدوي والناس يهلعون من بينها ويركضون عبر المدينة في أعداد غفيرة مستنجدين صارخين داعين الله أن ينجيهم من هذا الجحيم. وأما الجنود فكانت أيديهم ترتجف من الذعر وهم يشهرون أسلحتهم ناحية هذا الرعب الكوني القديم بقدم الكون، فتمتم الضابط محمود قائلاً بقلبٍ ضعيف قد لان رغم قسوته أمام هذه اللوحة السريالية الكابوسية:

- ما هذه الأشياء يا إلياس؟ أخبرني أنّ عيني تخدعني.

التقط إلياس مسدسه من على الأرض وفرك عينيه جيدًا ليراهم أمامه، فاقشعر بدنه وسرت فيه قشعريرة متقطعة فأشار بمسدسه قائلاً:

- يبدوا أن أعتى تقنيات الهولوجرام لن تستطيع أن تخلق مثل هذه الكيانات!

وإذ فجأة انطفأت أنوار المدينة تدريجيًا حتى عم الظلام من فوقهم ومن تحتهم ومن بين أيديهم ومن خلفهم، وفي نفس اللحظة سمعوا صرخات هذه الكائنات تعوي بين الظلام كالذئاب الجائعة وفتحوا أفواههم يصرخون بأبشع الأصوات – التي قد تسمعها أذن إنسي في حياته – حتى ارتجفت أبدان رجال الشرطة وقرروا أن يفروا بحياتهم لولا أنّ إلياس صرخ فيهم ليثبتوا، وبعدها تحركت هذه الكيانات جميعًا ناحية الشرطة، فهلع إلياس من المنظر ورآهم وهم يقفزون على المباني قفزات ضخمة، وكأن قانون الجاذبية لا يسري عليهم، ويركضون على حائط المباني

كالسحالي وبعضهم يتحول إلى دخانٍ أسودٍ كثيف ويندفع في الهواء بضعة أمتار ثمّ يتشكل ويعود إلى هيئتهِ مُجددًا، والبعض الآخر يركض في الطرقات كالمجنون ويصرخ بدويٍ يُرهب أعتى القلوب وهو يحرك يده وأرجله بطريقةٍ عشوائية عجيبة تبثُ الرعب في النفوس، فصرخ إلياس قائلاً بصوتٍ متهدج:

- أطلقوا النااااااار.

رفع رجال الشرطة أسلحتهم وأطلقوا النار بكثافةٍ حتى امتلأ الشارع بوابلٍ من الرصاص واهتز الهواء من أصوات الرصاص العالية البغيضة، وطفق إلياس يصوب عليهم بمسدسه وينهال عليهم بالطلقات ولكنه لاحظ ألا سلطان للرصاص عليهم وأنهُ لا حول له ولا قوة أمام هذه الكيانات، فنبض قلبه بعنفٍ حتى كاد يقتلع صدره وشعر أن الرعب شيء لم يعرفه الإنسان قبل هذهِ اللحظة!

نفد مسدس إلياس ولاحظ أن هذهِ الكيانات لا تزال تتقدم بسرعةٍ هائلة، فصاح إلياس وهو ينسحب قائلاً:

- أنجوا بحياتكم من هذا الجحيم.

ترك رِجال الشرطة أسلحتهم وصرخوا وهم يهلعون، وعلم بعضهم أنّ الهروب مستحيل فأكمل إطلاق النار لعله يوقفهم، وسمع إلياس صوت صراخ رجال الشرطة وأصوات تقطع أجسادهم وتهشمها وصيحات الاستنجاد والهلع تضرب أذنه وهو لا يكترث بشيءٍ غير أن يفلت بحياته من هذا الجحيم الكوني القديم، ورأى بعضِ السيارات تحلق من فوقه وترتطم بالأرض، وإحداها مرت من فوقه مباشرة لتصطدم ببعض البشر الفارين من الموت، فركض إلياس بين الناس وقفز من فوق الجثث

ووثب من بين السيارة المُحطمة، وظل يشق طريقه ببراعة بين الجموع وهو يسمع صرخات الموت تطلق العنان لما يتجاوز عالم الإنسان، ولأول مرة في حياته يشعر أنهُ لا يكترث بأحد غير نفسه وهو الشرطي الصالح الذي يعتني برجاله ويهتم بهم وبكل التفاصيل التي تخصهم، ولكنه في هذه اللحظة لم يكن يقول غير نفسي نفسي.

رأى إلياس المجسات تمر من حوله وتتخطف البشر وتسحبهم إلى الخلف فتمسك أحد الناس به يطلب منه أن ينجده من هذا الشيء الذي أخترق صدره، ولكن إلياس دفعه بعيدًا عنه وتركه لبراثن الكائن الأسود لينهشه. لمح إلياس أشياء تقفز من فوقه ولكنه لم ينظر ولم يهتم وكأنه يرى ملائكة العذاب تعذب قوم لوط وإن التف خلفه لينظر سيصيبه العذاب أيضًا. هرول وهرب كما لم يهرب من قبل في حياته وهو الشجاع المقدام الذي لا يهاب الموت، وإذ فجأة وجد هذه الكائنات تهبط من فوقه وتستقر فوق بعض البشر فتقطعهم بمخالبها ومجساتها، فعلم إلياس أنّ ركضه لن يجعله يفلت منهم وأنه مصيبه ما أصابهم، فحاول أن يغير طريقه ويركض بعيدًا عن الجمع الغفير ولكن فوجئ بأحد الكيانات وقد أمسكه من رقبته ورفعه وتفرس فيه بعينين تطقان شرًا كونيًا يهلع أمامه أعتى الشياطين، فشعر إلياس أنه كالفأر في فم القط فصاح من الرعب وأدرك أنها نهايته وتشهد للقاء ربه، وأغمض عينيه حتى لا يرى هذا الشيء البشع وهو ينهش عظامه ويفتك بجسده، ولكنّ العجيب أنّ الكيان تفرس فيه قليلاً ثمّ تركه وكأنه لم ينل إعجابه، فسقط إلياس على الأرض وجسده يرتجف ودموعه تنهمر وقد أصبح في حيرة من أمره لا يفقه سر هذه الكائنات أو ماذا تريد، ورآهم يمرون بجانبه لا يكترثون له، ويركضون بجنونٍ وشرٍ ونهمٍ وشراهةٍ لا مثيل لها.

***

الفصل العاشر

روح الظلام

جلس الشيخ عامر في مسجده يُسبح الله كثيرًا بعد صلاة الظهر ويقرأ ورده اليومي من القرآن الكريم حتى ينتهي الجميع من صلاته فينهض من مجلسه ويُغلق المسجد ويتوجه إلى بيته لتفقد أحواله، وكان المسجد كالعادة يمتلأ بالقليل من العباد الشكور في دولةٍ تكتظ بمائة مليون إنسان!

نهض الشيخ عامر من مجلسه بعد خروج آخر مُصلي وأغلق الأجهزة الإلكترونية وهمّ بإغلاق باب المسجد حتى لاحظ ما جعله يتجمد مكانه. نظر الشيخ عامر إلى السماء فلاحظ الظلام الذي ينتشر تدريجيًا في السماء والرياح تعصف وتهدر وتضرب وتبطش بكلّ ما تراه بلا رحمة، فتذكر حلمه ودمدم يقول وقد اختلطت مشاعره واضطربت:

- أُستر يا رب. عالمٌ بلا نور!

وفي أثناء هذا وجد عامر عدد من الناس يركضون باتجاه المسجد بسبب الرياح العاتية وكأن الموت يطاردهم ويحاولون الفرار منه، وأول ما

خطر في بالهم هو المسجد الذي هجروه طوال حياتهم ليختبئوا فيه، فركضوا ناحيته بأقصى سرعتهم فتوجس الشيخ عامر وفتح الباب استعداداً لأيّ شيء، وعندما وصلوا عند الباب صاح فيه أحدهم:

- أهو يوم القيامة يا شيخ؟!

أشار لهم الشيخ عامر بالدخول وقد علمَ أنهُ لا سبيل له إلى بيته اليوم حتى تهدأ هذه العاصفة الجهنمية.

جلس الناس في المسجد يدفئون أجسادهم ويتأملون الزخارف العربية والمعمار الجميل الهادئ الذي يضفي على المسجد شعور الانتقال لعالمٍ آخر أفضل.

خمسةٌ كان عددهم، وازداد العدد مع مرور الوقت ليصل إلى عشرة. اتصل الشيخ عامر بكريم ولكنّ الشبكة كانت ضعيفة فوكل أمره إلى الله وخاف أن يقلق عليه في ظل هذه العاصفة العظيمة، ولكنه لا يستطيع أن يترك هؤلاء الناس الذين جاءوا يلتمسون الأمان في بيت الله. لاحظ الشيخ عامر أن الظلام صار فوقهم واختفى النور من الجامع فأعمل الأنوار والمصابيح حتى أصبح المسجد كلؤلؤة مضيئة.

رأى الناس ينظرون إليه بنظراتِ من يبحث عن إجابة لما يحدث، وأيقن أنّ الإجابة ليست معهُ ولكن لا وسيلة أخرى إلا أن يُهدئ الناس ويُذكرهم بالله في هذه الظروف، فعدل من جلبابه وطلب من الناس أن يجتمعوا من حوله في حلقة، وتذكر كيف كان الناس يطلبون العلم من قديم الزمان في المساجد، قبل اختراع المدارس النظامية التي أفسدت عقل وأخلاق كلّ طفل، وأخرجت كائنات مُشوهة نفسياً لا تفقه شيئاً عن الحياة. مرر يده على لحيته البيضاء واشتم الناس رائحة المسك الطيب يخرج من جلبابه فبدأ قوله بذكر الله ثمّ قال:

- لا تقلقوا من شيءٍ، إن العواصف والظلام آية من آيات الله، ولا شكَ أنها ظاهرة طبيعية ستمر بعد يوم أو بِضع يوم، ولكن لا يبرحن أحدكم مكانه حتى تهدأ هذه العاصفة الشعواء، وأذكروا الله كثيرًا والتمسوا إليه القرب في هذه الأوقات الصعبة.

قال أحد الحضور وقد كان رجلٌ في العقد الرابع من عمره ويمتاز بصلعة خفيفة وشارب كثيف:

- ولكنك تذكر يا شيخ ما حدث في آخر عاصفة والأهوال العجيبة التي جاءت معها!

تذكر الشيخ ما حدث وقتها وما أبصره بعينيه من كائنات عجيبة لم يكن يعلم أنها موجودة إلا عن طريق الخبر الصادق والتصديق بما جاء في كتاب الله، وتذكر حلمه عن عالمٍ بلا نور ولكنه لم يرد أن يؤرق الناس بما يخيفهم، فرد على الرجل بصوته الهادئ الطيب كهدوء المسجد:

- أتذكر بالطبع، ولا زال العلماء يدرسون هذه الظاهرة العجيبة، ولكن فلتعلم أنّ ما حدث من الصعب أن يتكرر فعوالم الغيب محجوبة عن أعيننا، ولا بد أن هذه العاصفة عبثت بقوانين عالمنا قليلاً مما أدى لأن نبصر ما أبصرنا، ولكن هذه حالة نادرة ولم تحدث في أي زمان أو مكان ولهذا فبإذن الله خير.

جلس الناس يسألون الشيخ عن طبيعة العالم وعن علامات الساعة لعلهم يعثرون على إجابة لما يحدث، ولكن يبدوا أن الأمر كان مُختلف إلا أن الشيخ قد حضرت في رأسه علامة قد تكون قريبة لما يحدث، ولكنه لم يرد أن يستبق الأحداث ويقحمها في الأحداث حتى يتأكد من كلّ شيء.

وبعد دقائق من الأسئلة والإجابات دخلت مجموعة من النساء يصرخن وهن يحملن أطفالهن، فوقف الرجال وتوجهوا إليهن والشيخ عامر في مقدمتهم يقول:

- خير؟ ما الذي أصابكن؟

بكت إحداهن وهي تحمل رضيعها وخرجت الكلمات مُختنقة من حلقها وهي تقول وسط بكاء النساء:

- لقد جنت المدينة.. الدخان الأسود يملأ كلّ شيء.. هذه الأشياء تقتل الناس يا شيخ وما أبشع خلقتهم.

قالتها وانهارت في البكاء فطلب الشيخ من أحد الرجال أن يقود النساء إلى القسم الخاص بهن ليأخذوا راحتهن ويرتاحوا حتى يتأكد مما يحدث.

خرج من باب المسجد فضربته العاصفة وكادت تقتلعه من مكانه، فأمسك بباب المسجد وفتح عينيه بصعوبة وسط الهواء والتراب والغبار ونظر ليُبصر السماء وقد اسودت، وسمع صراخ الناس في المدينة تحمله ذرات الهواء إلى أُذنيه، وسمع عويل مرعبٍ لم يمس أذنيه من قبل وكأنه من أعماق الجحيم، ولمح بين الظلام شيئاً ضخماً يصل إلى السماء يسير ببطء وترتجف معه الأرض وتنحني له البيوت وتسقط تحت قدميه خوفاً ورهباً، ولمح أذرع كالثعابين تتراقص من حوله فاتسعت عيناه وارتجفت شفتاه وشعر بالوهن وقلة الحيلة وهمّ أن يغلق باب المسجد بأسرع ما يُمكن ولكنه لاحظ شاباً يركض ناحية المسجد وهو يصرخ ويستنجد ومن خلفه بِركضٍ كيان غريب على أربعة أقدام أو أكثر، لم يكن يدري، وكان جسده ضخماً كالدب الأسود وتبرز من ظهره نتوءات وحراشف سوداء غريبة مُتناسقة وله ثلاثة أذيل وثلاثة رؤوس، ولا يملك من العيون شيئاً،

فأشار الشيخ عامر بفزعٍ إلى الفتى وصاح به أن يُسرع، فدخل الفتى إلى بوابة المسجد الحديدية وأغلقها وراءه، وهرول بعدها وصعد الدرجات حتى وصل إلى باب المسجد الخشبي وتعرقل في حاجز الدخول وسقط؛ فساعده الشيخ على الوقوف وهمّ بإغلاق الباب ولمح الكائن العجيب وهو يضرب الباب الحديدي برؤوسه الثلاثة ويصرخ كثلاثة ذئاب بغيضة في نفس الوقت بصوتٍ رفيعٍ وحادٍ لفشله في الدخول، وبعدها أقفل الباب وقد شعر أنهُ ترك قلبه بالخارج مع هذا الكيان العتيد. وقف الفتى وكان يبدوا أنه في سن المراهقة ويرتدي سلسلة فضية على صدره، ومِعطف أسود من أحدث طراز ويرتدي قبعة بطريقةٍ معكوسة، وكانت شفتاه مسودتان من شرب السجائر ورائحة ملابسه تمتلئ بشتى أنواع الدخان.

وقف الفتى يرتعش وقد انقبضت قسمات وجهه من الذعرِ الذي انتابه وأحس بقدميه ترتجفين ولا تقدران على حمله، ولكنه ظل متجمدا في مكانه يحاول أن يستوعب أنهُ لا زال على قيد الحياة، أحاطه الشيخ عامر بمعطفه ووضع يده على كتفيه قائلاً بريبةٍ:

- ما هذا الشيء الذي كان يطاردك؟

نظر له الفتى والدموع قد احتشدت في عينيه لتنهال كالشلال الجارف، وجلس في أحد أركان المسجد وقد تجمع حوله الرجال يهدئونه ويشدون من أزره ويحثونه على الحديث، حتى شعر الفتى أنه لا أمل إلا أن يحكي حتى يتركوه في حاله ليستريح قليلاً من هذا الهول الذي رآه. فحكى لهم أنه كان يسير وسط العاصفة محاولاً الوصول إلى بيته وإذ فجأة رأى الناس تركض في هلعٍ ترجف له القلوب، ورأى خلفهم أربعة مخلوقات مثل الذي كان يطارده ورآها تتصيدهم وتقضمهم وتأكلهم بأبشع الطرق،

وكان وراءهم كيان طويل يحرك يداه ومجساته بطريقة ذات دلالة وكأنه يحرك هذه المخلوقات البشعة ويتحكم بها بخيوطه كدميةً الماريونيت.

تعجب الرجال مما قاله الفتى وشعروا أنه قد أصابه مسٌ من الجنون، أو أنه يتهيأ ولكنه قال لهم أن الشيخ رآه وأنه على ما يقول شهيد، فصمت الشيخ عامر قليلاً يُفكر فيما رآه والناس تنتظر أن يؤكد لهم ما قاله الفتى، وعندما أراد أن يتحدث انطفأت الأنوار في المسجد وعمّ الظلام فصرخ الفتى صرخة أفزعتهم، فأضاء الرجال هواتفهم ونظروا للفتى الخائف وأخبروه ألا يخاف، نهض الشيخ عامر وأضاء كشاف هاتفه وهمس لهم قائلاً:

- سأذهب لتشغيل مولد الكهرباء، فلتنتظروا هنا ولا تتركوا أحدًا يبتعد.

طلب منه أحد الرجال أن يساعده فوافق وتوجها معًا إلى خارج المسجد من الباب الخلفي، وبمجرد أن فتحاه انطلقت الرياح الباردة تنخر عظامهما فانطلقا يتخفيان ويتسللان حتى وصلا إلى غرفة كبيرة حديدية، فطلب الشيخ من الرجل أنّ يحرسه حتى يُشغل المولد، فوافق الرجل وانتظر بالخارج وهو يضم جسده بيديه ليلتمس بعض الدفأ في هذا البرد القارص الذي يتسلل إلى روحك قبل جسدك المادي.

دخل الشيخ إلى الغرفة المُظلمة ووجه كشاف الضوء يمينًا ويسارًا ليتأكد أنّ المكان آمن، وبعدَ أن تأكد من خلوه اطمأن قلبه ودفع الباب ببطءٍ حتى كاد يُغلق، وتوجه إلى لوحة الكهرباء ليُشغل المولد الذي لم يعمل منذ مُدة، وعندما فتح اللوحة سمع صوت الرجل يصرخ في الخارج ويصيح طلبًا للنجدة، وسمع معه صوتًا مخيفًا حادًا فتجمد الشيخ مكانه

وتصبب جسده عرقًا وارتفعت أنفاسه ودق قلبه طبول الإنذار فسكن مكانه حتى صمت صوت الرجل، فابتلع الشيخ لُعابه بصعوبة وعلم أن رجوعه إلى المسجد أصبح من المُستحيلات، وأنّ مكوثه هنا يعني أنه سيموت من البرد والخوف والجوع.

أراد أن يُفعل المحول الكهربائي حتى تشتغل الأنوار ولكنه خاف أن يسمع هذا الكيان صوت طقطقة الأزرار، فمكث مكانه حتى يتأكد من ابتعاده ووضع كف يده على ضوء الكشاف حتى يخفت الضوء فلا يلاحظه هذا الكيان، ولكنه لاحظ ما كاد يوقف نبض قلبه، إذ لاحظ تكون دائرة سوداء طينية في الأرض يُحيطها الدخان الأسود، فشخصت عيناه مما يرى ورأى يدًا سوداء تخرج من الحفرة السوداء وتليها يد أخرى ثمّ رأس وجسد يرتفع ويصعد حتى وقف بالكامل وهو يهتز ويتذبذب بطريقة بشعة لا يتحملها بشر، وبعدها حرك عنقه يمنة ويسرة ولم يُلاحظ الشيخ أن لهذا الكائن فم ولكن له عينًا واحدة قرمزية كانت في حجم تفاحة، والتي لم تكن كأي عين يراها، فنظرة منها كفيلة بأن تجعل أقوى الرجال جُثة هامدة، وكان لديه ذيل وحيد ضخم في أسفل ظهره ينتهي بنصل مُدبب كذيل العقرب، وكان يهتز في الهواء ويتراقص مُداعبًا قوانين الأرض التي انكسرت وخضعت أمامه، وعلى صدره لاحظ الشيخ شيئًا شفافًا مستديرًا يلمع داخل جسده ويصدر منه صوت صراخ خفيف كصراخ بشر يستنجدون.

لم يكد الشيخ يُصدق ما يراه حتى لاحظ هذا الكيان يقترب منه فصاح قائلًا وهو يضع يده على قلبه ويوجه ضوء هاتفه ناحية هذا الشيء:

- اللهم أحفظنا. اللهم أحفظنا.

أغمض الكيان عينه الضخمة الكريهة بمجرد أن مسها الضوء ووضع يده اليمنى عليها وأشاح برأسه ليحميها وضرب بذيله عشوائيًا باتجاه الشيخ ولكنها مرت بجانبه لم تصبه، فلاحظ الشيخ ذلك وبأيد مرتجفة شبه ميتة التف ورفع كل أزرار المحول بسرعة فأضيئت الغرفة والمسجد بأكمله، فصرخ الكيان صرخة مفزعة رجت أرجاء الغرفة ولكن الشيخ لم يشأ أن يلتف ليرى ما يحدث وسلم أمره لله وتشهد استعدادًا لمقابلة ربه وهو يبكي من الخوف، ولكنه لاحظ أنّ الغرفة أصبحت صامتة ولا حركة فيها، فالتف بوجهه إلى الخلف ليُلاحظ أنّ الكيان قد اختفى واختفى معه الرعب، فتنهد وجلس على الأرض ليلتقط أنفاسه المُختنقة ويمسح دموع الخوف، وبعد دقائق لاحظ أن بعض الرجال قد أتوا ليتفقدوا أمره فوجدوا جثة من كان معه، ورأوه يرتجف في زاوية من الغرفة؛ ففزعوا إليه وحملوه إلى المسجد وهم يحمدون الله على سلامته ويسألونه عمّا جرى. قص عليهم الشيخ عامر ما جرى له فتجلجلت قلوبهم وكادوا يقسمون ألا يخرجوا من المسجد أبدًا حتى تهدأ هذه العاصفة، وترحموا على جثة رفيقهم الذي تحول إلى مومياء زرقاء اللون نحيفة لا روح فيها، وصلوا عليه صلاة الجنازة، ودعوا الله أن ينجيهم من هذا الجحيم وأن يعجل بزوال هذا الرعب. وقد أضاء المولد المسجد فأصبح كلؤلؤة مضيئة وسط هذا الظلام الشديد، ولم يعلم الشيخ أهذا أمرٌ حسن أم أنه سيجذب إليهم هذه الأشياء بأعداد ضخمة، ولكنه أدرك حقيقة وحيدة وهي أن هذه الكائنات تكره النور.

***

الفصل الحادي عشر

خيوط الظلام

توجه كريم ومعه أنس عبر الحدائق وقد حل الظلام وبرز بعد ما فعله طائر الظُلمات بالسماء، وأصبحت كشافات هواتفهما – التي لم يعلما كم ستمكث معهما في هذا الظلام قبل أن تنفد بطاريتها – هي المُرشد الوحيد لهما بين ظلال العالم. أكملا طريقهما ناحية بيت كريم ومرا بين البيوت والطرقات ورأيا المزيد من البرك السوداء والشِباك السوداء اللعينة ذات رائحة المستنقعات الكريهة، والتي تُغلف عشرات البشر فحاولا تحاشيها والابتعاد عنها قدر المُستطاع حتى لا يسقطا في شراكها فيُصّيران إلى مصيرٍ يُشبه قرنائهما من البشر.

بعد مسيرة بلغت نصف ساعة وصلا إلى مطلع الحي الحادي عشر، وأبصرا الصحراء المُحيطة به وقد أحيلت إلى بحرٍ متلاطِم من الظلمات، وانطفأت كل جذوة لضوء أو إياك، ورأيا أنّ العبور منه سيكون أصعب شيء لأنه مكشوف من كلّ جانب ولا يُوجد ما يغطيهما ويحميهما إن رآتهما أحد الكيانات، فقال أنس في حيرةٍ من أمره:

- ما العمل؟ علينا أن نعبر عبر هذه الصحراء الصغيرة حتى نصل إلى الحي الأول ونجد بيتك!

نظر كريم من حوله وحفز عقله ودعا ربه أن يُلهمه الحل المثالي، فنظر عبر الصحراء وقد استقرت فكرة في رأسه فقال:

- فلنزحف عبر هذه الصحراء وعندها لن تنكشف أجسادنا ولن يرانا أحد وسط هذا الظلام.

رفع أنس حاجبيه باستهجان وقال بسخرية:

- وهل تظن أن هذه الكيانات تحتاج إلى نورٍ حتى ترانا؟ قد يكون إحداها وسط هذه الصحراء أو في أيِّ مكانٍ يراقب الوضع وينتظر فريسته لتمر.

ضرب كريم بقدمه الأرض في يأسٍ وظل يفكر في مصير عائلته القاتم والمجهول وقرر أن يفعل أيّ شيء حتى يصل إليهم ولكنه لم يعلم كيف السبيل بين كل هذا.

أدار ظهرهُ ورأى أحد البيوت المُحطمة فأمسك بحجرٍ منه وقذفه بأقصى قوته عبر الصحراء حتى استقر في منتصفها وجلس ينتظر أن يحدث أيّ شيء، ولكن الصمت كان سيد الموقف، فقذف بحجرٍ أكبر وظل ينتظر، فنهره أنس عن هذا، فنظر له كريم بثقةٍ وقال:

- قلت لكَ ليس هناك ش...

وقبل أن يُكمل الجملة خرج شيء ضخم من تحت الرمال يكسيه السواد وقفز عاليًا كحوتٍ أسود عظيم وهو يزمجر إلى السماء وزعانفه الستة العملاقة تضرب الهواء، وذيلهُ الضخم الشبيه بذيل الحوت يضرب الهواء من خلفهِ

وكان له خمسة مجسات تتراقص فوق ظهره من بين زعانفه، وفمه الضخم الشبيه بفم الحوت ينفتح كمكنسة تشفط كل ما أسفلها، فسحب كلّ ما على الأرض من رمال وسيارات وجثث، وطفق يُحلق ويدور حول الصحراء بحثاً عن أي روح تتحرك على الأرض، وبعدها عاد تحت الرمال السوداء والتي أضحت كبحرٍ أسود لهذا الكيان العجيب يسبح ويجول فيه كيفما شاء ووقتما شاء ولاً يدع همسة تمر دون أن يلتقمها بفيّه.

فغر فاه كُلّ من كريم وأنس وأحسا أن الأرض قد ضاقت عليهما بما رحبت، وأغشي على أنس من هول الموقف، فتمالك كريم نفسه، وأمسك به وقاده إلى أحد البيوت الفارغة النصف محطمة، وجهز له أريكة نجت بالكاد من هذا الويل، وغطى جسده ببعض الأغطية التي وجدها، وجلس بجانبه يغطي جسده وقد تكور على نفسه وتأمل السماء وهو يُفكر فيما رآه وكان يُردد بين نفسه وعينه تدمع وقلبه قد فاض حزنا وأسى على ما آلت إليه الأمور:

- وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليمٌ شديد إنَّ في ذلك لأية لمن خافَ عذابَ الآخرة ذلكَ يومٌ مجموعٌ لهُ الناسُ وذلكَ يومٌ مشهود.

جلس كريم مع نفسه يقرأ سورًا من القرآن حتى تهدأ قلبه عن هذا الجنون الذي يراه، فلطالما كان للقرآن سلطة على قلبه تريحه عندما يقابل أي مصيبة مهما كانت ضخمة، وبعد مُضي بضع ساعات استيقظ أنس وكأنه خرج من بحرٍ عميق وشهق بقوة، فعلم كريم أنهُ كان يحلم بكابوس، فحتى النوم لن ينجيكَ من هذا الخوف والذعر.

مسح أنس عينيه وشعر بجفافِ حلقه يقتله، فناوله كريم زجاجة مياه كان قد وجدها فشرب أنس حتى ارتوى وغسل وجهه ثمّ قال وهو ينظر من حوله:

- أين نحن؟ أين أنا؟

ابتسم كريم في وجهه ليهدئه وقال بنبرة ضعيفة:

- أنتَ في مكانٍ آمن لا تخف.

- هل نحن في الليل أم في الصباح؟

ضحك كريم ضحكة لم يضحكها من فترة طويلة وقهقه قائلاً:

- وهل هناك فرق؟ إنهُ عالم بلا نور.

وضع أنس يده على وجهه بضيقٍ ويأس وأردف يقول:

- لقد تحطمت نظرتي المادية للعالم إلى الأبد بعد الذي رأيته اليوم. يبدوا أن هناك أشياء في هذا الكون لا يتصورها عقلنا. أشياء قديمة قدم الكون ومحجوبة عن أعيننا ولكن فضولنا قادنا أن نقف ما ليس لنا به علم، وأن نفتح أبوابًا لم يكن ينبغي أن تُفتح. إن كان هذا هو عالم واحد فقط من العوالم المتوازية فماذا تحمل باقي العوالم بين طياتها؟

- لا أعرف ولا أريد أن أعرف.. كلّ ما علينا فعله الآن هو أن نجد عائلتي ونذهب إلى السلطات لنخبرهم بما يحدث حتى يستطيعوا بطريقةٍ ما إغلاق هذه البوابات.. أظن أن عالمنا يمتلك ما يكفي من الأسلحة لسحق هذه الكائنات وإنهاء وجودها وهذا يُعطيني بعض الأمل لأستمر في سعيي نحو الخروج من هذا الجحيم.

لمح أنس شيئاً على يمينه فنظر ولمح شيئاً غريباً يعبر من الحائط ويمر بجانبهم ليكمل طريقه، ففزع أنس ووقف على قدميه صارخاً وتلاه كريم في الفزع مما جعل الكائن العجيب يقف وينظر إليهما بدهشةٍ وذعر وكأنه لا يعلم كيف يستطيعان رؤيته.

نظر كريم إليه ووجده يُشبه القرد ولكن جسده يتميز بخطوطٍ خضراء داكنة وسوداء تُغطي جسده بالطول، وله أذنان طويلتان وكبيرتان وملامحه مزيج بين البشر والقرود ولكنها تتسم بالتركيبية والدقة كملامح البشر. نظر إليهما الكائن في خوفٍ وتراجع إلى الخلف ببطءٍ وأصدر أصواتاً غريبة كأزيز الحشرات لم يفهما منه شيئاً وفجأة دخل كائن آخر عبر الحائط له أجنحة ضخام وحمل الكائن الصغير وطار به بعيداً، ففرج كُلّ من كريم وأنس من البيت ونظرا إلى الكائن وهو يحلق بعيداً حاملاً شبيه القرد الصغير، فقال أنس وهو يُشير إليه وعيناه تهتزان في مقلتيه:

- إنه شبيه بالذي رأيته عند أول عاصفة في بيتي!

أضاف كريم قائلاً بحيرةٍ:

- وهذا القرد يُشبه الذي رأيته ولكنهُ يختلف عنه بأن الذي رأيته كان لديه أجنحة صغار وهذا لا يمتلك شيئاً.. هل هم من العالم المُظلم؟ أم أنهم من عالمٍ آخر؟ أخاف أن تكون البوابة قد فتحت المزيد من العوالم.. سيزداد الوضع سوءًا.

شرد أنس مُفكرًا وتذكر شيئاً فقال قاطعًا حبل أفكار كريم:

- ألم تقل من قبل أنَّ الذي حدث في العالم قد أدى إلى رؤيتنا لعالم الغيب؟ وحكيت شيئاً لا أتذكره بالضبط عن أنّ أرواحنا تستطيع أن

ترى الجن والعوالم الخفية في حين أن أجسادنا المادية الفيزيائية لا تستطيع ذلك.

تذكر كريم نظريته ولكنه لم يفهم ما علاقتها بما رأياه الآن فتبدت ملامح الحيرة على وجهه، ففهم أنس أنه لم يفهم فأزاد من شرحه كأستاذٍ بارعٍ في حكيه:

- هذا يعني أن هذا الكائن الطائر هو من عالم الجن وهو الجن الطيار.. ألم تخبرني من قبل عندما وصفت لكَ شكله أنه يبدوا هكذا حسب الشرح النبوي له.

اتصلت الأفكار في رأس كريم ببعضها البعض وتذكر نظريته عن الأرواح والعالم المادي والثنائية بينهما، فأشرقت ملامحه وقال:

- تذكرت. أهذا يعني أننا الآن نستطيع أن نراهم في بعض الحالات؟ هذا يعني أن هذا الصغير هو طفل من الجن وأن الكبير ذو الأجنحة هو والده، وأنهم يهربون كذلك من كائنات الظلام البغيضة! أهذا يعني أن كائنات الظلام ليست كائنات مادية وأن الجن يهربون منها مثلما نهرب نحن؟

- لا أعلم أنتَ من تعمق في هذا ولكن أليس الجن كائنات مُرعبة يُغطيها الشعر وتظهر في البيوت المسكونة لتفزع من فيها؟

- هذه خرافات اخترعها البشر عنهم. إنهم كائنات لها أشكال مُميزة ومُتنوعة مثلنا نحن البشر، ولكن يبدوا أن لديهم قدرة في إيهام البشر وخلق صور خيالية لتُرعبهم. على سبيل المثال، فإن الجن يحبون أن يعيشوا بعيدا عن أعين البشر وعندما يأتي أحد الناس ليعيش في المنطقة التي

يعيش فيها الجن فإنه يحاول أن يخيفه حتى يترك البيت، فيوهمه بأنه سيدة بشعة يغطيها الشعر ومشوهة الوجه تصرخ في وجهه لتفزعه أثناء نومه وتأتيه في كوابيسه. يبدوا أن لديهم القدرة في العبث بأبصارنا وإيهامنا بالكذب، ومن الواضح أن لديهم المقدرة على العبث في أحلامنا. أما تفسير هذه القدرات العلمي فلا تسألني عنه لأن عالمهم يختلف عن عالمنا، وقوانين عالمنا لا تستطيع أن تفسر قوانين عالمهم بسهولة، ولكن لدينا مثال على مقدرتهم في قصة موسى عليه السلام عندما ألقى سحرة فرعون عصيهم وحبالهم فتحولت إلى ثعابين تتلوى فأوجس في نفسه خيفة موسى. فقال الله: وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحرٍ عظيم. فهذه الثعابين كانت مُجرد خيال والعصا والحبال لم تكن تتحرك، ولكن الجن ساعدوا السحرة في صنع صورة وهمية في عقول الناس أنها ثعابين تتحرك، ولهذا فقد آمن السحرة عندما تحولت عصا موسى إلى ثعبان، وهذا لأنها تحولت إلى ثعبان حقيقي بلحمٍ ودم! وبما أن السحرة يعلمون أكثر من غيرهم عن السحر فقد علموا يقيناً أن هذا الثعبان ليس بوهمٍ إنما هو ثعبان حقيقي بلحمه وشحمه، فعلموا أن الوحيد القادر على خلق ثعبان حقيقي من عصا هو الله، ولهذا آمنوا وخروا سجدًا أمام أعين فرعون المُنذهل الحانق.

- إذن فنحنُ البشر لا نستطيع تبين الوهم من الحقيقة؟ إذن كيف نعلم أن ما يحدث حولنا حقيقة وليس وهماً يستخدمه علينا كائن قوي عنده سحر عظيم؟

- لا أظن ذلك. فنحن رأينا البوابة وهي تفتح وشاهدنا ما يحدث. كما أننا نرى بعض الجن يفرون من هذا الموت، ورأينا جثث كثير من رفاقنا، ولكن يبدوا أنّ هناك تفسير طرأ على بالي وهو أن هذه الكيانات المُظلمة تمس روحك ببرودة قارسة، ولكننا نستطيع أن نرى تأثيرها المادي على

العالم من حولنا. وهذا يعني أن هذه الكائنات إما أنها غير مادية ولكن أعيننا تستطيع أن تراها أو أنّها نصف مادية ونصف روحية. أي أنها تدمج ما بين عالم المادة وعالم الاثير أو الروح، فتستطيع أن تفتك وتقتل البشر والجن على السواء! يبدوا أنني عندما حدثتك عن وجود كائن يستطيع أن يرى كلّ شيء ويسمع كلّ شيء ويشعر بكلّ شيء لم يكن محض خيال. يبدوا أن هذه الكيانات تمتلك القدرة على رؤية كلّ الأمواج الضوئية وأن تسمع كلّ الذبذبات تحت الصوتية وفوق الصوتية، ولا يُخفى عنها شيء. يا إلهي كيف يمكن القضاء على مخلوقاتٍ حتى الشياطين تخاف وتهرب منها؟!

أراد أنس أن يتحدث ولكنه سمع صوت صراخ امرأة ليس ببعيد، فنظر إلى كريم ولم يعلما هل عليهما أن يذهبا أم ربما يجدان بحافلاً من الكيانات تنتظرهما!

عزم كريم أمرهُ وقررَ أن يُنقذ المرأة مهما حدث لعل الله ييسر له بهذا الخير أن يجد زوجته وأطفاله. توجه وعبر بين البيوت المُحطمة وتبعه أنس وهو يتجنب الخيوط السوداء، ورأى السماء الرمادية فوقه تضيء لهما القليل من الموجودات من حولهما. وبعد دقائق من الركض بحذرٍ وجدا سوقا يمتلأ بالمحلات المهجورة والجثث المُعلقة على الشباك. نظر كريم من حوله وأصاخ السمع وأصابته الريبة من هيئة المكان المُفزعة فهمس لأنس قائلاً:

- هل أتى الصراخ من هنا؟

- لا أدري ولكن يبدوا كذلك.. أظن أن علينا أن نعود فالمكان غير آمن.

سمعا صوت الصرخة تدوي في السوق الكبير مرة أخرى، ويبدوا أنها كانت قريبة للغاية. تقدم كريم بحذرٍ وهو يوجه كشاف الضوء فيمن حوله ويتفحص الخيوط الدقيقة اللامعةً والكريهة، ووجد فجأة سيدة تركض وتصرخ من بين المحلات وهي تستنجد قائلة وجسدها يرتعد كورقةٍ في مهب الريح:

- لقد وجدني. فليساعدني أحد.

رأت كريم وأنس فتجمدت مكانها للحظات بعدها أدركت أنهما من البشر فركضت ناحيتهما وقد آتاها بعض الأمل ولمس شرايين قلبها، وأثناء ركضها تجمدت مكانها وكأنها شلت عن الحركة فتوجه إليها كريم وهو يلهث ويسحبها من يدها قائلاً:

- من يطاردك؟!

لم ترد عليه السيدة وظلت تحدق في الفراغ فشعر أنس أن هناك شيء خاطئ، فوجه الضوء على ظهرها ولاحظ خيطًا أسودًا رفيعًا قد أخترق ظهرها ومن ثمّ تلاه عدة خيوط أخرى انغرزت في جلدها كإبرةٍ حادة، وبعدها انسحبت السيدة إلى الخلف داخل السوق فأمسكها كريم وظل يسحبها ويشدها بكلّ ما أوتي من قوة وساعده أنس، فصرخت السيدة من الألم وشعرت أن الخيوط تمزق ظهرها، فنظرت إليهما بعينٍ تبكي دمًا وصاحت قائلة في تردد:

- اتركاني وإلا ستتقطع أحشائي.

لم يدري كريم ما يفعله فتركها وركض وراءها ليعلم أين تذهب، فزجره أنس وهو يطارده قائلاً:

- علينا أن نعود حالاً، لا أمل في نجدتها والوضع خطير!

لم يستمع له كريم وأكمل سعيه الحثيث وراء نجدتها حتى وجد محلاً ضخماً كان يبدوا كمقهى ضخم فيما سبق، فدخل فيه وراء السيدة التي تصرخ وتبكي بشكلٍ يدمي له القلب. كان المقهى مظلم ولكن كريم رفع كشاف الضوء ووجهه في كل اتجاه ليرى الفتاة وهي تسحب إلى الأعلى فوجه الكشاف ورأى ما كاد يسحب روحه من الذعر، إذ رأى هذا الكيان العجيب الذي يبدوا جسده كجسد البشر ولكن يخرج من ظهره أربعة أذرع ضخام كأذرع العنكبوت ويتعلق في السقف بالمقلوبِ عبر سلسلة من الشباك السوداء التي تعلقه في الهواء وحوله عدة جثث مغلفة، فرفع السيدة إليه وأخذ يقلبها بأذرعه الأربعة بالخيوط حتى صارت كالمومياء المحنطة، وبعدها لاحظ كريم أن شيئًا شفافًا يخرج من السيدة ويتجه ناحية قلب الكيان الأسود حتى صار قلبه يبرق ببريقٍ خفيف. وصل أنس وشاهد ما يحدث ففغر فاهه وارتجفت فرائصه وسحب كريم من ذهوله وهو يصيح:

- فلنهرب من هنا بحق الله.

ركض أنس وسحب معه كريم المذهول الذي لا تكاد قدماه أن تحملاه، فلاحظ هذا الكيان وجودهما، فصرخ بصوتِ السيدة التي أمسك بها منذ قليل قائلاً:

- لقد وجدني.

وبعدها ترك شبكته وهبط إلى الأرض وركض خارج المقهى ليتبع فريسته الجديدة، فركض على أذرعه الأربعة وقفز على الحائط الأيمن وركض عليه قليلاً ثمّ انتقل إلى الحائط الأيسر وأطلق الشباك من يده التي

تُشبه يد البشر في هيأتها لولا أن السواد والبشاعة تكسوها. انطلقت الشِباك بالعشرات تشق طريقها خلف كريم وأنس ولكنها لم تصبهما بسببِ طَبيعة السوق المليء بشتى الأشياء التي تحمي ظهورهما. ركض الكيان فوق أسطح المحلات وقفز عاليًا وظل يطلق الشباك السوداء المسمومة من يده ولكن أنسٍ وكريم كانا يراوغان ويعبران من الأزقة الضيقة وينحرفان عن المسار كثيرًا حتى لا يمسكهما. علم كريم أنه مُجرد وقت حتى يُمسك بهما الكيان فسحب أنس إلى أحد المطاعم واختبآ خلف طاولة الحسابات العريضة التي كانت تقع في آخر المحل.

وبعد لحظات سمعا صوت الكيان بالقرب من المطعم وهو يصرخ بصوتٍ بشع يمتزج بصوت السيدة التي قتلها منذ قليل:

- فليساعدني أحد.

علم كريم أنهُ يستدرج البشر إلى هنا عبر تقليد أصوات أناس تستنجد وتطلب المساعدة، فيتوجه أقرب البشر المخدوعون إلى هنا لينقذوا هذا الشخص الذي يستنجد فيفاجئوا بهذا الكائن المُرعب ينتظرهم، ويبدوا أن كلّ الشباك التي وجدوها في الطريق هي له، أو ربما هناك المزيد منه!

وقف الكائن العنكبوتي على قدميه ومشى كما يمشي البشر وهو يحك أذرعه العنكبوتية الأربعة بالحائط من حوله حتى يثير الفزع في نفوس من يختبأ فيشتم رائحة خوفه، وطفق يُردد أصوات تُشبه بشرٍ يستنجدون بشتى النبرات واللهجات. فمرة يقلد صوت طفل صغير، ومرة يقلد صوت رجل مُسنٍ ومرة يقلد صوت فتاة إلخ. ظل جسده يهتز ويتذبذب بطريقة مريبة وكأنه جثة متحركة، وبعد أن علم أنه قد فقد فريسته وضع بعض الخيوط من حوله والتي إن لمسها أحدهم فإنه سيعلم على الفور ويأتي لاصطياده.

أدرك كُلّ من أنس وكريم أنهما يتعاملان مع كائنٍ غاية في الذكاء والدقة، فهو ليس مجرد كائنٍ يصطاد البشر من أجل الطعام، بل هو يعلم جيدًا ما يفعله ويتحرك وفقاً لهذا، ولكنٍ ما سبب قدومه إلى هنا وما الذي يجنيه من قتل البشر؟ لم يدركا أبدًا السبب. بعد أن ابتعد الكائن وابتعد صوت صراخه العجيب؛ وقف كريم وهو يتصبب عرقاً ويلهث من ضيق التنفس الذي أصابه من طول الوقت الذي كتم فيه أنفاسه.

رفع أنس الذي كان جسده يرجف بشكلٍ مُتقطع وكأن روحه تكاد تخرج من بدنه، وطمأنهُ أنه قد ذهب وأنّ عليهما الهرب من هنا فورًا قبل أن يعود.

***

الفصل الثاني عشر

أقدامٌ بلا جسد

نظر إلياس من حوله ورأى كيانات الجحيم وهي تفتك بالبشر وتتجاهله وكأنه لا وجود له، فزحف بين الجثث والدماء والتراب والعرق يُغطي وجهه وجسده وقدماه لا تقويان على الركض فآثر الزحف سبيلاً له في الخروج من هذا الجحيم، أخذ يزحف كالدودة وهو يستمع إلى الصراخ المُستميت من حوله والعويل المرعب للكيانات وصوت الرياح السوداء المُحملة بالتراب التي تهدر وتهز الموجودات فتستر جسده قليلاً حتى لا يراه أحد وهو يتسلل للخارج، وبعد دقائق من الزحف ورؤية الجثث تسقط من حوله والكيانات تقفز من فوقه لتطارد من تبقى البشر استطاع إلياس أن يتسلل إلى أحد المباني وجلس فيه يلتقط أنفاسه وينفض التراب عنه ويدفئ جسده الذي كان لا يتوقف عن الارتجاف، ويهدئ من روع قلبه الذي كان صوت نبضه العالي يخرق أذنيه.

انتظر بضعة ساعات حتى هدأت أصوات الموت والصراخ وهدأ المكان من حوله، فوقف على قدميه وقرر أن يفر من هذه المدينة الملعونة بأقصى

سرعته، ولكنه كان في الحي الحادي عشر وكان الطريق خارج المدينة بعيد للغاية دون سيارة، ولكن لا سبيل له إلا الهرب على أقدامه. وقف وعزم على التحرك رغم خوفه العارم ولكنه علم أنهُ إن بقي هُنا فسيموت من البرد والجوع، فعزم التحرك وانطلق يشق طريقه عبر المدينة، وظل السؤال الذي يراوده هو لماذا تركه هذا الكائن ولم يقتله؟

لم يجد إجابة شافية غير أنهُ محظوظ أو أنّ العناية الإلهية تُحيط به. شق طريقه عبر المساكن المهجورة ولاحظ الشباك السوداء التي لم تكن موجودة من قبل والأشجار السوداء التي كانت بلا أوراق وتملأ الثمار العجيبة فروعها إذ أضحت رائحتها كريهة كالمستنقع. ظل التعجب يطارده أينما وجه كشاف ضوئه يجد ما يصيبه بالحيرة والجنون. كان الجنون هو السمة الرئيسية لهذا العالم. لا نجوم ولا شمس ولا قمر ولا أمل! رفع إلياس مسدسه ليحتمي فيه رغم معرفته بأنهُ لا فائدة منه أمام هذه الكيانات، ولكنهُ كان يعطيه شعور وهمي بالحماية.

كانت السماء مُلبدة بالغيوم السوداء والأرض أضحت كمستنقعٍ قذر من الظلام، والرياح الشديدة تجعل الرؤية صعبة وتضرب برودتها جسد إلياس إلى درجةٍ جعلته لا يتحملها، فصار يحتمي بين المباني بعض الدقائق ثمّ يكمل طريقه.

وفي أثناء عبوره أحد الطرقات لاحظ شخصان يتخفيان في حذرٍ بين المباني فخاف وقرر أن يسلك طريقاً آخر، ولكنه عندما دقق النظر لاحظ أنهما من البشر بسبب الأضواء التي كانت تصدر من هواتفهما. فتسلل خلفهما بحذرٍ ورفع مسدسه، وتفقد الطريق من حوله وتأكد من خلوه وبعدها سلكَ سبيله بين البيوت حتى أصبح وراءهما بخطواتٍ قليلة فصوب مسدسه قائلاً بنبرة حازمة حادة:

- اثبتا.

ثبت الشابان والتفا وقد بدا على ملامحهما الإنهاك والتعب والتوجس، فأكمل إلياس بنفس نبرته الجادة قائلاً:

- من أنتما؟

قال أحدهما بصوتٍ يرتجف وعينٍ ترمش باستمرار:

- أنا كريم وهذا أنس. من أنتَ يا سيدي وهل تعلم ما يحدث هنا؟

هدأ إلياس قليلاً عندما علم أنهما في نفس مأزقه فأقترب منهما بحذرٍ ثمّ سعل من البرد وقد تجمدت أطرافه من الرياح، وبعدها قطع حاجز الصمت والشك قائلاً:

- أنا الضابط إلياس. لا أعلم ما يحدث هنا، ولكنّ كلّ رجال الشرطة قد قُتلوا وأنا آخر من تبقى.

قالها بأسى، فاستبد بكريم وأنس يأس عظيم إذ علما أن الأسلحة النارية لا يمكنها أن تقف أمام هذه الأشياء اللعينة. قرر كريم أن يخبره بما يعلم، وشرع يحدثه عن التجربة التي أجرتها مؤسسة الأبحاث الأمريكية عن العوالم الموازية وما حدث بعدها من ظلامٍ أصاب هذه المدينة وفتك بها بلا رحمة أو شفقة. فغضب إلياس غضباً عظيماً وأمسك بتلابيب ملابس كريم قائلاً:

- أيها الأوغاد لقد حطمتم العالم بفضولكم العلمي اللعين!

هدأه أنس قائلاً وهو يبعد كريم عن براثنه:

- لقد حاول كريم أن يحثهم على الابتعاد عن هذه التجربة ولكن الأوان فات. لم يتوقع أحد هذه الكارثة. إن كنت ستلوم أحدًا فلُم العلماء الأمريكان ولكنهم قتلوا جميعًا!

تركه إلياس وتنهد قائلاً وقد اعترى ذراعيه ضعف شديد، وهو يحس أنهما تزدادان تخدرًا وثقلاً:

- علينا أن نتحرك من هنا قبل أن نجد المزيد من هذه الأشياء المفزعة.

وافقاه وتحركوا جميعًا في حذرٍ يشقون طريقهم بين البيوت.

***

كانت خديجة تزور المول الكبير المُسمى "بهايبر وان" والذي يقع على بداية مدينة الشيخ زايد، ويميز المدينة ويزينها بوجوده، ورغم أن كريم دائمًا ما كان يُحدثها عن أضرار هذا المول المليء بشتى أنواع السلع الاستهلاكية التي تحث الإنسان على إنفاق كل ما يملك على أشياء لا فائدة منها من أجل التمتع بلذة لحظية يليها ضرر دائم في جسد الإنسان؛ بسبب المُنتجات المُعلبة والحلويات المُضرة التي تعتمد على الطعم الصناعي وتخلو من الفائدة الغذائية، وكان يخبرها أن الإنسان الحديث قد فقد الغاية والهدف من وجوده في الحياة فصار مُنغمسًا في اللذات وصار يهتم بالوسائل بعد أن فقد الغايات، فهو يلبس ما يُحاك له، ويشرب ما يعصر له، ويأكل ما يُطهى له، ويركب ما يُصنع له؛ لأن كلّ من حوله يفعل هكذا بدون سؤال أو تفكير. فالإنسان الحديث هو إنسان أناني فرداني لا يبحث إلا عن منفعته الخاصة ومتعته، لا منفعة القبيلة أو الوطن أو من حوله، وهو إنسان هش من الداخل منزوع الروح والقداسة. ورغم أنه حاول أن يشرح لها البعد الفلسفي لهذا الإنفاق وضرره عليها وعلى

المجتمع حيث يحول الإنسان إلى آلة استهلاكية مسلوبة الإرادة، تعيش لتأكل وتنفق دون هدف أو غاية في الحياة غير اللذة والمتعة، ولكنّ هذا لم يمنعها أن تذهب للتسوق بين الحين والآخر، وبالأخص لأنها لم تكن تفهم كلام كريم بالكامل بسبب تعقيده واحتواءه على الكثير من المصطلحات، وكانت تظن أنه يراوغ بالمصطلحات الفلسفية حتى يبعدها عن إنفاق أمواله وتبذيرها طوال الوقت. فالرجل يُعرف بحبه للادخار بينما تعرف المرأة بالتبذير والإنفاق وحب التسوق الدائم بلا ملل أو كلل.

كان حسين يمشي وراءها، وحنان تمسك يدها، بينما تجر خديجة عربة التسوق وتتنقل بين مئات المُنتجات والمُعلبات والأطعمة التي لا حصر لها، وتقف بالدقائق تُحدد ما تريد شراءه بعناية وتقوم بعملية حسابية للأموال التي بحوزتها، وللمدة التي ستمكث فيها الأطعمة قبل أنً ينهوها، ومتى عليها الذهاب إلى المول مرة أخرى للتسوق.

كانت هذه الحسابات صعبة ولكن المرأة وحدها تستطيع أن تتكفل بها دون أن ترمش. ظلت خديجة تتسوق لفترة لا يعلمها إلا الله حتى لاحظت أن الظلام قد حل فجأة، فتعجبت من أن الليل قد حل بهذه السرعة! فهي لا تتذكر أنها مكثت كل هذه المدة الطويلة تتسوق! نظرت إلى ساعتها فوجدت أنها لا تزال الثالثة عصرًا، فتعجبت من هذا الظلام المُفاجئ ولكنها تذكرت أنباء هبوب عاصفة شديدة اليوم، فأنبت ضميرها أنها نسيت هذا الخبر ونزلت في هذا اليوم العاصف، ورأت أن عليها أن تعود بسرعة قبل أن تشتد العاصفة ويقلق عليها كريم. جمعت بعض الأغراض المُهمة ووقفت في صف طويل من الاستهلاكيين الذين يحملون أطنانًا من الطعام والحلويات والمنتجات التي لا حصر لها، وينفقون الآلاف عليها – بينما الفقراء يملئون الشوارع – بلا أي تأنيب ضمير. كان الصف طويل

ويمشي ببطءٍ فأحست خديجة بالملل والضجر وأحست أن العاصفة ستشتد بهذه الطريقة. أمسك حسين الصغير بعلبة شوكولا محاولاً أن ينتزع قطعة لنفسه دون أن تشعر أمه ولكنها انتبهت وزجرته أن ينتظر حتى يحاسبوا على المنتجات. فتأفف ومط شفتيه بضيق وأدار ظهره لها، فتبسمت قائلة:

- يبدوا أن كريم كان يرى ما لا أرى.

بدأ الصف يتقلص، وعندما وصل إلى المنتصف انقطعت الأنوار فجأة، وأصاب الذعر الأرجاء وعلت أصوات أناس مُحتجة مُعترضة، وسمعوا بعدها صوت الرياح العتيد يضرب أنحاء المول الضخم، فأخذ العاملين في المول يهدئون من روع الناس ويخبرونهم أن المولدات ستنفتح بعض قليل وسيعود النور، ولكنّ الأصوات علت وحدثت ضجة عارمة، وسمعت خديجة بعض المنتجات والمعلبات تسقط أرضًا وكأن المول تحول إلى معركة شرسة لم تفهم سرها، فأضاءت هاتفها وصعقت مما رأته، إذ رأت الناس يسرقون ما يقدرون عليه ويهربون خارج المول، وفي عشر دقائق من ذهولها وجدت المول وقد أُفرغ نصفه من المنتجات، وهرول الناس إلى الخارج ولم يستطع أفراد الأمن قليلو العدد أن يمنعوهم، ورأت من سرق تلفازًا ومن سرق هواتف وأجهزة إلكترونية والكثير من الطعام، وأخذ الكل يتسابق في سرقة أكبر قدر ممكن، حتى النساء والعجزة وبعض الأطفال!

عندما نظرت خديجة حولها رأت نفسها تقف وحيدة إلا من أربعة أشخاص لا زالوا مُلتزمين بالصف أمامها وقد أصابتهم الصاعقة مثلها من ضمير الناس الذي قُتل ودفن منذ أمدٍ بعيد. نظرت حنان ببراءة طفولية وخوف، وعبس وجهها وهي تقول:

- أمي ماذا يفعل الناس؟

صمتت خديجة وهي تضع يدها على فمها من الصدمة إذ أبصرت معارك تجري بين رجال الأمن وبعض اللصوص وتحولت إلى دماء تسيل على الأرض.

فطلبت من الطفلين أن يغمضا أعينهما، وبعض دقائق من المعارك والكر والفر بين الناس، والسرقة التي لم تتوقف، أضيئت المحولات لتكشف المستور وتفضح من تبقى ولم يفلت بعد بفعلته، ولكنّ معظم من كانوا في المول قد هربوا إلا القليل. البعض أفرغ ما في جيوبه بسرعة حتى لا يراه أحد، وألتزم الصمت بعد أن شعر أن الهروب الآن صار صعباً وأن الحظ لم يُحالفه في الهرب ببعض المنتجات مثل البقية، وبدأ الأمن يستعيد سيطرته على المول بعد أن سُرق نصفه! سيطردون بكلّ تأكيد بعد هذه الحادثة وربما يجازيهم صاحب المول على كلّ ما سُرق!

عادت الصفوف مرة أخرى للاصطفاف وطفق رجال الأمن يدورون في أنحاء المول يبحثون عن اللصوص ويحصون ما سُرق وهم يتصببون عرقاً من المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه. حاول رجال الكاشير أن يحاسبوا الناس على بضائعهم حتى يفرغوا المول وينظروا في حلٍ لهذه المصيبة فبدأت الصفوف تتحرك مرة أخرى.

بعد دقائق سمعت خديجة صوت صراخ الناس بالخارج وأصوات عويل غريب تقشعر منهُ الأبدان، فبدأ الهرج والمرج مرة أخرى وبالأخص عندما رأوا بعض اللصوص قد عادوا فارغي الأيدي إلى داخل المول وهم يصطرخون ويطلبون المساعدة، ويطلبون من رجال الأمن أن يغلقوا الأبواب الزجاجية بأسرع ما يمكن وإلا فسيهلكون جميعاً. لم يفهم رجال الأمن ما يحدث وشعروا بالتعجب لما أصاب الناس اليوم من خبلٍ.

توسلت أحد النساء لرجل الأمن أن يُغلق الباب، وصارت تبكي من قلبها وهي تترجاه، فضغط على زر الإغلاق وأغلق الأبواب بالكامل.

أنهت خديجة حسابها وتوجهت ناحية البوابة تتساءل عمّا يحدث، ورأت بعض الرجال والنساء يجلسون على الأرض يتعرقون ويرتعدون ويلهثون، فسألت إحداهن عمّا يجري، وما سر الأصوات المُخيفة في الخارج!، فقالت لها والخوف يطرق عنان قلبها ويدوي في صميم عقلها:

- إنّ هناك شيء ما يتحرك وسط الرياح ويقتل كلّ من يحاول دخول المدينة، ولقد شاهدت السيارات تتحطم والناس يهربون منها، ورأيتهم يُسحبون داخل الرياح ويصرخون، والسماء قد أحيلت سوادًا حتى أن الشخص لا يرى نجمة واحدة فيها!

شعرت خديجة بالقلق وتذكرت العاصفة الأولى والجنون الذي تلاها، وتذكرت حلمها عن عالم بلا نور! أصاب الذعر أوصالها وقررت أن تتصل بكريم لتطمئن عليه، ولكنها لم تجد إشارة في هاتفها. شعرت أنها في وضعٍ لا تُحسد عليه، فهي لا تدري ما يحدث بالخارج ولا تستطيع أن تعود لزوجها، وبالتأكيد سيشعر هو بالقلق عليها وقد يحاول البحث عنها فيصيبه مكروه. توجهت نحو الباب تلتمس إجابة من رجل الأمن فقال لها بتبلدٍ وجفاء:

- لقد أغلقنا الأبواب يا آنسة حتى نعلم ما يحدث بالخارج ويأتينا الخبر اليقين.

وفجأة اقترب رجل ومعه زوجته إلى الباب الزجاجي والدماء تتناثر على أجسادهما وشرعا يطرقان بأيديهما على الزجاج ويصيحان أن أفتحا لنا حالاً، فخافت خديجة وأطفالها، وطلبت من رجل الأمن أن يفتح لهما، ولكنه توجس من شكليهما والدماء التي تغطيهما ورفض أن يفتح، فألحت المرأة عليه بأن يفتح وأخذت تبكي وتصرخ ولكن رجل الأمن

لم يهتز قلبه بأي عاطفة ناحيتها، وأصر أن المصلحة العامة في أن يظلا بالخارج. ظلت خديجة تلح عليه وتستعطف قلبه ولكن بلا جدوى، وفي هذه الأثناء سمعوا جميعًا صوت أمطار تنهمر بغزارة على الأرض وكانت قطراتها سوداء ولزجة، فشرع الرجل يطرق بيده بأقصى ما عنده ويحاول كسر الزجاج بقدمه ولكنه كان منيع ضد الكسر، فجلس هو وزوجته في يأس بجانب الزجاج يدعيان الله بالنجاة، والمرأة لا زالت تستعطف خديجة وكلّ من بالداخل وهم يشاهدون ولا يتحركون، فقامت امرأة من داخل المول وتوجهت ناحية الباب وضغطت على الزر ففتحته وسحبت السيدة إلى الداخل بسرعة، فقام زوجها والفرح يملأ قلبه ليتوجه ناحية الباب ولكنه تجمد مكانه وانكمشت قسماته وجحظت عيناه في رعبٍ مهيب، فالتفت الزوجة إلى زوجها تحثه على القدوم ولكنه كان متجمدً مكانه كالصخرٍ، فتوجه رجل الأمن ودفع المرأة وأغلق الباب وهو يصرخ فيها قائلاً:

- هل أنتِ مجنونة؟ ستعرضين حياة كل من بالداخل للخطر.

رمقته المرأة بنظرة غاضبة ولكنها انشغلت بالرجل الذي وقف في الخارج لا يتحرك، وعلى حين غرة اندفع الرجل واصطدم بالزجاج فسالت الدماء من وجهه وصرخ كلّ من يشاهد الموقف في ذعرٍ، دققت خديجة النظر فرأت آثار أقدام غريبة وكبيرة عن قدم الإنسانً الطبيعية تتحرك ناحية الباب الزجاجي، ففزعت وأشارت بأصابعها لتنبه البقية، فتراجع الجميع في خوف وبقت زوجة الرجل ومالت نحو الزجاج وقد انهارت من الفزع عمّا آلت إليه الأمور. كل ما أرادوه هو بعض الطعام لا أكثر.

اقتربت الأقدام من الزجاج الشفاف وانهمر المطر على هذا الجسد الغريب ليظهره قليلاً، وكأنه رجل خفي تسقط قطرات المطر فوقه لتشكل لمحة عن هيئته الحقيقية.

كان طويلاً بشكلٍ يجلب الكوابيس لأشجع الرجال، ربما يصل إلى أكثر من ثلاثة أمتار، وكانت القطرات تسري على بعض أجزاء جسده لتحدد حجمه وطوله ولكنها لا تظهر شيئاً من هيئته. تقدمت الأقدام وأمسكت بالرجل المسكين الذي كان يصرخ ويستنجد ويتلوى من الألم، وبعدها صار يضرب وجهه بالزجاج بوحشيةٍ حتى سكن جسده واختفت الحياة من عينيه، وبعدها شاهد الجميع شيئاً شفافاً يخرج من جسد الرجل ويدخل إلى جسد الكائن العجيب. صرخ الجميع وركضوا يهرولون في كل الاتجاهات كالفئران المذعورة، بينما وقف رجل الأمن ووراءه خديجة وطفلاها وزوجة الرجل والمرأة التي فتحت البوابة يشاهدون ما يحدث وقلوبهم تنبض بعنف ولا يصدقون أعينهم. لمحوا المزيد من الأقدام تطأ الوحل الأسود على الأرض وتتجه ناحية البوابة فتراجعوا وبعدها صارت هذه الكيانات تضرب الزجاج بيدها بكلّ عنف، فتكاثرت الطرقات والضربات المتتالية ولكن الزجاج كان أمتن من أن تكسره سيارة مصفحة. ألتف رجل الأمن يصيح فاقداً صوابه بأن أدخلوا جميعاً إلى داخل المول وابتعدوا عن البوابة اللعينة.

ركض الجميع في فزعٍ داخل المول وتكوموا مع بعضهم البعض في أحد الزوايا، وكانوا أكثر من خمسة عشر إنسان.

قالت أحد النساء لرجال الأمن والاضطراب يبرز على ملامحها في أشنع صورة:

- ما هذه الأشياء في الخارج؟ ما الذي يحدث؟ وأين الجيش والشرطة من هذا؟

نظر إليها رجل الأمن في وجلٍ وحاول أن يُخفي ملامحهُ الخائفة ويدعي الشكيمة والقوة، فقال وهو يخرج اللاسلكي من جيبه:

- سأحاول أن أتواصل مع القسم لعلي أفهم ما يحدث.

ابتعد رجل الأمن وأخذ يعبث في جهاز اللاسلكي بلا أي نفع، فقد كان رجال الشرطة وليمة للكيانات القديمة يمتصون أرواحهم ببطءٍ.

رأت خديجة المرأة التي مات زوجها وهي تبكي بحرقة وتندب حظها فتوجهت إليها ووجدت المرأة التي أنقذتها تجلس بجانبها وتحاول أن تواسيها وتهدئها، فجلست خديجة بجانبها وابتسمت في وجهها قائلة:

- لقد كان ما فعلتيه عملٌ عظيمٌ يستحق الإشادة. لقد أنقذتِها من براثن هذا الشيء المُفزع.

نظرت إليها سارة وقد كانت في الثلاثين من عمرها، تلف حجابًا أبيضاً على وجهها المُمتلئ بعض الشيء، وترتدي معطفًا أزرقاً طويلًا يُغطي جسدها من هذا البرد القارص. بادلتها سارة الابتسامة وقالت في خجل وقد أحمرت وجنتيها:

- لا يجب أن نترك من يحتاج المساعدة أبدًا، لأننا سنحتاجها بعده بالتأكيد، كما أن كلّ خيرٍ يعود عليكِ بثوابٍ عظيم عاجلاً أم آجلاً.

سعدت خديجة أن هناك من لا يزال يتحلى بأخلاق إنسان الفطرة القديم الذي هُدم بالكامل في العصر الحديث من قبل المؤسسات والإعلام والتكنولوجيا. نظرت سارة إلى حنان وحسين وصارت تمازحهما لتنزع عنهما الخوف، فهدئا قليلاً بفضلها، فشكرتها خديجة وتوجهت بدورها لتواسي السيدة الحزينة على فقدان زوجها.

***

الفصل الثالث عشر

جحافل الظلام

اجتمع رجل الأمن مع ثلاثة من رفاقه وصاروا يتشاورون فيما عليهم فعله بعد أن فشلوا في التواصل مع قسم شرطة مدينة الشيخ زايد، ولم يجدوا الحل إلا في أن ينتظروا في المول حتى تأتيهم الشرطة لتنجدهم، وعلموا أن مول هايبر هو مكان مميز ويقع على بداية المدينة ولا بد أن النجدة ستأتيه أولاً قبل أيّ مكانٍ آخر.

توجهوا إلى الناس وكذبوا عليهم وأخبروهم أن المساعدة قادمة وأن عليهم الانتظار للصباح حتى تصل لأنه هناك بعض المشاكل، وحكوا لهم أنهم لا يزالون يحققون في حقيقة ما يحدث في الخارج وأنه لا أحد يفقه شيئاً مما يجري في شوارع المدينة.

هدأ الناس وقرروا أن ينتظروا ويسلموا أمرهم لله، وعلموا أن المول مليء بالطعام والشراب ولهذا فالأمر لم يكن بهذا السوء باستثناء أن يجدوا مكان للنوم. ذهب الناس عبر المول وبحثوا عن المراتب والأغطية وجمعوها وصنعوا الأسرة حتى ينام الجميع اليوم. ودار رجال الأمن عبر

المول ليتأكدوا من خلوه من أي شيءٍ مُريب. وعثروا على بعض العمال الذين كان يختبئون في الغرف الخاصة وغيرها، فطلبوا منهم أن ينضموا لهم فزاد عدد الأشخاص إلى أربعين، يلتمسون الأمان من بعضهم البعض. وأعطوا للنساء والأطفال قسماً يجلسون فيه حتى يأخذوا راحتهم.

مرت الساعات يتحاكى الناس فيها وينسجون الأساطير والنظريات عن هذه الكيانات التي في الخارج، ويتشاركون المخاوف في أن تخترق المول في القريب وتفتك بهم جميعاً، وظلوا يتناقشون بلا ملل أو كلل عن حقيقتها، وحقيقة الكون وأسراره وعن الغيبيات بكافة أنواعها محاولين إيجاد تفسير لهذا المأزق. كما أنهم فكروا فيما عليهم فعله إن لم تأتي المساعدة وإذا نفد الطعام والشراب. جلست خديجة تفكر في كريم وتحاول التقاط أيِ إشارة للاتصال به أو بعث رسالة نصية له ولكن بلا نتيجة. نام كُلّ من حسين وحنان وتوقفت السيدة عن البكاء ونامت من فرط تعبها النفسي كالطفلة الصغيرة. أما سارة فقد أخرجت رواية صغيرة من حقيبتها وشرعت تقرأها، اقتربت منها خديجة وقالت لها وهي تحاول اختلاس نظرة إلى عنوان الرواية:

- ما قصة هذه الرواية؟

أغلقت سارة الرواية ليظهر عنوانها "نداء كثولو"، وبعدها نظرت إلى خديجة وشرعت تشرح لها قصتها قائلة:

- إنها قصة لكاتب الرعب الشهير "لافكرافت" وهي تتحدث عن كيان قديم كان يعيش قبل أن يعيش البشر بملايين السنين، ولكنه لظروف معينة دخل في سبات عميق في أعماق المحيط، ويريد أن يعود من جديد ويستيقظ من سباته الذي دام طويلاً، ومن أجل هذا فإنه كان يظهر

لبعض الناس في كوابيسهم ويوحي إليهم بالأفكار الغريبة حتى تشكلت جماعة تحاول أن تستدعيه مرة أخرى بطقوسٍ معينة خطيرة، ولكن عودته تعني نهاية العالم لضخامته وشدة قوته.

أرتها "سارة" هيئة كثولو على هاتفها، بوجهه العجيب الذي يخرج منه العديد من المجسات الخضراء وبأجنحته الكبيرة وعينه المُخيفة وهيئته التي تُعد مزيجاً بين الأخطبوط والإنسان، فتأملته خديجة قائلة وقد تذكرت حلمها:

- هل تظنين أن مثل هذه الكيانات القديمة موجودة؟

- بعد الذي شاهدته بعيني منذ قليل لا أستبعد شيئاً، ولكن لا أظن أن كثولو موجود. ربما أشياء أخرى أبشع منه أو أقل وحشية منه. لا أعلم.

صمتت خديجة قليلاً تفكر وتتذكر الكيان الذي رأته في حلمها وكل الكيانات السوداء والبشر يركعون له في إجلال وخوف ورهبةٍ وتعظيم، ولكنها أزاحت الفكرة عن رأسها حتى لا يزداد خوفها.

مرت الساعات ولم تأتي المساعدة، وجاء النهار ولكن الظلام لم يترك لهُ مجالاً كي يتجلى وتتجلى معه الشمس بدفئها ونورها العظيم الذي عاش البشر تحته لآلاف السنين في شتى العصور والأماكن، ولم يتخيل أحد أنهم سيفقدونهُ في أحد الأيام!

***

بعد أن أرسل إلياس رسالة التحذير إلى اللواء في الجيش بأن يرسل من ينجدهم بسرعة، استطاع بعض الناس أن يصوروا الظلام المُحيط بمدينة الشيخ زايد وينشروها على الانترنت وفي وسائل الإعلام وانتشرت الأخبار

كالنار في الهشيم في كل أنحاء العالم، وتعجب الناس من هذه الظاهرة العجيبة ونسجوا حولها الأساطير، وتوجه الجيش المصري بفرقة من أفضل وأقوى فرق الجيش لتفحص هذا الأمر بعد أن فشلوا في كلِّ محاولات التواصل مع أي أحد يعيش داخل الشيخ زايد، وبالأخص لأن المدينة كانت تمتلئ بالأغنياء ورجال الأعمال ورجال الدولة الكبار من قضاة ولواءات وفنانين إلخ. فكان من الواجب التوجه بأسرع وقت لإنقاذهم.

توجهت الفرقة ومعها ثلاثة دبابات وأربعة مروحيات ومئة جندي إلى المدينة والناس يصورونهم في أنحاء مصرٍ وقد علموا أن الأمر خطير! وصلت الكتيبة في تمام الساعة الثامنة صباحًا إلى أطراف المدينة ورأت أن الظلام امتد لأبعد من حدود مدينة الشيخ زايد وشرع في التوجه ناحية طريق المحور وناحية مدينة السادس من أكتوبر. سرعان ما دخل الجيش عبر الظلام وأصبحت الرؤية متعسرة بفضل الظلام السرمدي، فأضاءوا الكشافات وجهزوا أسلحتهم ولقموها وأعدوها أفضل إعداد، واقتربوا كثيرًا من المدينة ولكنهم لم يعلموا أين هم من شدة الظلام. تشوشت الاتصالات والخرائط الإلكترونية، وبدأت المروحيات تضطرب وتصاب بالتشوش، ولكنها ظلت متماسكة وتحاول أن تبتعد مسافة عن بعضها البعض حتى لا تتصادم في هذا الظلام. تحرك الجنود بجانب الدبابات وطفقوا يتسامرون في حقيقة هذه الظاهرة وما سيلاقونه داخل المدينة المُظلمة، ولكن البعض منهم سخر من جبنهم وظل يتفاخر بشجاعته فترة طويلة ويحكي لهم عن أمجاده ومغامراته العظيمة، إذ لم يعلم أن ما سيلاقيه سيُفقده عقله!

بعد نصف ساعة من السير سمع الجنود صوت عويل غريب وصرخات مُفزعة لا تمت بصلة إلى عالمهم، فرجفت قلوبهم وظلوا يلوحون بأسلحتهم

يمنة ويسرة علهم يجدون من يصدر هذه الأصوات. زادت الأصوات مع اقترابهم من المدينة ودوت وعلت واخترقت الآفاق وانسلت إلى عقولهم وقلوبهم حتى كادت تصيبهم بالجنون.

نظر أحد الجنود إلى يمينه ففزع إذ رأى كيانًا أسودًا يقف في نفس المكان الذي كان يقف فيه زميله منذ قليل. فأطلق النار عليه وهو يصيح وقد تعرقلت قدماه وسقط إلى الخلف، فسقط الكيان على الأرض وسرعان ما دقق الجندي النظر ليجد أنهُ أطلق النار على زميله! وقف ليُخبر الجنود بما حدث ولكنه سرعان ما رآهم يصيحون ويصطرخون ويطلقون النار على بعضهم البعض، فاتسعت عين الجندي ورمى بجسده على الأرض ووضع يده فوق أذنيه ليحمي نفسه.

لاحظ من في المروحيات أن الجنود يطلقون النار على بعضهم البعض في منظرٍ عجيب لم يروا له مثيل من قبل. فصاح أحد الجنود في المروحية بمكبر الصوت يطلب من الجنود أن يتوقفوا عن إطلاق النار وأن يلقوا بأسلحتهم أرضاً حالاً.

لم يتوقف الجنود من فزعهم ولم يلقوا لهُ بالاً، ففر بعضهم واختبأ خلف الدبابات، بينما ارتمى بعضهم على الأرض في خوفٍ وظل البقية يقتلون بعضهم حتى هدأ صوت النار وسقط عدد كبير من الفرقة. توقفت الدبابات مكانها في ريبة لا تفهم ما يحدث وساد الخوف داخلها، وأحسوا أن الدبابة قد ضاقت عليهم بما رحبت. وقف الجنود مرة أخرى وأمسكوا بأسلحتهم ورأوا جثث زملائهم صرعى والدماء تغطيها والرصاص قد ثقب أجسادهم حتى انسكبت دماءهم بوحشية لتروي الأرض السوداء.

نظر أحد الجنود أمامه وهو يبتلع ريقه بصعوبة، فرآه يقف بين الظلام ينظر إليهم، فاتسعت عيناه واهتزت أوصاله وصوب ببندقيته ناحيته ليطلق النار ولكنه سرعان ما وجده يختفي ليظهر أمامه في أقل من لحظة ويضع يده على فمه، ويغرز شيئاً حاداً في قلبه حتى شعر الجندي أن روحه تخرج وتنسحب منه فأسلم جسده وخر جثة هامدة. لاحظ أحد الجنود ما حدث فوجه سلاحه وهو يصرخ قائلاً:

- اقتلوا هذا الشيء اللعين!

انتبه الجنود وأطلقوا النار فاختفى الكيان وظهر وراء أحدهم وضرب عنقه بيده فقطع رأسه، وفي لحظة اختفى وهو يمر بين الرصاصات كالدخان الذي لا سلطة للمادة والرصاص عليه، وأخذ يقطع رؤوسهم الواحد تلو الآخر والجنود يصرخون ويهربون ويطلقون النار بعشوائية في كل اتجاه. وجه أصحاب المروحيات أسلحتهم الثقيلة والكشافات الضوئية الضخمة ناحية الكيان وطفقوا يطلقون الرصاص على أيّ مكانٍ يلمحونه فيه دون أن أيّ اكتراث لحياة الجنود على الأرض. فنظر إليهم الكيان بانزعاج واختفى بين الظلام ولم يعد له أثر. تجمع الجنود مرة أخرى وهم يرتعدون كالفئران أمام هذا الرعب الكوني العتيد، وشرعوا يطلبون الإذن بالانسحاب من هذا المكان اللعين. ولكنّ من في المروحيات أمروهم أن يتقدموا مهما حدث وأنهم سيؤمنون لهم الطريق.

خرج أصحاب الدبابات بأسلحتهم النارية الثقيلة فوق الدبابة وتجهزوا لإمطار هذا الشيء اللعين بوابلٍ من الرصاص إن تجرأ أن يقترب مرة أخرى. تقدمت الدبابات في المقدمة ووراءها الجنود في ذعر ناحية المدينة في خطى مترددة ومضطربة.

ساروا بعض الدقائق الأخرى وقد التمسوا الأمان من المروحيات والدبابات ولكن سرعان ما جاءت المفاجئة التالية. من بينِ الأرض ظهرت بقع سوداء كبيرة ومُستديرة – ويكأنها حفر من الوحل الأسود العميق – أسفل بعض الجنود وعلى حين غرة ظهرت العديد من الأيدي السوداء منها وأمسكت بأقدام الجنود، وقد كثرت هذه الأيدي من كلّ حفرة وارتفعت تتشبث بكلّ من تمسه وتحتويه بينها وتسحبه وكأنها أرواح تستنجد من الجحيم وتحاول الخروج منه عبر التشبث بالجنود. صرخ الجنود هلعًا وفزعًا واهتزت أجسادهم بعنف تحاول التملص من هذا الجنون الأسود، وصارت أقدامهم تنغرس داخل هذه الحفر السوداء وأجسادهم تُمتص وتُسحب من هذه الأيدي العنيدة المُتصلبة. استنجد الجنود برفاقهم ولكنهم لم يعلموا أيطلقون النار على هذه الأيدي فيصيبون رفاقهم أم يتركونهم لمصيرهم البشع المفزع. صرخ أحد الجنود "أن أقتلوني قبل أن تستحوذ هذه الكائنات عليّ"، فصوب أحد رفاقه النار على رأسه وأرداه قتيلاً ليُريح روحه من هذه العذاب. أطلق الجنود الآخرون النيران على هذه الأيدي ولكنهم لاحظوا أنّ سعيها نحو سحب الجنود لم يتوقف؛ فارتفعت حتى وصلت إلى رؤوس الجنود وكممت أفواههم وسحبتهم داخل الحفر وأعينهم تصرخ ألمًا وذعرًا واستنجادًا ورفاقهم عاجزون عن المساعدة بأي حل، انتبهت المروحيات لما يحدث، وهمّت أن توجه الكشافات الضخمة إلى هذه الحفر المُظلمة، ولكن وعلى حين غرة انطلقت أربعة مجسات ضخمة لم يكن لها مثيل ناحية أحد المراوح وأحاطتها وغلفتها وبدأت بسحبها داخل الظلام، فصرخ من بداخل المروحية وزادت صفارات الإنذار داخلها واحمرت الشاشات من الضغط العنيف على هيكل المروحية. وجهت باقي المروحيات الضوء ناحية الأفق لترى ما

أفزعها حتى كادت المروحيات تصطدم ببعضها البعض من فرط الذعر والرعب.

قال أحد الجنود وهو يوجه الضوء ناحية هذا الشيء الضخم الذي كانت أضخم الديناصورات لتركع في تواضعٍ وذلٍ وخنوعٍ وإجلالٍ أمامه من فرط ضخامته وبشاعته وهيبته وعظمته:

- يا الله ما هذا الشيء؟ هل ما أراه حقيقي؟

كان مهيب الهيئة بحق. طويلٌ كالجبال، وضخمٌ كالهضاب، يمتد جسده كالسهول، وسواده كالبحار في الليل أسفل السماء المُرصعة بالنجوم. يمتد جسده خمسون مترًا وله ثمانية أقدام ضخام وطوال يسير بهم ببطءٍ لتهتز الأرض وترجف وتخضع أمام غطرسته وهيبته مع كل خطوة يخطوها، يكسوه السواد والظلام والدخان الأسود الكريه، وجهه مستدير وبداخله آلاف الاسنان التي تبدوا كطاحونة مُستديرة تدور لتفرم وتمزق كل ما يدخل إليها، ويغطي فمه خمسة مجسات طوال يتدلون للأرض وله عينان كالياقوت النفيس يلمعان وسط الظلام ليضفيا عليه مزيد من الرهبة والرعب، وعلى ظهره نتوءات ضخمة مُتناسقة وحادة كقمم الجبال. كان يمد المجسات التي تغطي فمه ناحية المروحية ويسحبها بينما يفتح فمه العجيب وصفوف الأسنان الكثيرة تدور فيه وراء بعضها البعض كالمروحة أو الطاحونة استعدادًا لاستقبال الوليمة.

صرخ قائد الكتيبة وقد بلل سرواله من الذعر قائلاً:

- أطلقوا كلّ ما عندكم ولا تتوقفوا حتى يسقط هذا الشيء.

انطلق الرصاص يدوي في الهواء والصواريخ من المروحيات تضرب جسد هذا الكيان الضخم ولكنها في الحقيقة كانت تدغدغه، والدبابات تضرب أقدامه بأقصى ما عندها حتى سقط بعض الجنود من هول صوتها، ونتالت الصواريخ والانفجارات ودوي الرصاص ولا أحد يصدق ما تراه الأعين. ظل الكيان كما هو يسحب الطائرة ولم يهتم بمحاولتهم البائسة لإسقاطه. سحب المروحية وألقمها فيّه فدارت الأسنان وطحنت المروحية إلى أجزاء صغيرة والجنود بداخلها يصرخون ويصيحون فزعًا، وأسنان هذا الشيء تطحنهم وكأنهم قد سقطوا داخل مفرمة عملاقة!

تجمد المُشاة وكأن على رؤوسهم الطير، وكاد الصرع أن يصيبهم مما يرونه من هولٍ يتخطى حاجز المعقول لينتقل إلى حاجز الخيال المُعتم الداكن، ولكن سرعان ما وجدوا أنهم ليسوا بأمانٍ إذ انفتحت فتحة سوداء في الأرضٍ وخرج منها هذا الشيء. كان بعينٍ واحدة كبيرة وذيلٍ كالعقرب وكان يُشبه الكيان الذي قابله الشيخ عامر عندما أراد أن يفتح أنوار المسجد. خرج هذا الشيء من الحفرة ببطءٍ يتمطى ويطقطق رأسه يمنة ويسرة وسرعان ما أنطلق يركض على يديه وقدميه بسرعة لم يستوعبها الجنود فألقموه النيران ولكنه كان يتحرك يمينًا ويسارًا كغزالٍ ماهر يراوغ صياده، وسرعان ما وصلٍ هذا الكائن إلى أحد الجنود فقفز في الهواء وأنقض عليه ليسقطه أرضًا فهشم جمجمته، وفي نفس الفينة أنطلق ناحية الذي يليه وقفز في الهواء والتف بطريقة عجيبة أدهشت الجنود وركل الجندي بقدمه فحطم قفصه الصدري وجعله يصطدم بجنديٍ آخر، وبعدها أنطلق ذيله لينغرز في صدر أحد الجنود كنصلٍ حاد وسرعان ما خرجت مادة شفافة من الجندي ليمتصها الكيان فيسقط الجندي أرضًا جثة هامدة. استمر هذا الكيان يطارد الجنود ويتصيدهم الواحد تلو الآخر بينما تُركز الطائرات

والدبابات ضرباتها العنيفة على العملاق العظيم دون أن تنتبه لما يحدث للجنود من حولهم. صاح أحد الجنود "أن أهربوا وانجوا بحياتكم" ومجرد أن سمعوها هرولوا هربًا وكأنهم كانوا ينتظرون هذه الإشارة، فسقط بعضهم أرضًا من الخوف، وألقى البعض أسلحتهم ليركضوا أسرع والبعض ظل يطلق النار ليأخر هذا الشيء عنهم، وفي نفس اللحظة لاحظوا طائرة مروحية تدور بشكلٍ عشوائي حول نفسها وتتهاوى وتسقط أرضًا أمامهم لتنفجر فتوقفوا لبرهة ونظروا إلى السماء ليجدوا مروحية أخرى يسحبها هذا الكيان الضخم نحو فمه والجنود فيها يصرخون بهلعٍ لم يسمعه إنسان قط. أما المروحية الأخيرة فوجدوا دخانًا أسودًا يحيط بها ورأوا أحد الجنود يقفز منها هلعًا حتى سقط على الأرض وتحطم جسده، وبعدها فقدت الطائرة التحكم وسقطت أرضًا. لم يرغب الجنود أن يروا شيئًا آخر فقد علموا أن الأمر قد انتهى وقرروا أن ينجوا بحياتهم، ولكنهم سمعوا من أصوات العويل الرهيبة ورأوا الكائنات المُفزعة التي قضت على قسم شرطة مدينة الشيخ زايد تنتظرهم لترحب بهم، وسرعان ما شرعوا يركضون ركضهم الغريب المتذبذب والمُخيف ناحية الجنود الذين رأوا أنهم محاصرون من كلّ حدبٍ وصوبٍ. تراجعت الدبابات إلى الخلف لتدهس بعض الجنود من خوفها ولكن سرعان ما سمع الجنود صرخات من بداخلها ومحاولتهم الهرب من داخل قمرة القيادة، ولكنّ شيئًا ما كان يسحبهم ويقتلهم الواحد تلو الآخر حتى هدأت كلّ الدبابات عن الحركة وسكنت. أما بقية الجنود فقد سمع صراخهم يدوي عبر المدينة المظلمة وأصوات ما تبقى من رصاصهم تلمع في السماء المعتمة وبعدها سكتوا ولم يسمعهم أيّ أحد مجددًا، ولم يفقه أي شخص إلى حقيقة ما صار لهم بين جنبات الظلام.

***

الفصل الرابع عشر

أملٌ بين الظلام

جلس الشيخ عامر في المسجد يُسبح الله ويحاول أن ينزع عن ذهنه هيئة هذا الشيء الذي رآه، ولكن ظلت هيئته وعينه المُخيفة تطارده كلما أغمض عينه، وطفق يتجلى في خياله، فيُضخمه الخيال وينثر الرعب في أوصال الشيخ عامر من شيءٍ كان يعلم أنه سيأتي في يومٍ من الأيام ليكون وبالاً عليهم وعذاب أليم. إنه أقدم من كوكب الأرض نفسه، وقد كان موجودًا قبل نشأة الكثير من الكواكب والنجوم والعوالم، والآن قد أختار من بين كل العوالم عالمهم ليكون محطته التالية! أرتعد عامر لمُجرد التفكير في الأمر وعلم ألا ملجأ لهم من هذا الكيان أبدًا إلا بمعجزةٍ إلهية تُنجيهم من سلطانه عليهم.

وقف الشيخ عامر وأزاح عنه غبار الخوف، وهذب لحيته البيضاء بيده وطلب من أحد الشباب أن يؤذن لصلاة المغرب، فأذن الفتى وجلس الكل يستمع حتى انتهى من آذانه. قام الجميع ليصلي ركعتين لله إلا الفتى الذي كان يطارده الوحش ذو الثلاثة رؤوس. توجه له الشيخ

عامر ورآه شارداً مُفكراً لا يشعر بمن حوله وكأنه في ملكوتٍ خاص. جلس الشيخ عامر بجانبه فانتبه الفتى، فبدأ الشيخ حديثه بابتسامة قائلاً:

- لماذا لا تصلي معنا؟ علينا أن ننقي أنفسنا حتى يرفع الله عنّا هذا البلاء، أو على الأقل نموت وقد قضينا آخر ساعة لنا في عبادته فيدخلنا في رحمته.

نظر له الفتى بتأفف وانزعاج وأشاح بوجهه قائلاً:

- لن ينقذنا سوى العلم يا شيخ. محاولتك للنجاة بالعبادة وترك الأساليب المادية لن تنفعك ولن يُنقذك ربك.

تعجب الشيخ من ردة فعله، وفهم ما يرمز إليه، فهز رأسه قائلاً:

- إذن فأنت مُلحد؟ ما هو اسمك يا فتى؟

شعر الفتى أنهُ سيتعرض للنقد الحاد إن عبر عن قناعته، ولكنه فكر أنّ نجاتهم لن تكون بغير نقاشٍ حاد معهم حتى يفعلوا شيئاً ينجيهم غير العبادة، فقال بثقةٍ لا يشوبها شائبة:

- نعم أنا ملحد واسمي عصام.

ابتسم الشيخ فتفاجئ الفتى إذ توقع أن يثور في وجهه ويصفه بالكافر المُرتد ويقلب عليه المسجد بمن فيه فيطردوه إلى هذه الكائنات لتنهش لحمه وروحه حتى آخر قطرة، أو هذا ما كان يسمعه من شبهات تتردد في أذنه يومياً حتى ظن أن هذا ما سيحدث، وعززت هذه الصورة تصرفات بعضٍ المتشددين في رأسه. هدأ روع عصام فبادره الشيخ عامر بكلامه قائلاً:

- إذن ما هي مشكلتك مع الإيمان بخالقٍ للكون؟

- لأنه ببساطة لا يوجد. كل دين يحتكر الحقيقة له ولمن معه ويقول أنهُ الطريق إلى الجنة، بل وكل دين ينقسم إلى طوائف تتصارع مع بعضها وكلّ يكفر الآخر ويقول أنّ الحقيقة لطائفته وأن طريق الجنة من خلالها، وكل من يخرج عن ملته وطائفته فهو كافر في النار، كما حدث في الحروب بين السنة والشيعة التي قتل فيها الآلاف، أو حروب الكاثوليك والبروتستانت التي قتل فيها الملايين. هل تريدني أن أؤمن بيهوه أم المسيح أم بوذا أم آلهة الهندوس أم الله؟

- حسناً كلامك فيه من الصحة الكثير، فصحيح أن كلّ الأديان والطوائف تقول أنّ الحقيقة معها وأنها طريق الخلاص ولكن هذا لا ينفي أن أحدها بالفعل يمتلك الحقيقة، ولا شك أنَّه بوجود الله فلا بد أن هناك دين واحد، وهذا الدين يكون نقي لفترة ثمّ تتفرع عنه طوائف صغيرة متطرفة وباطلة تخرج عن الأصل والنقاء الأول لأنهُ لا يُناسب أهواءها. من الصعب أن تؤمن بيهوه لأنك لا بد أن تولد يهودي، فاليهود يرون أنهم شعب الله المختار وديانتهم لا تبشيرية، أي أنهم لا يدعون الناس لدينهم ولا يريدون لأحد أن يدخلها، ولهذا فعددهم قليل في العالم، كما أنهم حتى وإن سمحوا لكً بالدخول إلى دينهم فسيعاملونك كيهودي من الدرجة الثانية أو الثالثة، فأنت لن تكون يهودياً أصيلاً أبدًا ما لم تولد لأم يهودية، كما أنه لا يوجد جنة أو نار في دينهم، ولا يوجد ثواب أو عقاب "إن هي حياتنا الدنيا نموت ونحيا". أما بوذا فليس إلهًا بالأصل ولم يقل أنهُ إله، والبوذيين لا يؤمنون بوجود إله في الكون وإنما يؤمنون بالأرواح، أما من يعبد بوذا فهم فئة جاهلة من العامة. أما المسيح فقد هوجم أتباعه وأتباع الكنسية الكاثوليكية هُجومًا شرسًا في عصر النهضة الأوروبية من أجل الفساد والجهل والظلم الذي استشرى في الكنيسة، وسيطرة رجال

الدين والأحبار والرهبان على كلّ العالم المسيحي والأوروبي وأكلهم أموال الناس بالباطل، ونشرهم الخرافات ونبذ الدنيا وعلومها والتوجه إلى التصوف الكامل؛ أيّ التعبد فقط وكراهية كلّ ما هو مادي ودنيوي من علوم وفنون ونِعم وملذات وشهوات، وقد اتجه الغرب نحو نهضة علمية مادية بعدما نبذوا الكنيسة وهاجموا الدين المسيحي وأصبحت دولتهم دولة عالمانية تُعادي الدين وتنحيه عن شؤون السياسة وعن حياة الفرد قدر الإمكان فلم يعودوا دولة مسيحية. أما آلهة الهندوس الذين تعدوا الآلاف، ولا يؤمن بهم إلا الهنود فقط، فليس هناك عاقل سيعبدها في عصر العقل والحداثة إلا بسطاء الناس من الهند. وبهذا يتبقى لك الإسلام والمسيحية فقط على الساحة كأضخم دينين في العالم، لتنظر في حقيقتهما، أما المسيحية فكما قلت لم يعد لها دولة دينية تحكمها، وأما الإسلام فقد أصابه نفس الشيء ولم يعد له دولة دينية تحكمه ولكن هذه الدولة الدينية لم تُحارب من الداخل مثل المسيحية بل من الخارج عبر حملات الاستعمار الأوروبية التي أسقطت آخر دولة تطبق الشريعة وهي الدولة العثمانية، ولا زالت هناك محاولات عديدة لإحياء هذه الدولة الدينية وتُقابل دائمًا بالقمع والعنف، وهذا على عكس المسيحية التي لم يعد أحد يحاول أن يسترجع دولتها. وبهذا فقد نحينا الأديان والطوائف ولم يتبقى غير طريقان كبيران وهما الإسلام والمسيحية. والآن فلتبحث فيهما ولتنظر ماذا ستجد، وعليك أن تبحث جيدًا وتقرأ عن كل طائفة وتعلم سبب ظهورها السياسي والتاريخي، وعليك أن تتعلم في أصول كل دين وتاريخه وتقارن وتُعمل عقلك. ولكن قبل كلّ هذا علينا أن نقنعك أولاً أن هناك إله مُدبر للكون.

صمت الفتى عصام وهو يراجع هذه المعلومات في رأسه، ثمّ استجمع شتات أفكاره وتحدث قائلاً:

- وكلاهما باطل لا حقيقة فيهما. لقد حطم العلم الدين ولم يعد هناك إلا الحقائق العلمية المادية الثابتة. أما الدين فهو من أطياف الماضي وخرافات الأجداد ولم يعُد له حاجة في هذا العصر. كما أن أكبر العلماء لا يؤمنون بإله ولهذا فلماذا عليّ أن اقتنع بوجود شخص لا أراه بعيني ولا أسمعه؟ العلم قدم لنا هذه التفسيرات الرائعة للكون، وأوضح أن الإله ليس ضرورياً. الإيمان بالله قديم الطراز. إنه ينتمي إلى الأيام التي لم يفهم فيها الناس حقيقة الكون، وأخذوا الطريق البطيء وقالوا إن الله فعل ذلك.

- تقصد أكبر علماء العلم التجريبي وليس العلم بشكلٍ عام. فهناك علومٌ تجريبية مثل الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وعلوم أخرى إنسانية مثل الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ والعلوم الشرعية.. وحتى في العلم التجريبي فإن أكبر علماءه وأشهرهم وأكثرهم تأثيراً كانوا يؤمنون بالله؛ كنيوتن الذي كان مسيحياً، وأينشتاين وهايزنبيرغ وإروين شرودينغر وفرانسيس كولينز وماركوني وماكسويل وماكس بلانك. وأيضاً الكثير من الفلاسفة المؤثرين في أوروبا كان يؤمنون بالخالق مثل، ديكارت الذي كان مسيحياً وهيجل وفولتير وكانط واسبينوزا وغيرهم الكثير. وهؤلاء هم من كانت لهم اليد العليا في تشكيل العصر الحديث وليس الملاحدة كما تظن. إن وجود الله أمر ضروري لفهم التعقيد والتناسق والجمال الموجود في الكون. الكون متناسق ومتداخل ومتشابك في نسيج مُذهل ومعقد ومبهر للعقل، حتى أن كلّ من درس الكون سواء كانَ مؤمن أو ملحد لم يستطع أن يكتم انبهاره بمدى جمال الكون وتناسقه ودقته، حتى أنه لو اختل رقم واحد لما ظهر الكون كما نراه الآن. ولتنظر إلى الإنسان

والكائنات الحية على الأرض وتعقيدها وتصرفاتها وتفاعلها مع الطبيعة، وانظر إلى جمال الطبيعة وتنوعها المُبهر وسوف ترى الأدلة على وجود الله.

- إن نظرية التطور قد فسرت نشأة الكائنات وأثبتت أننا لا نحتاج إلى إله، ولهذا فكلّ هذا التنوع المُبهر له تفسير علمي واضح يشرح نشأته وتكونه وتطوره.

- ولو افترضنا أن كلامك صحيح فإن نظرية التطور لا تستطيع أن تُفسر كيف تكونت الخلية الأولى التي انبثقت منها كل الكائنات الحية الأخرى وتطورت حتى وصلت إلى ما نراه الآن. لا زالت الخلية الأولى مجهولة وستظل كذلك لأنه لا يستطيع لأي أحد أن يعود بالماضي ويرى نشأتها وتكونها، ولهذا يمكنني بسهولة إن سلمت جدلاً بأن نظرية التطور صحيح لا علة فيها أنّ الله هو من أوجد الخلية الأولى وهو من جعل هذا التنوع العظيم يظهر على الأرض. كما أن نظرية التطور تعتمد على الحفريات في تفسير صحتها، وهذا يدعى بالاستدلال على الشيء بآثاره وهو منهج علمي معتمد في العلوم والمعارف، ويعتمد على السببية والاستنباط العقلي الضروري. والدين في أصوله الكبرى يقوم على هذا المنهج، فنحن نعطي الأدلة على وجود الله بالاستدلال على آثار الله وبصمته في الكون، فأنت ترى التناسق في كلّ شيءٍ حولك والدقة والكمال. فلماذا إذن يطبق الملاحدة هذا المنطق على نظرية التطور التي لا تخضع للمنهج التجريبي وإنما للاستدلال بالآثار، ويحرمون هذا المنطق علينا عندما نستخدمه للاستدلال على وجود الخالق؟ كما أن الكون قد ابتدأ عند لحظة معينة مع الانفجار الكبير وهذا يعني أن الكون له بداية ونهاية. وإذا كان له بداية فهذا يعني أن هناك من أوجده والقول بأنه جاء من العدم هو فرضية غريبة ليس عليها أي دليل.

- ولو افترضنا أن الله هو من خلق الكون فمن خلق الله؟

- سيكون قولك صحيح إن كان الله مُقيد بقوانين المادة والزمان والمكان، ولكنه هو من أوجدهم وخلقهم، أيّ أن قوانين الزمن والسببية تستلزم دائمًا أن هناك بداية لكلّ شيء وأن كلّ شيءٍ مصنوع له بداية وهناك من صنعه، ولهذا فإنك ستقول إذا كان للكون بداية فلا بد أن لله بداية أيضًا، إذن فمن خلقه؟ ولكن هذا السؤال يقع في مغالطة منطقية وهي أنك تفترض أنّ الخالق مُقيد بقوانين المخلوقات وقوانين المكان والزمان. إن الله خارج كوننا ولهذا فهو لا ينطبق عليه قوانين الزمكان. الله خلق الكون وهو خارجه ومُنفصل ومتنزه عنه. إن الله الذي صنع مفهوم الزمان لا يجب أن يخضع له، أيّ باختصار الله ليس له بداية ولا نهاية، فهو الأول والآخر، وباختصار فإنه الله لا نهائي، وكونه العظيم أو ما نسميه الجنة فيه الخلود والكمال وليس فيه زمن كزمننا، فأنت خالد فيه إلى ما لا نهاية. ومُغالطة الزمن هي مغالطة يقع فيها الكثير من البشر لتأثرهم بوجود عامل الزمن في عالمنا، ولكن وجود الزمن في عالمنا لا يعني أن الزمن يجب أن يكون موجود في كل العوالم وبالأخص عند الله الذي خلقه، فالله خارج كوننا، والأمر أشبه بأن نقول أنّ الخط المُستقيم له بداية والنهاية ولكن الدائرة ليس لها بداية أو نهاية، وكذلك الله ولهُ المثل الأعلى فهو ليس له بداية أو نهاية، ولهذا فلا يوجد من خلقه لأنه موجود قبل وجود الزمن، بل هو من خلق الزمن والوقت. ولتنظر إلى الإنسان ولترى التعقيد الموجود في جسده، فلنأخذ مثلا طبيعة التعقيد العميق في الجينات الوراثية، وما فيها من نظام مُعقد ومُتداخل ودقيق، وما تملكه من قدرات هائلة لحفظ المعلومات، جعلت كثيرًا من العلماء يقف مبهورًا أمامها، ويصفها بالإعجاز المُبهر. وأنظر إلى قول العالم الملحد المشهور المختص في المجال الجيني "كازو

مورا كامي" وهو يقول: (غالبًا ما يستولي عليّ شعور بالخشية والتساؤل خلال دراستي للمعلومات الجينية، أتساءل: من يمكن أن يكون قد كتب مثلٍ هذه الطبعة الزرقاء الرائعة للحياة؟! وكيف فعل ذلك؟!! يبدوا مستحيلاً أن تكون معلومات على هذه الدرجة من التعقيد والشمول في المعنى قد حدثت بمحض الصدفة، وبالتالي أنا مُجبر لأن أعترف بها على أنها معجزة تتجاوز إلى أبعد الحدود فهم البشر أو استيعابهم، وهذا يقودني إلى استنتاج وجود إله. وكلما زادت معرفتي بالجينات كلما كنت مجبرًا أكثر لأن أعترف بعظمتها، فهذه الجينات المحتوة داخل خلايا متناهية الصغر إلى حد أنها غير منظورة تحتوي على ثلاثة مليارات مجموعة مؤتلفة مكونة من أربعة أحرف كيميائية تقترن بصورة مثالية: A مع T، وC مع G، وهذا الحجم من المعلومات هو ما يبقينا أحياء، وليس نحن فقط، ولكن كلّ كائن حي على الأرض، من الكائنات المجهرية إلى النباتات والحيوانات والإنسان، وهناك ما يقدر بمليوني إلى مائتي مليون نوع من الكائنات الحية على هذا الكوكب وحده، والتي تدين جميعًا بحياتها لموجد نفس الشيفرة الجينية. ومن المكونات الأساسية للخلية البروتين، وهو عبارة عن جزيئات عملاقة تتكون من وحدات صغيرة جدًّا تسمى: الأحماض الأمينية، تنتظم في وحدة متجانسة مُعقدة، ويتكون أصغر بروتين من خمسين حمضًا أمينيًا، وبعضها يتكون من آلاف الأحماض الأمينية. واكتشف العلماء أنّ غياب حمض أميني واحد أو إضافته واستبداله يحول البروتين إلى كومة جزيئية عديمة الفائدة. وقام العلماء باختبارات لرؤية إذا كان من الممكن أن يتكون بروتين واحد بالصدفة، وخرجوا بأرقام حسابية ضخمة جدًّا، أوضحت أنه من المستحيل تكون بروتين واحد بالصدفة، فكيف بالملايين منها؟! وقد قام العالم السويسري تشارلز بوجين بحساب العوامل التي يمكن

من خلالها تكون بروتين واحد بالصدفة، فوجد أن ذلك يتطلب نسبة 1: 10 أس 160، أي: بنسبة واحد إلى رقم عشرة مضروب في نفسه مائة وستين مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه، وهذه النسبة عند علماء الرياضيات تساوي الصفر؛ لأن أقل نسبة للاحتمال عندهم هي 1: 10 أس50، واكتشف أن كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات، واكتشف أيضًا أن تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض بالمُصادفة يتطلب بلايين لا تُحصى من السنوات، قدرها بأنها عشرة مضروبة في نفسها 24 مرة من السنين، وهذا شيء لا يمكن أن يتصور.

صمت عصام قليلاً يحاول أن يستوعب هذا الكم من المعلومات ويمحصه وينظر في أمره، وأطرق برأسه مفكرًا في هذه الحقائق ورأى أن تعقيد الكون ليس في صالح معتقده الذي يقوم على الصدفة والعشوائية، فقال محاولاً تغيير الموضوع:

- حسنًا فلنقل أنّ هذا التعقيد يؤدي إلى الله، ولنفترض أن الإسلام هو الصحيح، فلماذا نحن جهلة والغرب الكفار لديهم كل هذه العلوم والتكنولوجيا التي لم تسبق في التاريخ؟!

- الحال يتبدل والأيام دول، في الماضي كنّا نحن من نملك العلم وهم كانوا يعيشون في الجهل والفقر المدقع، ويتغنون بالخرافات والأساطير في حين كان عالمنا يعيش أزهى عصوره العلمية والصناعية والزراعية والتجارية والمالية. فلديك بغداد التي كانت مركز العلم في العالم في القرن الثامن والأندلس في الغرب التي كانت منارة العلم في أوروبا، وكان الكثير من الأوربيين يذهبون إليها للتعلم وطلب العلم وتحصيل العلوم

التجريبية والإنسانية، كالفلك والطب والكيمياء وعلم الحيل (الميكانيكا)، والفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها. كان عالمنا يشع بالعلم والعلماء من حدود الصين حتى المغرب والأندلس. فلديك الكثير من العلماء الذين علموا أوروبا ولولاهم لما وصلوا إلى عصر النهضة: كالبيروني والإدريسي والخوارزمي الذي ابتكر الجبر والخوارزميات وأدخل الأرقام الهندية إلى كلّ العالم والتي لولاها لما وُجدت الحواسيب والتكنولوجيا الحديثة، ولديك في الفلك أولاد موسى بن شاكر والكندي، وفي الطب ابن سينا والرازي وابن البيطار، وفي الكيمياء جابر بن حيان وغيره الكثير، وفي البصريات ابن الهيثم، وعباس بن فرناس الذي قام بأول محاولة للطيران في تاريخ البشرية. وفي الفلسفة ابن رشد الذي كان يُعتبر مُعلم أوروبا لفترة طويلة وأفضل شارح لفلسفة أرسطو، ولديك الفارابي وابن حزم وغيرهما. وكانت العلوم في أوجها وكانت تسير مع الدين في اتجاهٍ واحد لا تتعارض معه، ولكن الضعف العسكري والرفاهية الشديدة أدتْ إلى ضعف الهمم فهجمت الحملات الصليبية والمغولية التترية على العالم الإسلامي من كلّ حدبٍ وصوب فأحرقت المكتبات ونشرت الرعب، فأصبح هم الناس هو النجاة ولم يعد الاهتمام بالعلوم هو شغلهم الشاغل، ولكن صار همهم هو النجاة بحياتهم والحصول على قوط يومهم حتى انتشر الجهل ونُسيت العلوم، ولكن في هذا الوقت كان أهل أوروبا ينقلون علومنا ويتعلمونها ويترجمونها ومن هنا بدأت نهضتهم وسبقونا، فلديك العالم الشهير ليوناردو فيبوناتشي قد تعلم على يد عالمٍ عربي مسلم وكان يتقن العربية، وغيره الكثير من العلماء الذين كان يتقنون العربية لأنها كانت لغة العلم في ذلك الوقت. وكان المسلمون هم أول من اكتشف أن الأرض كروية وليست

مسطحة، ويمكنك أن تنظر في أقوال بن حزم في تأكيد هذا، وكانوا هم أول من اكتشف العلم التجريبي الذي يتغنى به الغرب حاليًا.

- أما الآن فقد انتهى كلّ هذا ولا أرى غير حفنة من الجهلة.. أشكرك على هذه المعلومات ولكنّي لن أغير رأيي بهذه السهولة ولا أنكر أنكَ حفزتني للقراءة أكثر حتى أنظر في صحة ما قلته. أما الآن فللخروج من هذا المأزق الذي نحن فيه علينا أن نأخذ بالأسباب لا أن نجلس للدعاء فقط ونحن ننتظر معجزة من السماء.

أنهى الشيخ عامر حديثه مع عصام وأدرك أنّه إن كان محق في شيءٍ فهو في أنهم عليهم أن يتخذوا من الأسباب مسلك لهم للخروج من هذا المأزق، وقد علم عامر هذا منذ البداية ولكنه لم يعلم ماذا يفعل أمام هذا الشر العظيم الذي يقبع خارج مسجدهم. كان يدرك بكامل وعيه أنّ طعامهم وماءهم سينفد وسيضطرون للخروج من هنا قريبًا، ولكنه لم يرى خطة للهروب لأنهم ببساطة لا يفهمون كُنه وحقيقة هذه الأشياء التي تنتظرهم في الخارج، وكيفيةً التصدي لها والهروب منها بعيدًا عن هذه المدينة التي أضحت ملعونة. كان ينتظر لعلّ الجيش يأتي أو الشرطة أو أن يعثر بعض علماء الطبيعة على حلٍ لهذا الظلام. عالمٌ بلا نور. كما حلم به ورآه، ولكن أعظم وأرعب ما فيه لم يأتي بعد!

تذكر الشيخ عامر ما حدث للكيان الأسود عندما أضاء الأنوار، وكيف أشاح بوجهه عندما وجه الكشاف ناحية عينه. أدرك أن الضوء عدوهم وأن الظلام يبقيهم أقوياء ويحميهم من كلّ ضُر. لو عادت الشمس فإنها ستكون كالنار المستعرة على أجساد هذه الأشياء، ولكن السماء قد

حُجبت. لمعت في رأسه فكرة، فيها مخاطرة ولكنها قد تعطيهم حلاً للهروب إذا تأزم الأمر ونفد طعامهم وشرابهم، وعليهم أن يجربوها.

وقف الشيخ عامر وجمع الناس وقد عزم أمره، فوقف أمامهم وخطب بحماسٍ لا ينضب معينه كبئرٍ لا قرار له:

- "فارتقب يوم تأتي السماءُ بدخانٍ مُبينٍ يغشى الناس هذا عذابٌ أليم ربنا أكشف عنّا العذاب إنا مؤمنون أنّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسولٌ مبينٌ ثمّ تولوا عنه وقالوا مُعلمٌ مجنون إنّا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون". عندما رأيت هذا الدخان الأسود الذي يملأ السماء والعالم والعذاب الذي جاء معه، جاءت في رأسي هذه الآية. لعلها لا تكون التفسير المُناسب لهذه الظاهرة. ربما تكون ظاهرةٍ علمية. عالمٌ آخر قد انفتح عن عالمنا، ولكنه مما لا شك فيه يُشبه الآية كثيراً. علينا أن نستغفر ونتوب ونأخذ بالأسباب المادية والعلمية للهروب من هذا المأزق، وبعدها فإن عالمنا سيرجع كما كان. لقد فكرت في خطة إن نجحت فإنها ستكون أداتنا وقوتنا ضد هذه الكائنات، وعليها فإننا إنّ هربنا من هنا وأخبرنا العلماء بنجاحها فإنهم سيستغلونها لنحرر عالمنا من هذا الرجس والظلام الذي أصابه، ونستعيده من جديد من هذه الأشياء البشعة البغيضة التي هيمنت عليه ولا ترحم أحداً. ولكن هذه الخطة تحتاج إلى أن يُخاطر أحدكم بحياته من أجلها وبالطبع ولأني أعلم أن الإنسان في هذا العصر يهاب الموت أكثر من نفسه، فقد قررت أنا أن آخذ هذه المُخاطرة، وأقدم على هذا الفعل الخطير، فإن نجحت فقد وفقني الله، وإن فشلت فسأرتاح من هذا الكابوس وأذهب إلى الرفيق الأعلى، فأنا لا رغبة لي بالحياة في عالمٍ بلا نور. ظلامٌ في القلوب والنفوس، وظلامٌ في السماء. لعل ما حدث يكسر غرورنا ونظرتنا المادية البسيطة الساذجة للعالم، ولعله يفتح آفاق العقل

لما وراء عالمنا الفيزيائي، فنبصر حقيقة الكون بصورةٍ لم تُسبق من قبل، ونؤتى من العلم ما يفتح أمامنا أبواب لم ندري بوجودها من الأصل، وننهي جدالات طالت وكثرت واحتدت حول حقيقة الكون والعالم والوجود.

نظر الناس له في تعجب، وخافوا رجالهم ونساءهم من أن يموت الشيخ عامر في هذه التجربة ويتركهم وحدهم لا يدرون ما يفعلون. حتى عصام رغم اختلافه مع الشيخ فإنه كان يشعر بالأمان لوجوده ويرى أنه يهدئ الناس بطريقةٍ جيدة، وهو من يعلم كلّ شيء عن هذا المسجد وبدونه سيتوهون جميعًا ولن يجدوا سبيلا للهروب.

تقدم أحد الرجال في العقد الثالث من عمره، كان أسمر البشرة وقصير الشعر وسمح الهيئة، فقال بلهجته السودانية الواضحة:

- يا شيخ إن الناس يحتاجونك هنا وإن أصابك منهم شيء فإننا جميعًا سنموت من بعدك بلا شك. أنا من سيخوض هذه التجربة فأنا جئت إلى هنا دون عائلة أو أهل يقلقون علي لأعمل ولأجد فرصة حياة أفضل عما هي في بلدي. ولهذا فأنا المُناسب لهذه المُهمة.

جادله الشيخ عامر ولكن الرجل أصر وعزم أمره، ووافق على رأيه الناس ورفضوا رغبة الشيخ عامر في إلقاء نفسه في التهلكة. وافق الشيخ عامر على مضضٍ وقرر أن يأخذ المخاطرة وأمره لله. قال الشيخ عامر وهو ينظر إلى عصام ليُنبهه من المفاجئة التي سيلقيها الآن عليهم:

- لا أعرف إذا كان أحدكم يعلم هذا، ولكنّي لست واعظاً فقط لا يفقه شيئًا عن الحياة الخارجية، فأنا كولدي كريم أهتم بالعلوم الطبيعية حتى أفهم العالم وأطلع على جديده، كما أنّ لي معارف أخرى ببعض

العلوم الإنسانية مع الشرعية، إضافة إلى أنني كنتُ مهندسًا بالأصل قبل أن أصبح شيخ هذا المسجد وأعتزل مهنة الهندسة، ولهذا فإنّي سأساعدكم بالكثير من أجل هذه التجربة العلمية التي ستنفعنا، وبعدها سأريكم بعض أدواتي التي كنت أخترعها والتي قد تساعدنا في الهروب من هنا. زمن الوعظ ونبذ الأسباب المادية قد انتهى وعلينا الآن أن ندمج كلاهما فنزين العلم بثوب الأخلاق والدين، حتى لا يتحول إلى آلة قتل مدمرة مثلما يحدث في الدول المتقدمة تكنولوجيا.

نظر له الجميع بدهشة وتعجبوا أنهُ ليس فقط مجرد شيخ يلقي عليهم ببعض الآيات والأحاديث ولا يفقه شيئاً عن العالم الخارجي. فقد تعودوا أن بعض رجال الدين قد تقوقعوا في صومعتهم ومساجدهم وابتعدوا عن العالم الخارجي بكلّ ما فيه.

بعد نصف ساعة تجهز كلّ شيء، وأستعد الناس للتجربة الخطرة التي قد تعرضهم للخطر أو تنقذهم من هذا الهلاك. انطلق الفتى السوداني خارج المسجد وسط الرياح الهوجاء التي ضربت جسده حتى ارتجف وتجمدت أوصاله، ووقف في بقعة مُظلمة في نهاية المسجد ونظر إلى المسجد فرآه كاللؤلؤة المُضيئة وسط هذا الظلام السرمدي، فكان النور يحيطه من كل جانب وكأنه البيض المكنون، وشعر بمشاعرٍ جياشة لبيت الله كما لما يشعر من قبل، وكأن نور الله يهبط عليه ليحميهم من ظلمات العالم.

وقف الشاب في الظلام ينتظر حدوث أيّ شيء، لكنّ لا شيء. وبعد دقائق من الانتظار وهو يشعر أنهُ كالتائه فوق جبال الألب الباردة ينتظر مصيره المحتوم ليلاقيه عمّا قريب، لمح شيئاً يتحرك وشعر بصقيع يضرب روحه ويُثلجها وأحس كأن روحه تنفر وتستنجد للهرب، ولكنه

قرر الانتظار إذ أنّ مصير التجربة ومصير حياته بل وحياة كل الناس يعتمد على هذه التجربة. استمرت برودة روحه بالازدياد فبدأ يتأوه من الألم ويضع يده على قلبه وكأنه يريد اقتلاعه وعندها رآه. يقف عند البوابة ينظر إليه بعينٍ من الجحيم، يتشوق في التهام روحه ونزعها. كان الظلام يغشاه والرياح تخفي ملامحه فلم يستطيع الشاب أن يتبين هيئته، وإذ فجأة وعلى حين غرة تحول إلى دخانٍ أسود وعبر من بين الأسوار وأنطلق حتى أحاط بالشاب والتف الدخانً حوله وأخفاه وابتلعه، فصرخ لينبههم لما آل إليه أمره، فأمر الشيخ عامر بالبدء، فانطلق الرجال خارج المسجد يصيحون وهم ينصبون الألواح العريضة المُحملة بالمصابيح الصغيرة ذات الإضاءة الشديدة المُركزة حول الشاب السوداني حتى أحاطته من كلّ جانب، وبعدها ضغط عامر على الزر فأضاءت المصابيح حتى انقشع الظلام أمام النور الحارق، وأضيء الليل واندفعت أشعة النور تشق طريقها عبر خلايا الدخان الأسود فسمع الناس صوت صراخ الكائن الدخاني يعلوا بطريقةٍ مزعجة تصم الآذان، فوضعوا أصابعهم في آذانهم ورأوا الخلايا السوداءً تحترق، وعندما همّ بالهرب والابتعاد عن الشاب السوداني، لم يجد مهربًا إذ أنّ النور يُحيطه من كلّ اتجاه، فظل يصرخ كرجلٍ يحترق في فرنٍ ضخم، وأخذ الدخان يتلاشى ويختفي حتى تجمع على هيئة هذا الكائن البشع الذي وضع يده على رأس وأخذ يصرخ صرخة أخرجت القلوب من الحناجر على إثرها، وظل جسده يحترق كمن ألقي في حامضٍ كبريتي وطفق يذوب في طياته، وسقط على الأرض وتكور على نفسه وصراخه لا يقل وبعدها تحول إلى رمادٍ تدريجيًا حتى اختفى ولم يبقى له أثر سوى بعض الرماد. طلب الشيخ عامر من أحد الشباب

أن يجمع بعضاً من رماده بسرعة، فتوجه ومعهُ أحد القوارير وخزن فيها عينة من رماده. وقف الرجال يحتفلون ويهللون وينظرون لبعضهم البعض غير مُصدقين أنهم هزموا أحد هذه الكيانات الرهيبة، ونظروا للشيخ عامر – الذي كان يبتسم ابتسامة النصر ويشكر الله – ببهجة وسرور، ولكنّ فرحتهم سرعان ما انقشعت إذ سمعوا العويل من عدة كائنات يقترب، فركض بعضهم ناحية الجامع بسرعة والكيانات تصرخ خلفهم وتهرول ناحية المسجد بالعشرات، بينما وقف الآخرون وجمعوا الألواح الضوئية ووضعوها بسرعة أمام باب المسجد وركضوا ناحية المسجد ووقفوا ينظرون لما سيحدث. وجدوا الكيانات تقف وهي تنظر إليهم بنظرات تقطر شرًا وبغضاً، ولم يستطيعوا أن يقتربوا من المسجد قيد أنملة، إنما وضعوا أيديهم على أعينهم من هذا الضوء الكريه وتراجعوا واختفوا وسط ستار الليل الأسود.

أغلق الشيخ عامر الألواح ودلف إلى المسجد ومعه الرجال يتناقشون ويحكون عمّا حدث والسرور يملأ قلوبهم، ويحيون الشيخ عامر ويشكرونه ويثنون على ذكاءه، ويحيون الفتى السوداني على شجاعته وإقدامه على الخطر حتى أنهُ تعرض للمس من هذا الكائن للحظات حتى كاد يفقد روحه، شكرهم الفتى وجلس ليستريح وجسده يرتعد من الهلع الذي أصابه عندما مسه هذا الشيء للحظات. أما عصام فقد توجه إلى الشيخ ونظر إليه قليلاً بحرج ثمّ قال وعلى وجهه شبح ابتسامة:

- عليّ أن أعترف أنكَ أبهرتني. أنتَ لست مثل البقية الذين يغلب عليهم الجهل.

ربط الشيخ عامر على كتفه بابتسامة أبٍ لابنه وقال:

- هذا ما كان عليه العلماء في العصر الذهبي، فكانوا يعلمون الكثير من العلوم الطبيعية ويتفقهون في الدين، وأنا لا أتميز عن أحد غير أنّي أرغب في تصحيح المسار إلى ما كان عليه وتجنب أخطاء الماضي والحاضر.

اومأ عصام برأسه، فنظر الشيخ عامر للجموع وقال بلهجته التي تمتلئ بالحكمة وخبرات الزمن:

- يا فتيان، لقد أزف الوقت لنخرج من هذه المدينة.

***

الفصل الخامس عشر

حقيقة يغشاها الظلام

انطلق كريم يشق طريقه بين الهواء العتيد والظلام المهيب، ووراءه أنس وإلياس الذين يتفقدان المكان من حولهما بحذرٍ وتوجس وخيفة، ومن أمامهم كان العالم يسقط في ظلماتٍ فوق بعضها حتى إذا أخرج أحدهم يده لم يكد يراها. انخفض مستوى الشحن في هواتفهم ولا زالت الإشارة مقطوعة، فتذمر إلياس وقال بانزعاجٍ يشوبه السخرية:

- هل سنسير كالحمقى حتى نسقط من الجوع والتعب أو تلتهمنا هذه الأشياء البشعة؟

رد أنس وهو ينظر له بضيقٍ وقال:

- تقصد تقتلنا نحن، فهم بطريقةٍ لا زلت أجهلها لم يقتلوك. يبدوا أنهم يحبون قساة القلب ولا يبغون قتلهم.

أمسك إلياس بياقته وأحمر وجهه غضباً فزأر يقول:

- أتريد أن أقيدك هنا حتى تموت؟

توجه كريم وفرق بينهما وهو يزجرهما بضيقٍ قائلاً:

- هذا ليس الوقت المُناسب لعراككما الطفولي. أجلاه حتى ننجو من هنا.

تركه إلياس وهو يزمجر ويلعن ما يحدث من حوله.

أكملوا السير بين المباني متخفيين كاللصوص ومتدثرين بغطاء الليل والحدائق السوداء هربًا من الأماكن الحيوية الخطرة في الطرقات الرئيسية، وبعد فترة من السير حتى أنّت أقدامهم من الألم، تدخل كريم ليقطع حاجز الصمت قائلاً بصبرٍ نافد:

- لن نخرج من هذه المدينة بهذا السير البطيء فالطريق أمامنا لا زال طويلاً ولن أنقذ عائلتي بهذه الطريقة، علينا أن نستقل سيارة ونشق طريقنا إلى الحي الأول.

رفع إلياس حاجبه بتعجب ومعها شفته العليا في نفورٍ وهز كتفاه بسخطٍ وتهكمٍ قائلاً:

- مرحبًا. ألا ترى ما يحدث من حولنا؟! السيارة ستكون طريق هلاكنا بلا شك.

- وماذا نفعل إذن؟ إن لم أخاطر فلن أنقذ زوجتي وأطفالي وأبي.

- فتقتل نفسك بحماقةٍ بالغةٍ لتحرق قلوبهم عليك؟ تريث وأصبر فلا طريق لنا إلا هذا.

شعر كريم بصدرهِ يضيق وبأن الأرض تمور من حوله، وتمنى لو مات قبل هذا وكان نسيًا منسيا. أكملوا السير وبعد وقت قصير خرجوا إلى

طريق لا بد أن يعبروه حتى يتخفوا وراء البيوت مُجددًا ويكملوا طريقهم من أطول الطرق بعد أن علموا أن الطريق القصير يحرسه هذا الحوت الأسود الضخم العظيم.

أشار لهما إلياس بالتزام الصمت فتأفف أنسٍ من إلقاءه الأوامر عليهما وكأنه القائد في هذا المكان، فهمس لكريم قائلاً بانزعاج:

- يأمرنا كشرطي والعالم قائم، ويأمرنا كشرطي والعالم مُحطم. يا لحظنا السعيد.

ابتسم كريم ولكنه لم يُعلق على كلامه. أصاخ إلياس السمع وحاول أن يسمع ويبصر إن كان هناك خطر وسط هذه الرياح فسمع صوت أقدام ضخمة تسير وتقترب منهم تدريجيًا، فالتف بأعينٍ خائفة وأمرهما بالتزام الصمت والاختباء خلف الشجر حتى يفهموا حقيقة ما يتحرك. انتظروا دقيقة ودقيقتان والصوت يقترب وكأنه ديناصور يتحرك من وقع أقدامه القوي، وبعد لحظات قليلة برز من بين الرياح وهو يمشي. كان كالقنفذ العملاق الذي يبلغ طوله عشرة أمتار ومليء بالشوك الأسود الحاد في كل أنحاء جسده وله ثلاثة عيون تشعان باحمرارٍ كبير، وعلى رأسه الخالي من الأشواك كان يجلس شيء ما ويراقب من فوق رأسه وكأنه يركبه ويقوده كالدابة.

توتروا من تنوع هذه المخلوقات وكأن نوعًا واحدًا منهم لم يكن يكفيهم وزيادة، فانهال عليهم عشرات الأنواع والأجناس. وبالكاد تذمروا حتى رأوا طائرًا غريبًا يُحلق في السماء. كان متوسط الحجم وله جناحان عريضان وثلاثة رؤوس طويلة تلتف حولها باستمرار في السماء لتمشط الأرض بحثاً عن أيّ بشري، ويملك فم كريه به أسنان حادة ويخرج من بينها ويدخل

لسان كلسان الأفعى، وعنده عين بنفسجية واحدة كبيرة لكلّ رأس ترى البشر كأرواحٍ شفافة شهية تتحرك على الأرض، وجسدٌ كجسد ديناصور التيروصور الطائر، وفوقه يجلس كيان ما كذلك ويقوده ويحركه.

وبعدها مر ما يُشبه الحصان ولكنه يملك مكان ذيله ثلاثة مجسات تتراقص، وفوقه يجلس شخص يُغطيه الظلام ولا تتضح ملامحه جيدًا وسط العاصفة والظلام العظيم.

صمتوا جميعًا وجلسوا يراقبون هذا الموكب الغريب الذي يعبر المدينة واضطربت قلوبهم واستل الخوف سيفه وطعنهم طعنة كادت ترديهم قتلى، فجلسوا يرتعدون من البرد والذعر ورأوا أن الوضع أسوأ مما تخيلوا، وأن ما حدث للمدينة من هجوم كان دفعة مبدئية ولا زالت باقي جحافل الظلام تندفع الواحدة تلو الأخرى.

رأوا عدة مخلوقات تصير بأعداد كبيرة وتمر عبر الظلام وهي تعوي بصوتٍ يرهب له القلوب، وتتذبذب أجسادها وتهتز وهي تسير بطريقةٍ عجيبة.

مر الموكب المُرعب وهدأ الطريق بعدها إلا من صوت الرياح التي اهتزت له الأشجار وخشعت أمامها البيوت في تذلل. وقف كريم وهو يلتقط أنفاسه وينظر إلى رفيقيه نظرة ذات دلالة، فبادلاه نفس النظرة اليائسة المُتعبة الخائفة، وقطع إلياس حاجز الصمت وقال وفي نفسه ظلمات واضطراب وألم:

- أين النجاة من هذا الجحيم؟ أين الجيوش العالمية والقوات الخاصة؟ أين هؤلاء الحمقى لينجدونا ويقضوا على هذه الأشياء قبل أن تتزايد أعدادها؟ أم إنهم يأتون لقصف بيوت المدنيين فقط؟

كان أنس شاحب الوجه، وكانت عيناه تحترقان، وكان يشعر بالتعب في جميع أعضائه، ولكنه لم يلبث أن أخذ يتنفس تنفسًا حرًا طليقاً على حين غرة وأردف يقول وهو يسعل:

- علينا أن نعود أدراجنا ونغلق هذه البوابة. أي تقدم سيفشل ولن يؤتي ثماره. هذه الكائنات تزيد وتستمد قوتها من عالمها، إن أغلقنا البوابة فإن الظلام في السماء سيختفي تدريجيًا وينحسر وستعود الشمس لتحرق هذه الكيانات.

نظر كُلّ من كريم وإلياس إلى أنس نظرة ذعر وقال كريم وهو يرتعش كورقةٍ في مهب الريح:

- كيف سنعود مرة أخرى؟ لا بد أن طريق العودة مليء بالعقبات.. كما أنّه لا شك في أن هذه المخلوقات تحمي البوابة التي تأتي منها. لا يمكننا العودة هذا خطر! كما أنّ عائلتي تحتاج إليّ.

قبل أن يتحدث أنس سمعوا جميعًا صوت شخص رابع يتحدث قائلاً:

- صديقك على حق. العودة إلى البوابة هي أشبه بمقامرة خاسرة.

التفوا جميعًا في فزع ونظروا إلى مصدر الصوت، فوجدوا شخصًا يرتدي سترة سوداء وقبعة سوداء طويلة كالطربوش، وكانت ملابسه تُشبه ملابس الإنجليز في العصر الفيكتوري. خرج من بين الظلام، ومعطفه يتطاير وسط موجات الهواء العاتية، فركزوا أنوار الكشافات ناحيته حتى اتضحت ملامحه فوجدوه "مهند"!

فغر فاه كريم ولم يصدق أنّ مُهند على قيد الحياة، فتقدم إليه والابتسامة على محياه وهو يقول وقلبه يرقص طربًا وفرحًا:

- مهند يا رفيق الدرب إنك على قيد الحياة! أين كنت كل هذا الوقت؟ وكيف نجوت من هذا الجحيم وعثرت علينا؟

ابتسم مُهند ابتسامة غريبة وكانت عيناه سوداء كبحرٍ لُجي في ظلمات الليل. تراجع كريم في خوف وأوجس منه خيفة، فقال مهند بصوتٍ متعدد الطبقات وكأن عدة أشخاص يتحدثون في آن الوقت:

- لا تخف مني. أنا لن أقتلكم وإنما سأحرركم لتروا الحقيقة.

رفع إلياس مسدسه عليه وقطب حاجبيه قائلاً:

- من ماذا ستحررنا؟ من ملابسنا!

قالها ساخرًا فهز أنس رأسه غير مُصدق أنهُ يمزح في هذا الوقت الصعب. رفع مُهند يده في الهواء وكأنهُ أبًا يريد أن يحتضن ابنه الذي يركض عليه ليرتمي في أحضانه، وبعدها قال بحماسة لا تنفك تتأجج:

- سأحرركم من خطاياكم. ألا ترون أن العالم يحتاج إلى تطهير؟ وهنا يأتي دورنا نحن لنطهره.

تدخل أنس قائلًا ووجهه ينقبض بتشنجات خفيفة من البرد القارص الذي ينخر عظامه:

- من تقصد بقولك نحن؟

تقدم مهند خطوات قليلة فأمسك إلياس بمسدسه بإحكام واستعد ليرديه قتيلاً ولكن كريم أشار له بأن يتوقف. تحدث مهند بعدة أصوات قائلاً وهو ينظر إلى السماء:

- نحنُ أعظم من أن تستوعب عقولكم. كلنا جزء من العظيم وكلنا واحد. لقد رأيت الحقيقة وسط الظلام. الظلام يجعلك ترى كلّ شيء بوضوح. ألا ترون أنّ الظلام يزيل كل الزخارف والبهرجة والأقنعة التي تحيط بالحقيقة! فقط في الظلام تستطيع أن تُبصر الأشياء على طبيعتها الحقيقية. أما النور فهو يغطي ويغشي الحقيقة بجماله حتى أنكَ لا تُبصرها وهي أمام عينك. نحن لا نرى النجوم إلا في الليل، ولولا الظلام لما علمنا بوجود الكون من حولنا.

خرج إلياس عن طوره وزأر بصوتٍ أجش قائلاً:

- لا وقت لهذا الهراء الفلسفي. فلتخبرني بما تعلمه وإلا سأفجر رأسك.. هل يعلم أحدكم من هذا الأحمق؟

رد عليه كريم بأسى وهو يتفرس في مُهند بانتباه وخشية:

- إنهُ رفيق طفولتي وهو رجل أعمال كبير مهتم بالتكنولوجيا، ويُصادف أنهُ مؤسسٍ المؤسسة البحثية التي تسببت في فتح هذه البوابة التي أحالت المدينة خرابا.

ضغط إلياس على أسنانه بضيقٍ واضح وأظلمت أفكاره وصوب ناحية رأس مهند وأطلق رصاصة وهو يصرخ قائلاً:

- إذن هذا هو الأحمق الذي تسبب في قتل كل رجالي وحطم مدينتي الجميلة؟!

اصطدمت الرصاصة برأس مهند فتراجع بجسده ورأسه إلى الخلف حتى كادت رأسه تلمس ظهره وظل هكذا بضعة ثوان - بينما صرخ كريم في إلياس وسحب المسدس من يده وهو يدفعه بغضب - وبعدها

عادت رأسه مرة أخرى لوضعها الطبيعي وخرجت الطلقة من رأسه وسقطت على الأرض وسط دهشة أنس الذي كان يُشاهد الموقف وصاح فيهما أن انتبها، فتركا العراك بينهما ونظرا إلى مهند بدهشة وشذرات أفكارهما تتصادم وتتدافع في غير تصديق، فأكمل مُهند يقول بنفس صوته المَهيب وكأن شيئاً لم يحدث:

- إن العالم يتطهر من الرجس الذي ملأه استعداداً لقدوم العظيم. انضموا لنا وسنعفو عنكم وسنباركم برؤية حقيقة العالم!

صرخ إلياس بحنقٍ وقد خرج عن طوره قائلاً:

- لا أريد أن تباركني هذه الأشياء اللعينة. أخبرني الآن حقيقة ما يحدث وإلا فالطلقة القادمة لن تخطئ رأسك.

أقترب كريم منه ببطءٍ وحذرٍ وحواسه مشحوذة شحذاً وقال بنبرة هادئة لطيفة:

- مهند ما الذي حدث لكَ؟ لماذا تبدوا وكأنك واحدٌ منهم؟

نظر إليه مهند والظلام يملأ أعينه بالكامل ووجهه بارد كمن مات وعاد إلى الحياة:

- أنا لستُ واحدٌ منهم. أنا جزء منهم. كلنا كيانٌ واحد لا ينفصل. أنا من سمح لهم بالقدوم لتطهير عالمنا. عندما جاءوا أول مرة ليستكشفوا عالمنا جاء إليّ أحدهم وبعث ليّ برسالة بأنهُ قد تم اختياري مِن قبل العظيم بنفسه، وأن عليّ أن أطيع وأخضع. خفت في البداية وأصابني الهلع والاكتئاب ولكن سرعان ما اختفت الرياح والظلام معها، وفي الليالي التالية بدأت تأتيني الأحلام والرسائل منه! لقد أوحى إليّ بكلّ شيء

وأراني الحقيقة، وأشهدني عمّا سيفعله وما يرغب فيه. أراني العالم الذي سيبنيه وعلمني ما لم أكن أعلم. قال لي أنه اختارني ووضع بصمته على بعض الأرواح المُميزة التي يرغب بها، وطلب مني أن أجمع هذه الأرواح، وأن أساعده في فتح البوابة حتى يتسنى للعالم أن يشاهد ويتبارك بقدومه. كلّ ما فعلته هي أنني استخدمت أموالي الكثيرة لصنع أكبر مؤسسة بحثية وتحفيز العلماء بالمادة اللازمة لتنفيذ التجربة وفتح البوابة، وجهزت كلّ شيء لضمان ألا تغلق البوابة أبدًا إلا عندما أريد ذلك، ولهذا عندما أرادوا تفجير السيارة التي تحمل سلاحًا نوويًا قمت بتعطيلها وبتعطيل البوابة فلم يستطيعوا أن يغلقوها.

استبد بكريم خور عظيم ولم يصدق ما يسمعه، فكيف يمكن لرفيق طفولته طيب القلب أن يفعل كل هذه الأفعال الكريهة ويتسبب بإزهاق كل هذه الأرواح؟! تذكر كذلك كلامه عندما أخبره بأن هذا الشيء قد وضع بصمته على روحه وأنه اختاره، ولم يفهم ما يقصد ولكن ظلت تراوده الكثير من الكوابيس التي شعر فيها أن شيئاً يحدثه ويهمس له إلا أنه لم يستجب لها ولم يضعها في الحسبان وتجاهلها، ولكن يبدوا أن مهند لم يفعل! قال أنس والحزن يكاد يقطع نياط قلبه:

- ولماذا فعلت كلّ هذا؟ هل ما تراه يرضيك الآن؟ لقد تحول العالم إلى جحيم مستعر. ألا لعنة الله عليك يا حقير.

- كلّ ما فعلته هو لتطهير العالم. ألا ترى أن العالم يحتاج إلى تطهير؟

- وهل تسمي هذا الرعب الكوني والمعاناة الرهيبة بالتطهير؟ إنها لعنة حلت علينا جميعاً بسبب غباءك. أتصدق قول كائن جاء من عالم آخر لاحتلال عالمنا يا مغفل؟

- نعم أصدقه لأنني جزءٌ منه وأشعر به ويشعر بي. يرى من عيني وأرى من عينه. أقرأ أفكاره ويقرأ أفكاري. إنه ما يحتاجه عالمنا الكريه.

ضغط إلياس على قبضته وأمسك نفسه من أن ينهال عليه ضرباً بصعوبة، وتدخل ليقطع حبل حديثهم قائلاً وهو يزمجر كأسدٍ مُصاب:

- أخبرنا كيف نُغلق هذه البوابة اللعينة حالاً وسأعفو عمّا فعلته وسيظل سرك القذر معي.

نظر له مهند وظهر على وجهه شبح ابتسامة باردة وهو يقول:

- فات الأوان. لا زال اختيارهُ لكَ من بين كلّ الناس يحيرني بعض الشيء. ربما أحتاج إلى الكثير من السنوات لأفهم حكمته ونظرته للعوالم.

- يختارني أنا؟ ماذا تقصد بهذا؟

- ألا تتذكر أن كيانات الظلام لم تمسك بسوء رغم أنكَ كنت بين قبضتهم؟

تغيرت ملامح إلياس وضربته الأسئلة الوجودية ولم يفقه ما يقصد، فقال بلهجة أخف حدة وأكثر توترًا:

- لا.. أفهم.. شيئاً!

- لقد اختار الكيان الأعظم عدة أرواح لتشهد بناء الكون الجديد. لديه طريقته في الاختيار فهو يرى أرواحكم ويعلم الروح المضيئة من الروح المُظلمة. كلّ من مات اليوم يستحق ما حدث له. الأرواح المُظلمة فريسة سهلة لجحافل الظلام.. أما الأرواح النقية فهي مُحرمة عليهم. إن العالم يتطهر من الأرواح المُظلمة.. ألا ترون ما كان عليه البشر؟ لقد زاد الطغيان والظلم. لقد تحول البشر إلى كائنات بشعةٍ مشوهة مليئة بالظلام العميق..

ازداد العلم وازداد معهُ طغيان الإنسان وغروره وانغماسه في الملذات على حساب أخيه الإنسان. لقد أصبح الإنسان ذئبًا لأخيه الإنسان كما قال الفيلسوف هوبز. ألا ترى العالم من حولك؟ ألا تبصر مشاكله الجمة التي لا حل لها إلا بأن يتحطم العالم بكل أنظمته السياسية والاقتصادية والفكرية.. لقد أصبح نصف العالم تحت خط الفقر بينما ينعم قلة لا تتعدى المئة بمعظم ثروات وأموال العالم، بينما يقبع البقية بين أكوام قمامة هؤلاء الأغنياء ليحصلوا على أيّ بقايا طعام تسد رمق جوعهم.. في عصر مليء بآلاف السلع الاستهلاكية من أطعمة وملبس وتكنولوجيات.. ترى هذه السلع في يد قلة ينفقون الآلاف على عشرات المُنتجات التافهة التي لا فائدة منها بينما ينظرون باشمئزاز إلى اخوتهم البشر بملابسهم الرثة وبطونهم الجائعة وأعينهم الحاسدة وهم يلوكون آخر قطعة طعام مُعلب ردئ النفع والفائدة في فمهم.. ترى الشركات تستنفذ طاقة الكوكب ومن يعملون تحت أيديهم ويحلبونهم حتى يكسبوا أكبر قدر ممكن من الأموال ولو على حساب الطبيعة التي حطموها بالجشع الكامن في قلوبهم، ولوثوها بعشقهم للأموال.. فيروسات تملأ العالم وتطارد البشر في كل اتجاه لتقضي عليهم ولا ملجأ منها، ودول قومية أقامت الحدود بينها على أساس عنصري وهو الأسبقية بالحق في العيش لمن ولد في هذا البلد أو تلك.. أصبح العالم مُغلق عليك.. إن كنت فقيرًا فلن تستطيع أن تسافر إلا بعد أن تذل من كلّ خسيس، وسينظرون إليك على أنك أجنبي حقير لا يستحق جنسية البلد. لقد تفرق العالم ببعض الخطوط الحمقاء إلى عشرات الدول والأجناس وأصبح البشر يكنون البغضاء لبعضهم بسببها وضاقت الأرض بما رحبت.. انتشرت الحروب والمجاعات في عصر العلم، وأصبحت الأسلحة الحديثة تستعمل في التدمير والتخريب والظلم والطغيان.. أصبحت أرواح الناس

تجارة في اقتصاد الحرب الذي يبيع الأسلحة لمن يشتري ولو كان على حساب الكثير من الأبرياء الذين سيقتلون بهذه الأسلحة.. حروب عبثية ونفاق وسعي حميم إلى القوة وتدنٍ في الأخلاق والرحمة، وتزايد في الطغيان والتعاقدية.. لقد أصبح الكلّ يعتدي على الكلّ وأصبح الظلم هو سمة عصر العلم وعصر الحداثة، وقد آن الأوان لتطهير هذا الرجس للأبد.

علموا أن ما يقوله حق بل وهناك أسوأ مما ذكره وزيادة ولكنهم يعلمون، لقد تحول العالم إلى غابة بشعة وإلى قفص حديدي يحتجز سكانه داخله حسب تعبير "ماكس فيبر" ولا مخرج منه إلا بتحطيمه وبناءه من جديد بطريقة تختلف عمّا بناه عليه الرجل الأبيض، لأن هذا الرجل لن يترك أحد يحطم مصالحه وسيحارب بكل ما أوتي من قوة بأسلحته الفتاكة حتى يحطم هو العالم أولاً، ولهذا فلا طريق لإصلاح العالم بالسلم ويجب أن يخوض البشر الكثير من التضحيات من أجل تغيير العالم الذي تركوه حتى وصل إلى هذه المرحلة. تدخل كريم وهو يحسب كلامه جيداً ثمّ قال في محاولة لقلب كلامه عليه:

- وهل إذا أصاب المريض مرض خطير نطهره بأن نقضي عليه ونقتله؟! إن ما تفعله أنتَ وكيانك هو قتل كلّ البشر وإزهاق ملايين الأرواح! أتقومون بدور الله على الأرض؟! هو أدرى بعباده وهو يعلم كيف يصلح عالمه عبر كلّ إنسان نقي القلب لا يرضى بما يحدث، ودفع الناس بعضهم لبعض هو ما يُصلح العالم دائمًا وليس إبادتهم بالكامل!

- نحن لم نزهق أي أرواح، إنما طهرناها.. لم يمت أحد اليوم، أنت لا تعلم طريقة عمل الكيان الأعظم. القتل هو للكائنات المادية كالبشر أما نحن فنقوم بما هو أفضل.

تدخل إلياس ووجهه يرتسم عليه كلّ إمارات الغضب وضيق الصبر:

- إذن ماذا عن كلّ هذه الجثث الذابلة من حولنا؟ هل هي أوهام؟!

- لا ولكن هذه الأجساد ليست غير القشرة الخارجية للإنسان، ما بداخله هو الجوهر وهو ما يهبه الحياة.. هذه الأجساد ليست إلا حاوية تحتوي الجسد الحقيقي بداخلها. "الروح". هذه الروح تتأثر بما يفعله الجسد المادي، تتفاعل مع تصرفاتك ويتغير شكلها مع كل فعلٍ جيد أو سيء تفعله، تؤثر على أفكارك ومشاعرك وتشكلهما بحسب ما تمليه عليك أفعالك.

أخرج مهند من يده اليُمنى شيئاً شفافًا كالهلام يهتز ويتذبذب باستمرار ولكن لا هيئة مُحددة له. نظر إلى هذا الجسد وهو يتأمله ثمّ أكمل حديثه الفلسفي قائلاً:

- هذه قطعة من الروح في حالتها الطبيعية، إن أضفنا إليها أفعال صاحبها الشنيعة فإنها تتغير.

غشى الظلام الروح تدريجيًا حتى تلوث معظمها به ولم يبقى إلا القليل لم يتلوث. أكمل مهند حديثه قائلاً كأستاذ فيزيائي يشرح نظريته بأدلة تجريبية نظرية:

- أما إذا ازدادت أعماله العظيمة الخيرة فإن هذا ما يحدث.

انزاح الظلام تدريجيًا وأضاءت الروح بنورٍ ذهبي براق ومدهش وباهر الجمال. انسحبت الروح داخل يد مهند مرة أخرى وأصبحت جزءًا من كيانه، فعدل مهند من قبعته وشرع يشرح قائلاً:

- أما نحن فلا نصطاد إلا الأرواح المُظلمة الكريهة. نحن لا نبيدُ البشر ونقتلهم لأن أرواحهم بحوزتنا لم تمت بعد. إنما نطهرهم لخلق عالم نقي..

كلّ ما تفعله مخلوقات الظلام هي أنها تسحب أرواح البشر وتبتلعها وبعد أن ينتهوا من حصد كل أرواح البشر حولِ العالم سيعودون إلى سيدي ويندمجون داخله حتى يصيروا كيانًا واحدًا، فهم من صنعه وكلهم قد انبثقوا منه وصنعوا بيده وقدرته العظيمة.

قال أنس والجنون يكاد يمسه من كل هذه الأفكار التي تنفي وتقضي على نظرته المادية البسيطة للحياة:

- وأين تذهب هذه الأرواح إذن؟ وكيف ستعود إلى أجسادها بعد أن تطهر؟!

- ستعلم إلى أين ستذهب فأنتَ ستذهب معهم.. أما كيفية العودة فستكون بهيئة جديدة أكثر تطهراً ونقاءً.

- سأذهب معهم ماذا تقصد بهذا؟ وماذا تعني بهيئة جديدة؟!

- أنتَ تعلم جيدًا أنكَ من الأرواح المُظلمة. كلّ إنسان يعلم ما توسوس به نفسه وما يخفيه عن أعين الناس ولو حاول التظاهر وتجميل أفعاله برداء التحضر والعلم.. أنت تعلم جيدًا استغلالك للنساء مقابل المال وخيانتك لزوجتك وأطفالك، وتفقه جيدًا ما أكلته وأخذته من أموال الناس بمشاريعك المموهة التي سرقت بها وأكلت بها ما لا يحق لكَ وأذيت الكثير بأخذك أموالهم.

فزِع أنس مما سمعه وتعجب كيف أمكنه معرفة أكثر أسراره المُظلمة وأعمقها. لا يعلم أحدٌ أبدًا بما قدمت يداه وبصنيعه المقزز الذي أدمنه حتى أصبح تركه أصعب من ترك التدخين. نظر كُلّ من كريم وإلياس إلى أنس الذي تفصد العرق من جبينه رغم الهواء البارد، وشعر كريم بصدمةٍ

أصابته عندما علم صنيع رفيقه وأدرك أنه لن ينجوا بهذه الطريقة، فتدخل كريم في محاولة للفت انتباه مهند بعيدًا عن أنس وقال متسائلاً وقلبه يؤلمه من كل هذه الصدمات المتتالية:

- وكيف تعلم كل هذا عنه؟ هل تقرأ الأفكار؟

- لا أقرأ الأفكار إنما أرى أرواحكم جميعًا ولا أرى أجسادكم. أنظر إلى قلوبكم لا إلى صوركم. أرى النور الساطع منها والظلام المتجلي. وكذلك يبصركم كلّ كائن مُظلم يسير على الأرض. والروح المُظلمة تنبع منها ذكرياتها وأستطيع أن أبصر من خلالها كلّ فعلٍ بشع قامت به النفس، وما الدافع الذي حركها لذلك.

وضع كريم يده على وجهه بإحباط ولم يعلم كيف يخرج من هذا المأزق! وما الحل في هذا الظلام الذي يحيط بعالمه؟ وكيف يقنع مهند بأن يترك ما يفعله ويرى عواقبه البشعة! تنهد وهو يشير بإصبعه إلى مهند ملقيًا عليه اللوم:

- أعلم أنكَ مُحبط من الواقع فقد حاولت تغييره بمالك وأفكارك، وحاولت أن تصنع عصرًا حديثًا أكثر أخلاقية ورحمة.. لقد ظللت طوال حياتك تجمع المال وتسهر الليالي وتقاوم الإحباط حتى تحقق حلمك بخلق عالم أفضل، ولكنك اصطدمت بصخرة الواقع القاسية وجشع الشركات الرأس مالية التي أحبطت كل أفكارك. كلما أردت تقديم العلم لعالمنا واجهك من لا يريدون للعالم أن يتغير لأنه ليس في مصلحتهم، ولكن هل سبب فشلك يجعلك تحطم العالم؟ هل استسلمت بهذه السهولة وقتلت الجميع من أجل أن تُغير العالم؟ إذن فأنت روحك مُظلمة كذلك ويجب أن تعاقب.

ابتسم مُهند لأول مرة منذ وقوفه أمامهم وقال بصوته الذي يشبه صوت عدة أشخاص يتكلمون في نفس الوقت:

- أنتَ من أكثر الأرواح الساطعة والمضيئة التي رأيتها يا كريم، ولكنّ محاولتك للتلاعب بالكلام والتلاعب بعقلي لتشعرني بالذنب سيؤول إلى الفشل. أنتَ لا ترى ما أرى ولا تعلم ما أعلم. إحباطي من العالم لم يجعلني أرغب في تدميره والتسبب بالمعاناة لأحد. ولكن عندما جاءت العاصفة واختارني العظيم لمهمته في تطهير العوالم اقنعتني نظرته الكونية ورأيت أنها السبيل إلى عالمٍ أعظم بكثير. لن يتغير العالم أبدًا إلا بهذه الطريقة. والآن لقد حان الوقت.

صوب إلياس مسدسه على مُهند وانهال عليه بوابلٍ من الرصاص في كل أنحاء جسده ولكن مُهند وقف وتلقى الرصاصات بهدوء ولم يُصاب بأيّ سوء. هز رأسه بإحباطٍ وألقى نظرة ثاقبة إلى روح إلياس وقال بضيقٍ وتأفف ووجوم:

- لا زلت لا أعلم كيف لا زالت روحك مُضيئة! والآن أصمتوا فالعظيم قد شارف على القدوم بنفسه، فالموكب الذي سبق أن رأيتموه كان مقدمة لمجيئه.. لن يترك أيّ روح مُظلمة واحدة تهرب من يده.

نظر إلى أنس الذي ارتعد جسده وأثلج وأظلم وتمنى أنّه مات قبل هذا، وقال:

- وستنال شرف أن ينتزع روحك بنفسهِ.

***

الفصل السادس عشر

ضياءٌ بين الظلام

استيقظت سارة من نومها في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ أيّ أحد ورأت خديجة نائمة وطفلاها بين أحضانها فابتسمت لبراءتهما. قامت من مكانها وهي تتثاءب بكسلٍ وتتمطى وتشد عضلاتها المتيبسة من النومِ في هذا الوضع السيء. قطعتَ منطقة نوم النساء وتوجهت إلى رفوف المول الكبيرة والواسعة وبدأت تجمع بعض الأطعمة والعصائر لها ولخديجة والأطفال، وتوجهت ناحية البوابة لترى إن كانت الشمس قد عادت، ولكنها وجدت الظلام يسخر منها ويخبرها أنهُ لن يُغادر أبدًا. عادت مُحبطة وأطرقت براسها واجمة مُفكرة في طريقة للخروج من هنا، وفي هذه اللحظة انتبهت لأحد الرجال يسير بطريقة غريبة ويتوجه نحو البوابة، فاستوقفها الموقف وتابعته بعينها وقد أصابتها سهام الحيرة وخدرتها لثواني معدودة، ثمّ أفاقت وتوجهت ناحيته وهي تسأله قائلة:

- إلى أين تذهب؟

لم يلتف الرجل وأكمل مسيره حتى وصل إلى البوابة وضغط على الزر وفتحها فدخلت الرياح تهدر وتضرب جسد سارة التي شعرت أنها ورقة في الخريف في طور السقوط. صرخت سارة من كلّ قلبها بذعرٍ:

- ماذا تفعل يا مجنون؟

التف لها فشهقت سارة عندما رأت عيناه يغطيها السواد بالكاملِ، والعروق الزرقاء تبرز في وجهه وكأنه جثة مجمدة تتحرك. أدركت جيدا كُنه ما يحدث وركضت بأقصى سرعتها والظلام يدخل إلى المول ويُغطي الأرض والسقف ومعهما الرجل الذي وقف يشعر بنشوة النصر تدريجيًا وبسرعة كبيرة، فركضت سارة تُسابق الظلام والزمن وهي تصيح صيحة أرجفت معها كلّ القلوب وأيقظت الناس من نومهم كالسكارى:

- اهربووووووا.

توجهت سارةٍ إلى خديجة بسرعة لتأخذها معها فرأتها تتشنج وتصرخ وكأنها تلد طفلاً، وطفليها يهزان جسدها ودموعهما تنهمر والخوف يسقي ملامحهما البريئة. وقفت سارة أمام خديجة ورأت الناس من حولها يركضونٍ ويصرخون والظلام يحيط بالمول من كلّ اتجاه والأنوار تنطفأ تدريجيًا، فأيقنت أن الرجل الذي فتح الباب قد أغلق لوحة الكهرباء ليُسهل انتشار الظلام. هزت سارة خديجة التي كانت تصرخ وتتلوى وترتفع بجسدها إلى الأعلى وتتشنج، فوقفت سارةٍ متحيرة هلٍ تهرب بالأطفال وتتركها أم تنتظر إلى أن تفوق ولكنهم قد يُقتلون جميعًا في هذه الأثناء. أفاقت خديجة على حين غرة وأمسكت بتلابيب ثياب سيارة وهي تنظر في عينيها بجحوظٍ ورعبٍ عارم وقالت وهي تلهث والعرق يملأ جسدها مع رعدة قصيرة متقطعة:

- إنه قادم.. إنه على وشك الدخول إلى عالمنا.. زوجي. لقد اختار زوجي من أجل عالمه!

لم تفهم سارة ما قالته ولكنها علمت أنهُ شيء سيء. أوقفتها سارة على قدمها وأخبرتها أن عليهم أن يهربوا. بدأوا يركضون وقد أحاطهم الظلام من فوقهم ومن تحتهم وأصبحت الرؤية متعسرة. فتحت سارة كشاف هاتفها وأضاءت لهم الطريق ومروا عبر الممرات المليئة بالمنتجات الكثيرة. رأوا الناس يفرون بين الممرات في كلّ اتجاه، وفجأة رأوا أمامهم شيءٍ ينقض على أحد الرجال وهو يصرخ تحت قبضته، فاتسعت أعينهم خوفًا وغيروا اتجاههم عبر ممر آخر، وأبصروا المخلوقات تنقض على الناس وسمعوا صراخهم يدوي في آذانهم فاختبئوا خلف الرفوف ينتظرون الفرصة المناسبة وبعدها يركضون بسرعة وهذه الأشياء تعوي وتصرخ من حولهم ويختلط صراخها بصراخ البشر المذعورين. رأوا في طريقهم سيدة تجلس على الأرض وترتعد وهي تضم ركبتيها إلى وجهها وتبكي منتظرة مصيرها البائس.

لم يستطيعوا أن يساعدوها وركضوا اتجاه البوابة الخلفية ووجدوها مفتوحة بالفعل وبعض الناس يهربون من خلالها.

توجهوا وراءهم وخرجوا إلى البرد القارص ورأوا الظلام والرياح تُغطي كلّ الموجودات حتى أحسوا أنّهم لا يعلمون إلى أين عليهم أن يتوجهوا. وبعد تردد دام للحظات توجهوا إلى الأمام يعتمدون على حدسهم وعلى ذاكرتهم التي تعرف الطريق جيدًا إذ مروا من خلاله مئات المرات من قبل. قالت سارة وهي تركض بنبرة مرتجفة:

- إن أكملنا الركض إلى الأمام فسنصل إلى سيارتي وهي قريبة من الطريق الذي يؤدي إلى مدينة السادس من أكتوبر. ربما لم يصل إليها الظلام بعد.

ركضوا قليلاً بين الظلام يتحسسون طريقهم وبعدها خرجوا من أسوار المول وأصبحوا أمام طريق المحور. أخرجت سارة مفتاح السيارة من حقيبتها وضغطت على زر فتح الأقفال فأضاءت السيارة وأصدرت صوت الكتروني أعلمها بمكانها فركضوا ناحية السيارة والأمل يتجدد في قلوبهم للهرب من هذه المدينة الملعونة.

وصلوا إلى السيارة بعد إرهاق وتوتر ففتحتها سارة وألقوا بأجسادهم المُنهكة داخلها وقد تقطعت أنفاسهم وقلوبهم تنبض بعنفٍ عارم كطبول الحرب. جلست سارة تلتقط أنفاسها ووضعت المفتاح في السيارة وشغلتها وأرادت أن تتحرك ولكن أقدامها كانت ترتعش فلم تستطع أن تضغط على دواسة البنزين. نهرتها خديجة وهي تلهث قائلة:

- عليكِ أن تتحركي قبل أن تأتي هذه الأشياء وتقضي علينا.

نظرت لها بعينٍ ضعيفة هشة وقالت وشفتاها ترتجفان:

- وماذا لو نبهتهم السيارة بوجودنا؟!

- وماذا سنفعل بجلوسنا هنا؟ علينا أن نتحرك فهذا أملنا الوحيد.. البقاء هنا خطأ فادح، والتحرك فيه بعض الخطر ولكنه أملنا الوحيد!

- يا إلهي لم أعد أعلم ما عليّ فعله.. فلنتحرك إذن ولندعو الله أن يحفظنا.

قررت أن تتحرك ولكن لفت انتباهها صوت غريب يصدر من داخل مدينة الشيخ زايد.

ركزوا انتباههم وخافوا أنّ يكون أحد هذه الكيانات، ولكن عندما أصاخوا السمع سمعوا صوت بوق سيارة تقترب! سيارة نقل ضخمة!

في داخل الشيخ زايد توجهت سيارة نقل ضخمة ناحية بوابة الخروج من المدينة وهي تضرب الأبواق ويقف فوقها عدة رجال يمسكون بكشافات ضخمة يوجهونها في كلّ اتجاه، والسيارة يُحيط بها عدة مصابيح وألواح مضيئة وكأنها مصباح عملاق متحرك يضيء كلّ ما حوله، وينقشع الظلام ويركع تحت يديه. فالنور دائمًا ما يغشى الظلام. وفي مقدمة السيارة جلس الشيخ عامر بجانب السائق وهو يوجهه ويعطيه التعليمات، بينما يجلس النساء داخل حاوية الشاحنة الكبيرة مع بعض الأطفال والرجال، وتطوع البعض في حمل الكشافات الضخمة وتوجيهها ناحية أيّ شيء يتحرك لإحراقه أو منعه من الاقتراب.

بعد التجربة الناجحة التي قام بها الشيخ عامر ومن معه، علموا أنّ الوقت قد أزف للهروب وأن المحول الكهربائي لن يصمد طويلًا وسرعان ما سيحل الظلام على المسجد وينفد طعامهم وماءهم، ومن حسن الحظ أن الشيخ عامر الذي عمل كمهندس كهرباء كان يستخدم أحد الغرف الجانبية في الجامع ليُسلي وقته بصنع المصابيح التي تعمل بالطاقة الشمسية والتي كانت مشحونة قبل أن يعمّ الظلام. وجمع أيضًا بعض الكشافات الكبيرة التي تخص الجامع، وسأل الرجال عن إن كان أحدهم يمتلك سيارة كبيرة لتحمل هذا العدد فكان من حسن حظه أن أحدهم كان يملك سيارة نقل كبيرة لنقل البضائع. جمعوا بعضهم البعض والكشافات معهم، وتوجهوا للخارج وهم يحمون أنفسهم ويؤمنون ظهورهم بخطة مُحكمة دقيقة استلهمها الشيخ عامر من معركة القسطنطينية العظيمة بين محمد الفاتح وقسطنطين الحادي عشر. كانت الخطة ببساطة تطلب أن

ينقسم الناس إلى مجموعات صغيرة متقاربة. الرجال يتقدمون وهم يمسكون الكشافات كالدروع الحربية ويوجهونها أمامهم وهم يتحركون بخطواتٍ مُنتظمة تدربوا عليها داخل الجامع لفترة، وفي الخلف تقف مجموعة أخرى تؤمن ظهورهم بكشافاتٍ وألواح ضوئية شبيهة، وعن اليمين واليسار مجموعة صغيرة لتأمين الجوانب، وفي المنتصف النساء والأطفال والعجزة يحملون باقي المصابيح والألواح ويحتمون وسط الرجال الذين أحاطوهم في دائرة. أحاطتهم الكيانات وحاولت الاقتراب منهم، ولكنهم بثباتٍ صمدوا ولم يتزعزعوا لأنهم يعلمون أن ثغرة بسيطة أو حركة خاطئة ستقضي عليهم جميعاً. وقفت الكيانات البشعة تعوي بالعشرات وتقف على أعتاب الضوء مُنتظرة ثغرة لتنسل منها، ولكنّ الضوء حرمهم فرصة الانقضاض على هذه الفرائس السهلة والكثيرة.

بعد فترة من الكفاح والخوف والتوتر وصلوا إلى السيارة وأحاطوها بالألواح ووضعوا الكشافات الكبيرة فوقها وربطوها بالحبال وصعد بعض الشباب لتثبيتها والتحكم بها، ولفوا أنفسهم بالحبال حتى لا يسقطوا، وأما بقية الناس فقد دخلوا إلى الشاحنة بعد أن تحولت إلى جوهرة مضيئة في سكون الليل وعتمته.

انطلقت الشاحنة تشق طريقها ناحية مول هايبر الذي يقع على أعتاب المدينة والذي كانت خديجة تختبأ فيه، ومن وراءها تطاردها الكيانات وهي تعوي وتصرخ بأصواتٍ جعلت الناس مُهطعين مُقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء. مخلوقات تركض كالذئاب على أربعة أقدام ومنها من يركض على قدمين، ورأوا شيئاً طويلاً وضخماً يزحف كالثعبان عن يمينهم فيدخل تحت الأرض ثمّ يخرج وكأنه يَسبح فيها ففزعوا أن يقترب منهم هذا الشيء الضخم. وكانت كلما حاولت أحد

الكيانات أن تقترب، يوجه الشباب الكشافات ويركزونها عليها حتى تؤذيهم فيبتعدوا عن الشاحنة. ورأى عصام الذي كان يقف فوق الشاحنة عددًا من الأشياء الطائرة التي تُشبه الخفافيش الضخمة ومن خلفها يركض شيء يُشبه الحصان وفوقه كيان غريب وكأنه فارس من العصور الوسطى، ولكن بتيمة كونية مرعبة!

طلب عصام من كلّ من معه أن يركزوا الأضواء على هذه الأشياء الطائرة والكائن الغريب من خلفهم؛ فوجهوا الأضواء بدورهم ناحيتها فانكمشت الكيانات الطائرة وتراجعت بينما استمر الكائن فوق حصانه الأسود الهجين العجيب يركض يمينًا ويسارًا متجنبًا أضواءهم وخيله الأسود يصهل بصوت كألف صهيل. وبعدها رفع الكيان يده وقذف بشيء أسود حاد يُشبه الرمح فاصطدم بأحد الكشافات ففزع الرجال، وتوجه عصام بسرعة إلى المقدمة وصرخ للقائد أن أسرع وإلا فسنهلك، فأخبره أنه لا يرى جيدًا في الظلام ويخاف أن يصطدم بسيارات أو بأي شيء غريب. أخبره الشيخ عامر أن هذه الشاحنة لن تتأثر بالاصطدام بالسيارات ولهذا فليسرع وإلا فستلحق هذه الأشياء بهم، عليهم أن يتوجهوا إلى الخارج ويخبروا الناس بحقيقة ما يحدث وبنقطة ضعف هذه الكيانات قبل أن ينتهي العالم تحت تحكمهم! توجه الثعبان الغريب ناحيتهم يهز الأرض من حوله هزًا ويزيح كل السيارات أمامه وكأنها سيارات من ورق، فضغط السائق على الدواسة لأقصى سرعة فاندفعت السيارة بجنون وتمسك الناس بخوف بكلّ ما تصل إليه قبضتهم. وجدوا بعض السيارات المهجورة أمامهم تسد الطريق فصدمتها الشاحنة ودفعتها بعيدًا وأكملت طريقها، ولكن اصطدامها تسبب في سقوط أحد الرجال من فوق الشاحنة لتنهشه الكيانات نهشًا ليسمع الجميع صراخه واستنجاده.

شعر الشيخ عامر بالخوف ألا يستطيع إنقاذ كلّ هذه الأرواح من هذه الأشياء الكريهة وتنتهي محاولتهم بالفشل، فظل يدعوا الله أن ينجيهم بكلّ ذرة أمل وإيمان لديه.

قطعت السيارة مُعظم الطريق والثعبان وراءها وفجأة وجدوا أمامهم شيئاً يُشبه الإنسان ولكنه ضخم الجثة، فصاح السائق في الشيخ عامر وقطع عليه دعاءه لينتبه لهذا الشيء الذي يقف منتظراً قدومهم وكأنه سيوقف الشاحنة بقبضته. أمره الشيخ العامر بأن يصدمه أو يتجنبه إن استطاع. شعر السائق أن السيارة قد تنقلب إن حاول تجنبه من فرط سرعته ولكنه علم أن الاصطدام به غير معلوم العواقب. فتجنبه بالكاد وضربه في كتفه فشاهده في المرآة وقد تعلق بباب السيارة فتفاجئ وقبل أن يتصرف أمسكه الكيان من رأسه محاولاً سحبه معه، فحاول السائق أن ينفك منه ولكنه لم يستطع فعلم أنها نهايته فقرر أن يأخذ الشيء معه، ففتح الباب بقوة مما جعل الكيان يهتز فسقط وسحب السائق معه، فأصاب الشيخ عامر الفزع ورأى أن السيارة بلا سائق فتحرك بسرعة وأخذ مكانه وأكمل القيادة وعينه تدمع من تضحية هذا الرجل من أجلهم.

رأت سارة ما يحدث فأثار دهشتها فصاحت فيها خديجة بأن تتبع هذه السيارة ليحتموا في ضوئها، فاندفعت بسيارتها وراءهم حتى أصبحت بجانبهم، فوجه الجميع الأضواء ناحية السيارة حتى كادت سارة تنقلب بالسيارة من قوة الضوء على عينيها. فرفعت يدها من السيارة وصرخت فيهم بأن يبعدوا الضوء وصاحت معها خديجة فيهم حتى انتبهوا أنهم بشر مثلهم فأبعدوا الأضواء، وعندما نظر الشيخ عامر في المرآة إلى السيارة رأى خديجة زوجة ابنه وهي تهتف في الناس بأن يتوقفوا فاتسعت عيناه من الفرحة وابتسم وقد علم أنها نجت وتوقع أن يكون كريم معها، فحمد

الله أن أنجى ابنه وزوجته وأطفاله. أشار لخديجة بيده والفرحة تتجلى على وجهه فاندهشت خديجة من رؤيته على قيد الحياة وحيته بيدها بحماسٍ شديد، فأشار لها بأن يتبعوه ويظلوا بجانبه، ولاحظ أن كريم لم يخرج لتحيته فاضطرب قليلاً وظن أنه ربما نائم أو أنهُ لا يراه وسط هذا الظلام، حاول طمئنت نفسه وركز على الطريق، ولاحظ أن الثعبان الكبير توقف عن مطاردتهم فاطمئن قلبه وارتاحت نفسه ورأى أنهم تركوهم يهربون لأنهم يعلمون أن الموت مصيرهم عاجلاً أم آجلاً إن لم يستطع البشر أن يجدوا طريقة لهزيمة هذه الأشياء.

التفوا عند أول مُنعطف وتوجهوا ناحية القاهرة بعيدًا عن الظلام، ولكنهم خافوا أن يكون الظلام قد وصل إلى هناك بالفعل أو وصل إلى العالم كله!

***

الفصل السابع عشر

جيشُ الظلام

تحرك مُهند ناحية البوابة في مقر الأبحاث وأمرهم أن يتبعوه لاستقبال الكيان الأعظم حتى يشهدوا لحظة دخوله وينهالوا من علمه ومعرفته ويفهموا تفسير أفعاله في الأرض. اعترض إلياس والضيق قد استبد به:

- ولماذا علينا أن نتبعك؟! أنا ذاهبٌ من هنا ولا أريد أن أرى هذا الشيء.

- لأنكَ لن تخرج من هنا أبدًا.. أتظن أنكَ ستمشي على أقدامك بدون طعام أو شراب وسط هذا البرد القارص حتى القاهرة؟ إن الظلام ينتشر بسرعة كبيرة وهو الآن في طريقه إلى القاهرة. مهما حاولت أن تسابقه فإن سرعتك وجهدك سيكللون بالفشل. ليس لك أي طريقة للنجاة إلا بأن تخضع لنا. لا تخف فأنتَ من الأرواح المضيئة التي لن يمسها الظلام.. رغم أنكَ ضابط تمتلك سلطات كبيرة ولكنك لم تستعملها في البطش بالناس أو في الرشوة أو تعذيب أحد، أو ظلم أحد، ورغم أنكَ شخصية صعبة المراس ولكنك تملك القوة بيدك ولم تستعملها في الشر وهذا ربما يكون سبب اختيار سيدي لك.

تدخل كريم وقال وفي نفسه ظلمات ما بعدها ظلمات:

- وماذا سيحدث لأنس؟

نظر مُهند إلى أنس الذي وقف يرتعد كالفأر في المصيدة ثمّ رفع يده فخرج الظلام من الأرض وأحاط بأنس فصرخ أنس من الهلع وهو يحاول أن يتملص من هذا الظلام، فقفز كريم وأمسك بأنس وأحاط به وقال لمُهند:

- سآتي معكَ شرط أن تضمن سلامة أنس. هذا وعدٌ مني.

انزاح الظلام مُبتعدًا عن أنس وبعدها قال مُهند بلهجة حادة:

- لا يُهم سيحصد سيدي روحه على أيّ حال عند قدومه.. أنت فقط تأخر مصيره. وبالطبع إن حاول الهرب فسيهلك بلا شك، ولكن لا تخف، فسيدي لن يقتلك إنما سيطهرك من ظلام قلبك.

سقط أنس على الأرض وسعل بقوة إذ أحس أن روحه كادت تخلع من مكانها، وشعر ببرودة عظيمة تضرب روحه وتزعجه للغاية حتى شعر أنه يريد أن ينتزع قلبه من مكانه. شاهد إلياس الموقف بضيق ولم يعلم ما الحل في هذه المعضلة، ولكنه أراد أن يُماطل بعض الشيء حتى تأتي جيوش البشر وتتصرف في هذا الأمر الخطير. سأله إلياس بخبثٍ وحنكة:

- وماذا ستفعل إن كان هذا الكيان يخدعك؟ ألديكَ طريقة لإغلاق البوابة إن قرر أن يخدعك بعد أن يستحوذ على عالمنا بالكامل ويقضي عليه؟

عدل مُهند قبعته وتحرك عائدًا وقد أخرج من يده جهاز تحكم عن بُعد وحركه في الهواء حركة ذات مغزى:

- هذا المفتاح سيُغلق البوابة في أيّ وقتٍ أريده، ولكنه لن يخدعني أبدًا لأنني جزءٌ منه. كما أن هذا المفتاح أيضًا سيفتح بوابة للعوالم الأخرى حتى يطهرها سيدي كذلك.. أنا وهو نتبادل المنفعة من أجل تطهير الأكوان؛ أفتح له البوابات وهو يقوم بباقي العمل عبر الكائنات المُنبثقة من ذاته العُلية العظيمة.

أسند كريم أنس على كتفه وسار به وراء مُهند وهو يقول:

- وماذا سنفعل عندما يأتي؟ أتريدنا أن نسجد له! هذا ما ينقصني.

- هو لا يريد سجودك ولا يُهمه الأمر. إنما يريد أن يطهر الأكوان من الظلام الذي ملأها.

- يريد أن يُطهرها بظلامٍ أكبر من الظلام الذي بداخلها! يا لسخرية القدر.

- لا يفل الحديد إلا الحديد. الظلام هو الذي سيفهم طبيعة الظلام، لا يمكن للنور أبدًا أن يفهم شيئاً مختلفًا عنه كالظلام. فهم كالأعداء يتصارعان منذ الأبد وإلى نهاية الأكوان. أنتَ لا تعلم حجم التضحية العظيمة التي قام بها من أجل أن يطهر الأكوان.

- ولا أظن أنّي أريد أن أعرف بعد الذعر الذي رأيته بأم عيني. العظماء لا يحكمون بالخوف والبطش وهذا شيء دائم الوجود عبر التاريخ وفي كلّ مكانٍ وزمان وهي حقيقة كونية لن تتغير.

- سترى أن هناك استثناء لكلّ قاعدة عندما تقابله بنفسك وتنهال من علمه وتيقن حقيقته وحقيقة أهدافه.

- وما اسم هذا الشيء.

شعر مُهند بالضيق من طريقة حديثه عن سيده، ولكنه كظم غيظه وقال بنبرة تبجيل وتعظيم:

- "نيتو".

- اسمٌ جميلٌ.

قالها كريم بسخرية فانزعج مُهند ولكنه أدرك أن كريم لا يفقه بعد حقيقة ما يحدث وأنهُ سرعان ما سينضم له عندما يرى كل شيءٍ بنفسه.

أكملوا طريقهم في صمتٍ فهمس أنس المُتعب في أذن كريم قائلاً:

- علينا أن نحصل على الريموت منه ونغلق البوابة وإلا فلا نجاة لنا ولعالمنا من هذا الشيء اللعين.

نظر كريم إلى مُهند ليتأكد أنه لا يسمعهم ثمّ قال وقد اعترى ذراعيه ضعف شديد:

- وكيف سنفعل هذا؟ إنه لا يقهر!

- لدي خطة ولكن يجب أن تنفذها بالحرف الواحد وإلا فالهلكة لنا جميعًا.

اومأ كريم برأسه وسمع الخطة بالكامل وقد اعترته رعدة في جسده وشخصت عيناه بخوفٍ وحزنٍ عميق وحاول أن يرفض من أعماق قلبه ولكنّ أنس أوضح لهُ أنها الطريقة الوحيدة.

***

انتشرت الأخبار عن الظلام الذي يتسع تدريجياً وعن موت فرقة الأبحاث التي ذهبت إلى مصر في رحلة لتفسير ظاهرة غريبة أصابت مدينة الشيخ زايد. وانطلقت الأخبار كالهشيم في النار عندما أبيدت أفضل فرق الجيش المصري بالكامل داخل هذا الظلام، ولا زال الجميع يتساءل ما الذي يوجد داخل هذا الظلام، وانتشرت النظريات والقصص المُخيفة وأصبح الترينـد الأول في الحديث على مواقع التواصل الاجتماعي، واستمر الحديث عنه واستمرت التفسيرات والقصص الخيالية، وخرج العلماء يحذرون من هذه الظاهرة الغريبة التي تتفشى تدريجياً وطلبوا من القوى الدولية أن تتدخل. وبعد إلحاح وضغط ومظاهرات كثيرة قررت الدول العظمى أن تشكل قوة مُشتركة للتوجه إلى مصر والتدخل العسكري في هذه الحالة الحرجة. توجهت القوات الإقليمية التي كانت تتناحر من قبل على الحدود الوهمية التي صنعوها بينهم وعلى الأماكن الحيوية التي تمتلئ بالبترول والذهب والموارد الطبيعية، وقرروا أخيراً ولأول مرة في تاريخ البشرية أن يجمعوا قوة متحدة مكونة من مئة ألف جندي وثلاثون ألف طائرة ودبابة ومدرعة، ما بين طائرات مروحية وطائرات نفاثة، واستعملوا الأقمار الصناعية في رصد ومراقبة هذه الظاهرة وتفشيها. توجه الجيش وبعد رحلة طويلة وصلوا إلى طريق المحور الطويل الذي يمر عبر الكثير من المُدن في مصر. رأوا أن الظلام قطع الطريق حتى وصل إلى حدود ميدان لبنان وكاد يقترب من هذه المنطقة المأهولة بالسكان بعد أن قطع كل الأماكن الزراعية وغير المأهولة من مدينة الشيخ زايد إلى هنا. علم الجنود أنهم إن لم يتصرفوا بسرعة ويضعوا حداً لهذا الظلام فسوف يقضي على سكان هذه المنطقة المكتظة. انطلق الجنود يهزون الأرض بأقدامهم وينشدون الأناشيد البطولية بكلّ اللغات ويصورون هذه الحملة

لبث الطمأنينة في قلوب الناس، ويتشاكسون أحيانًا فيما بينهم وبين الجنود من الأجناس الأخرى. وكان معهم بعثة من العلماء في مؤخرة الجيش ليدرسوا هذه الظاهرة من الداخل ويخرجوا بالنتائج النهائية عنها.

وفي أثناء تقدمهم الطويل عبر الطريق الطويل والمُحاط بالحقول الجميلة الخضراء من كلّ جانب والتي امتلأت بالظلام وأصبح يخرج منها الكثير من الأشجار البغيضة والمقززة بلا أوراق، وكأنها شجر الزقوم وطلعها كرؤوس الشياطين. اضطرب الجيش وتقدموا بتوجس وحذر وبدأت أصواتهم تخفت فلا تسمع إلا همسًا. ومن فوقهم كانت المروحيات تضيء الطريق بالكشافات العملاقة والدبابات في الأرض تضيء الطريق أمامهم هي والمدرعات والعربات المُصفحة رباعية الدفع التي تحمل فوقها الكثير من الكشافات، هذا غير خوذ الجنود التي كان فيها كشاف صغير للإضاءة وأجهزة للرؤية الليلية وغيرها الكثير من الكاشفات الحرارية.

تقدم الجنود بخطوات ثابتة وأكملوا طريقهم بين الظلام، وبعد السير لمدة نصف ساعة رأوا شيئاً مُضيئًا يتقدم ناحيتهم فوجهوا أسلحتهم وأشارت الطائرات بالكشافات ناحية هذا الجسم الغريب وطلبوا منه أن يتوقف والا أطلقوا النار فتوقفت سيارة النقل الضخمة المُضيئة، فتقدم الجنود وأحاطوها وأشهروا أسلحتهم فهبط جميع البشر المذعورين من الشاحنة ومعهم الشيخ عامر، توقفت سيارة سارة وهبط منها الجميع، فنظر الشيخ عامر ليطمئن عليهم ولم يجد معهم كريم فأصابه القنوط والحزن. أحاطهم الجنود وطلبوا منهم أن يعرفوا أنفسهم وتقدم أحد الشباب من الجيش المصري ليتواصل معهم ويترجم لباقي الجيوش ما يقولون. تحدث معهم الشيخ عامر وأخبرهم عن الأهوال التي لاقوها وكيف تمكنوا من الهرب والوصول إلى هنا. لم يصدق الجنود ما سمعوه عن هذه الكيانات الغريبة،

ولكن الرعب دب في صدورهم إن كان ما يقوله حقيقي. قال الشيخ عامر بنظرةٍ مخيفة ونبرة مريبة:

- فلتتراجعوا فأنتم لستم ندًا لهم، ولكن إن أردتم التقدم فعليكم باستعمال الضوء فهذه نقطة ضعفهم، أسلحتكم هذه لن تنفعكم ولن تأثر فيهم فهم ليسوا بكائنات مادية تتأثر بالرصاص المادي. بل هم أشبه بالدخان أو الغاز، والرصاص لا سبيل له إليهم، بل إنه يمر من خلالهم ولا يؤثر فيهم، ولكن الضوء يحرق خلاياهم ويمنعهم من التقدم.. أرجوكم ابحثوا عن ابني كريم وأحضروه إن كان حيًا أو ميتًا. هذه صورته.

أخرج الشيخ عامر هاتفه وأراهم صورته فالتقط الجندي صورته ووعده بأن يبحثوا عنه إن استطاعوا. وصلت المعلومات إلى قيادات الجيش عن هذا الرعب الكوني، وظلوا يتناقشون فيه بضعة دقائق ما بين مُصدق ومكذب. ولكنهم تذكروا ما حدث لكتيبة الجيش التي سبقتهم، وعن التفسير العلمي لهذه الظاهرة العجيبة فرأوا أنهم من قلب الحدث وربما يتحدثون بالحقيقة. قرروا أن يُكملوا طريقهم ولديهم ثقة في أن أسلحتهم العظيمة وأعدادهم الكبيرة ستسقط أي كائنٍ كان مهما كانت قوته أو حجمه.

أو هكذا أقنعهم غرورهم وثقتهم بأسلحتهم الحديثة إذ أعجبهم كثرتهم.

جمعوا أنفسهم وتحركوا مرة أخرى وتركوا الشيخ عامر ومن معه يكملون طريقهم إلى القاهرة. ساروا نصف ساعة أخرى فلاحظ الجنود بكشافات أسلحتهم وجود ظلال غريبة على الأرض وبقع سوداء. توقف أحد الجنود وقال بريبة وقد رفع حاجبه الأيمن في اعتراض:

- سيدي ما هذه الظلال الغريبة.. إنها تتميز بهيئة مختلفة عن باقي الظلام من حولنا.. هل نكمل الطريق أم نتوقف؟

قال القائد بسخرية وهو يسحب الدخان من سيجارته:

- أنتَ حرفيًا تخاف من ظلك. أكلموا الطريق.

ضحك الجنود فشعر الجندي بحرج وابتلع ريقه إذ أحمرت وجنتاه وأكمل طريقه، وبمجرد أن وطئوا بأقدامهم على الظلال وتقدموا عدة أمتار امتدت الظلال وارتفعت ككرة كبيرة وأغلقت على عدد كبير منهم كالمصيدة، فصاح الجنود وصرخوا واستنجدوا بحياتهم فأطلق بقية الجنود النار في فزعٍ ووجهت الطائرات الضوء ناحية هذه الكرة الغريبة فبدأ الظلام ينقشع أمام الضوء وانحسر على الجانبين وتلاشى، ولكنّ الجنود بداخلة كانوا كأعجاز نخلٍ خاوية. ماتوا جميعًا في لحظات واُمتصت ارواحهم. اضطرب الجنود وتزعزعت صحتهم النفسية من هذا الشيء المُريب، ولكن الحملة لم تتوقف وأكملت طريقها، وبعد دقيقة مروا من فوق البقع السوداء فخرجت أيدٍ سوداء كأنها قادمة من الجحيم وصارت تتشبث بالجنود وتسحبهم إلى أسفل الأرض فجزعوا وتوسلوا ولم يستطع رفاقهم أن يفعلوا شيئاً حتى توجهت الأضواء إلى هذه الأيدي فانسحبت إلى الأرض واختفت بعد أن حصدت عشرات الأرواح دفعة واحدة.

لهث الجنود وارتعدت فرائصهم من البرد واشتدت الرياح عليهم حتى تعسرت الرؤية وأصبحت الأضواء منكسرة باهتة بين هذه العاصفة العنيدة، وصار من الصعب عليهم أن يبصروا بعضهم البعض أو أن يتواصلوا بعد أن تعطلت كل المعدات الإلكترونية الخاصة بالاتصالات والشبكات. وتشوش الاتصال اللاسلكي فصاروا يتواصلون بالصفير والصياح.

طفق الجنود يتهامسون فيما يحدث وقد أصابهم الارتباك والخوف العميق، وخارت النفوس وبلغت القلوب الحناجر، وبدأوا يتناقشون في

التراجع ويسترجعون كلام الشيخ عامر المخيف عن أنهم لن يستطيعوا أن يهزموا هذه الأشياء وأن الضوء هو سبيلهم الوحيد وهم لا يملكون منه ما يكفيهم. سرت حالة من التمرد بين أعضاء الجيش وأعترض الكثير وشبت المناوشات الكلامية والتعارك اللفظي والكلامي، حتى اضطر أحد القادة لإطلاق النار في الهواء لإعادة الانضباط إلى الجيش. صاح في الجنود يحمسهم ويرفع من أزرهم وعزيمتهم ويخبرهم أن مصير العالم يعتمد عليهم في التصدي لهذه الظاهرة المرعبة. وأنهم إن تراجعوا الآن فقد يصل الظلام إلى بلدانهم بسرعة كبيرة ويحصد ملايين الأرواح، ووعد من يتمرد أو يتراجع بالإعدام الفوري حتى يخيف الجنود، فتقدموا وأرواحهم بين أيديهم.

وبعد السير لدقائق لمحوا شيئاً بين تراب العاصفة يحلق في الهواء، كان جسمه شبيه بجسم الإنسان ولكنه أطول قليلاً ويحيط به الدخان الأسود ويصالب يده على هيئة حرف X. كان محاط بالظلام والظلال وكأنه يرتدي قلنسوة من الظل على رأسه ويتخفى وجهه بينها، وبينما ينظر له الجنود في دهشة اختفى في لحظة وظهر أمام احدهم وغرز يده في قلبه وسحب روحه والجنود يشاهدون في صدمة لا يتحركون قيد أنملة، وفي اللحظة التالية حصد روح الجندي الذي بعده فخرج الجنود من سكرهم ووجهوا الأسلحة نحوه فتراجع وانقسم إلى خمسة نسخ فانهال عليه الجنود بالنيران وطفقوا يمطرون الخمس كيانات بها، فظلوا يدورون في الهواء كراقص باليه محترف وهم يناورون بسرعة كبيرة ويختفون ويظهرون أمام أحد الجنود ليحصدوا روحه ومن ثمّ يختفون كالظلال وسط العاصفة ويتحركون بتناغم وذكاء واستراتيجية، فيحاوطون الجنود من كل الجوانب حتى يشتتوا نيرانهم على عدة جوانب ثمّ يتصيدونهم وأحياناً يظهرون جميعا

في منتصف الجنود فيطلق الجنود النار في فزعٍ فتختفي الكيانات ويصيب الجنود بعضهم البعض بالرصاص.

وبعد دقائق اضطرب الجيش بأكمله وتشتت نظامه، وعلى حين غرة ظهر شيء آخر ليزيد الطين بلة؛ إذ ظهر كيان ضخم أسود عريض المنكبين مُشعر الجسد يقف على قدمان ووجهه مليء بالأنياب الصغيرة الحادة وله ست عيون قرمزية تصطف فوق بعضها البعض. كان يوجد منه ثلاثة وسرعان ما اندفعوا ناحية الجيش يذبحون من فيه بمخالبهم الحادة وينقضون بأسنانهم على البقية يمتصون أرواحهم، إذ اخترقوا صفوف الجنود بالكامل وصرعوهم الواحد تلو الآخر باندفاعهم العنيف.

ولكن المفاجئات لم تنتهي هنا إذ ظهر فجأة من تحت الأرض الكيان ذو الذيل الواحد والعين الواحدة الذي قابل الشيخ عامر من قبل عند غرفة المحول. انطلق هذا الكائن يشق طريقه بينهم ويركض على يداه وقدماه ويقفز فوق رؤوسهم ينتشلها ويلتف بذيله الطويل ليسقط عدة جنود دفعة واحدة، ويطعن بعضهم ليسحب أرواحهم، والجنود يتراجعون ويضربون النيران بشكلٍ عشوائي في كل اتجاه وهم لا يدرون ما الذي يلتحمون معه. حاولت الطائرات أن توجه الأضواء إليهم ولكن سرعتهم كانت كبيرة وتعسر تتبعهم بالكشافات. ظهر فوق الجنود كيان آخر يحلق وكأنه يرتدي عباءة سوداء طويلة من الدخان تتدلى أسفله وتتطاير مع الهواء ولديه عينان كعين البشر ولكنّ الاحمرار فيهم شديد وكأنهما يضيئان ويلمعان، ولم يكن له ملامح أو فم أو أذن أو شعر.

رفع أصابعه النحيفة في الهواء فبرز منها خيوط عديدة التصقت بظلال الجنود وأمسكت بها حتى شُل الجنود عن الحركة وكأن حركتهم مرُتبطة

بظلالهم فظلوا متعلقين كالدمى لا يتحركون وقد شلت أبدانهم، حرك الكيان أصابعه في الهواء فتحركت أيديهم وصوبوا أسلحتهم على رفاقهم وشرعوا يطلقون النار كالدمى فيحصدون أرواح العشرات. حاولت الطائرات أن تتصرف وتتدخل ولكنها فوجئت بما يمسكها، فوجهوا الأنوار ليجدوا شيئاً طويلاً كطول الأبراج ومنحني الظهر ونحيف الجسد – رغم ضخامته – وله وجهٌ أملس وخالي من كلّ شيءٍ إلا عينان بيضاوان. أمسك بأحد الطائرات بيده وسحقها، فالتفت باقي الطائرات ووجهت الصواريخ والأسلحة الثقيلة ناحيته وهم يرتجفون من هول مظهره المهيب. ضربته الأسلحة والصواريخ وانفجرت فيه ودوت نيرانها في السماء وارتفعت وامتدت وملأ الدخان السماء وعلى بشموخ. وقفوا ينتظرون أي حركة تدل على سقوطه بعد هذا الكم الهائل من القذائف التي تستطيع قصف مدينة كاملة، ومن بين الدخان خرجت يده تضرب الهواء وتُطيح معها سبعة مروحيات. انطلقت الطائرات الحربية تشق الهواء وتلقي عليه القذائف والصواريخ من أعلى فتدوي فوقه وتنفجر لتزعجه، فرفع يده ليحمي رأسه، ولكنٍ الصواريخ كانت تصيبه في ظهره المنحني الطويل مما جعله يتراجع قليلاً من قوة حرارتها ونيرانها وضوئها الباهر.

وفي الأفق تقدم المخلوق الضخم ذو المجسات الأخطبوطية التي تحيط بفمه، فبسطها ومدها لتمسك ببعض الطائرات وتنسحب إلى أسنانه التي تدور لتطحن كلّ ما يلج إليها، فساد الذعر والفزع وتفشى في قلوب الجنود حتى صاح القادة فيهم أن انحسبوا وانجوا بحياتكم، فشرعوا يتراجعون بأسرع ما عندهم وهم يصرخون من الهلع ويتساقطون من فرط الرعب والمخلوقات تلاحقهم وتحصدهم الواحد تلو الآخر، فخرج عليهم الشيء الضخم الشبيه بالثعبان من تحت الأرض وابتلع أحد الدبابات وهبط

مرة أخرى تحت الأرض، فلم يدري الجنود من أين يأتيهم الموت إذ أحاطهم من كل اتجاهات، وسمعوا صوت كيانات تعوي بأصوات مخيفة تركض عليهم من كل جانب بالعشرات بطريقة مُفزعة وتلكمهم الواحد تلو الآخر وتقفز فوقهم وتعضهم وتنهش لحومهم وأرواحهم، فيركضون على أرجلهم وأيديهم ويقفزون في كل اتجاه ويتحركون بطريقة صعبة التنبؤ، وبعضهم ركض ناحية الدبابات فاصطدم بها من فرط سرعته وقوته فتهشم هيكل الدبابة على إثر ضربته، ومن بين الدخان والرياح خرج كيان يجلس على حصان أسود يطق كراهة وشرًا وهو يلوح برمحه الأسود الطويل ويخترق صفوف الجنود يقطعهم ويضربهم وينزع أعناقهم بكل يسرٍ ورشاقة وحصانه يصهل بألف صوت متشابكين من عوالم لا يفقه البشر عنها شيئاً ويسحب الأرواح مع كُل صهلة.

أحاط الموت الجيش المُوحد وكادوا يصابون بالخبل والجنون من هول الموقف واليأس والقنوط الذي أصابهم، وهم يحاولون التراجع بأسرع ما عندهم بعشوائية بالغة والكلّ يصرخ نفسي نفسي وكأنهم في يوم المحشر حتى كاد الجيش بأكمله أن يباد ويهلك.

***

الفصل الثامن عشر

الهامس في الظلمات

وصل مُهند ومعه الرِفقة أمام مبنى الأبحاث المُحطم، وطوال الطريق كانوا يرون الكيانات المُفزعة تُحيط بهم من كلّ جانب، ولكنّ العجيب أنها كانت تنحني على الأرض في احترام لمهند وكأنه ملك يمر بين حاشيته، وضرب الخوف أوصال الرفاق من أشكالهم المُفزعة الشرسة التي تكفي لأن تسبب لهم كوابيس لا تنتهي لآخر لحظة في حياتهم. وقف مُهند والرياح تهز مِعطفه الأسود وقفة الديكتاتور المُنتصر على شعبه، وشعر بنشوةٍ تنتاب قلبه وهو يتخيل مظهر الكيان الأعظم وهيئته العظيمة التي تقشعر لها الأبدان وتخضع لها الأرواح في إجلالٍ وتبجيلٍ واحترام. أغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا حتى ملأ رئتيه بالهواء الأسود العطن المحمل بالأتربة ثمّ زفر ببطءٍ وهو يقول بصوتٍ يُشبه عشرات الأشخاص الذين يتحدثون في نفس اللحظة:

- حان وقت قدومك يا عظيم لتطهر هذا العالم المُظلم وتملأه بالنقاوة الأولى والفطرة الأصيلة. إن قدومك هنا يُبشر بوصولك إلى مبتغاك النهائي

والزفر بما هو حقٌ لكَ. فالكل يسعى إلى القوة وأنتَ تسعى إلى الكمال والنقاوة والتطهير. فلتأتي وليأتي معكَ بداية عصر جديد وعالم ليس فيه أيّ جبارٍ عنيد.

اضطربت الأجواء وتذبذب الهواء واشتدت الرياح وأطلقت ذراعيها ببرد يجمد الأرواح قبل الأطراف، وشعر الجميع بقدوم شيء عظيم لم يرواً له مثيلاً من قبل. شعر كريم برجفة في روحه وألم شديد يكاد يقتله وكأن كلّ ذرة نور في قلبه تنطفأ ويملأ قلبه الظلام العظيم، وكأن عالمه يختفي ويحل مكانه عالم أكثر برودة وظلمة. سقط على الأرض وقلبه يؤلمه وشعر بأنه يريد أن يقتلع قلبه من صدره ليختفي هذا الألم، ويبدوا أن إلياس أصابه نفس الشيء، وظل أنس فقط واقفًا يحاول أن يخفف عن رفاقه بقدر ما يستطيع وفرائصه ترتعد من الخوفِ من المصير القادم الذي سيلاقيه. علم أن القدر لن يرحمه على أفعاله المريرة وأدرك أن غضب الله لن يتركه وأن نوره لن يحل عليه بما قدمت يداه، فدمدم يقول بأسى:

- الله نور السماوات والأرض. أومنِ كان ميتا فأحييناه وجعلنا لهُ نُورًا يَمشي بهِ في الناس كمن مثلهُ في الظُلُماتِ ليس بخارجٍ منها.

بكى أنس وشعر بالندم الشديد لما فعل، وأحس بالقهر لأنهُ ظلم نفسه أولاً قبل أن يظلم غيره. كان لديه حياة يتمناها الكثير ولكنه رغب بالمزيد ولم يشبع، وها هو يقع في شر أعماله بأسوأ طريقة قد يتخيلها أي إنسان. أدرك أنه هالك لا محالة ولكن لا زال هناك حل وحيد عليه أن يفعله حتى يُنهي كلّ هذا الهراء.

وفي الناحية الأخرى قبل طريق القاهرة تلوت خديجة من الألم وهي تبكي بقلبٍ يحترق ألماً وحزناً قائلة بصراخٍ أخاف طفليها وجعلهما يبكيان ويرتجفان:

- إنهُ قادم. يجب... أن ننقذ... كريم.. إنها نهايتنا!

أمام المنشأة والبوابة ازداد البرد والهواء وخرج الظلام بكميات هائلة من داخل البوابة وأنتشر كدخان كريه يزكم الأنوف ويؤلمها، واشتد الظل وارتفع للسماء ليزيد من ظلامها حتى أصبحت الشمس نقطة مُضيئة باهتة في السماء لا يجد نورها سبيلاً إلى الأرض التي تشتاق إليه وتتطلع بكل لهفة مُحب وعاشق لأن يلمسها ويضفي عليها دفئه وحنانه. ارتجفت الأرض من حولهم وعوت المخلوقات التي كانت تركع على الطرقات بالتحية والإجلال لسيدها العظيم. تجمع الظلام أمام بوابة المنشأة والتف الدخان الأسود حول بعضه البعض، وظل يتركب ويتشكل ويتلامس ويتلاحم حتى تشكلت هيئته تدريجياً أمام أعينهم المذعورة الخائفة، وبعد دخولٍ درامي ظهر أمامهم "نيتو" ملك الظُلمات ووريثها منذ ملايين السنين. صاح بصوتٍ أجش بآلاف الأصوات والأرواح التي يحبسها بداخله وكأنها صرخات المُعذبين بداخله تدوي إلى السماء في مزيج مرعب ورهيب يصم الآذان ويطغى على القلوب وتركع له النفوس من هيبته وعظمته وضخامة هيئته وتناسقها وهو يرفع يده والظلام يخرج منها ليضرب السماء وينتشر بكثافةٍ عظيمة ويمد كل مخلوقات الظلام بقوةٍ عظيمة ليس لها مثيل.

كان طويلاً يصل إلى عشرة أمتار، وعريض الهيئة وضخمًا، يتدلى من خلفه عباءة طويلة من الدخان تحلق في الهواء وتهتز مع الرياح وتتراقص معها في سيمفونية مُظلمة طويلة الأمد، ويُغطي الدخان الأسود رأسه ووجهه وجسده وكأنه يرتدي غطاء رأس وعباءة سوداء طويلة من الظلام والدخان، ولهُ عينان قرمزيتان تلمعان لمعانًا يُضيء الظلام من حولهم ليبصروه جيدًا، ومن ظهره برزت خمسة أذرع طويلة كالأفاعي

العظام في كل اتجاه ولها رؤوس سوداء كبيرة وفكين وأربعة عيون حمراء. وكان جسده يلمع في الظلام وكأنه معدن أسود يسقط عليه ضوء القمر.

نظر كريم والياس وأنس إليه وكأنهم يرون ملك الموت نفسه أمامهم بلحمه وشحمه، لم يعرفوا أيهلعون أم يركضون أم يصرخون أم يبكون. كان سيل من المشاعر المضطربة يضرب وجدانهم ويكيانهم ووقفوا متجمدين أماكنهم في صمت عجيب لا يقدرون على شيء وكأن على رؤوسهم الطير. أما مُهند فقد ظلَّ يضحك بسعادة عارمة وهو ينظر إليه وكأنه يرى ملاك كريم أو يبصر معجزة إلهية في عصر المادية والواقعية، وانحنى على ركبته كخادمٍ يحيي الملك، وقال والسعادة تغمر قلبه والابتسامة لا تغادر وجهه:

- مرحبًا بكَ في عالمكَ الجديد يا ملك الأكوان وأعظم الكيانات القديمة وأجلها.

نظر "نيتو" إليهم جميعًا نظرة سريعة ألقت الرعب في قلوبهم وأصابتهم بقشعريرة لا تنفك تتأجج وبعدها نظر إلى خادمه المخلص مُهند وحدثه داخل عقله بصوتٍ لا يسمعه غير قائلاً:

- أحسنت.. الآن نبدأ التطهير الحقيقي.

نظر إلى كريم نظرة طويلة وكأنه يقرأ أفكاره وذكرياته ويتفرس في روحه المُضيئة صعبة المنال، وبعد لحظات أصاب كريم فيها برعبٍ لم يتصوره في حياته ولم يجد له مثيل ولن يجد، حدثه داخل عقله قائلاً:

- والد البشرية الجديد. ستكون أنت المختار لتبدأ هذا النسل المدنس من البداية بعد أن يتطهروا.

تفاجئ كريم من كلامه وشعر أن أفكاره تتسارع ودقات قلبه تتعارك فقال داخل عقله بحذرٍ وتوجس:

- ماذا تقصد بهذا؟

- ستنتهي البشرية اليوم وسيبدئون من جديد بداية نظيفة نقية مثلما كانوا في البداية.

- وماذا سيحدث لباقي الناس؟ أين سيذهبون؟ ماذا سيحدث لأطفالي وزوجتي ورفاقي؟

- من كانت روحه مضيئة فسيبقى أما من غشيه الظلام فسيأتي إليّ. سيصير جزءًا مني وسأعذب روحه حتى تطهر من ظلامها وبعدها سأعطيه هيئة جديدة يعيش فيها في عالمي أُنعم عليه من خيري وأعطيه هدفاً أفضل من أن يؤذي الأرواح المُضيئة بظلامه.

- ولكن كيف هذا؟ كيف ستعطيهم أجسادًا؟

لم يعلم الجميع سبب اضطراب كريم وتعرقه إلا مُهند ولم يفهموا ما يجري له وأن نيتو يحادثه داخل عقله، ولكنهم انتبهوا أن نيتو رفع يده اليمنى في الهواء فتكون في قبضته جسد أسود مُنسق وجميل وله هيبة الملوك ولكنه بهيئة ظلامية:

- هذه ستكون أجسادهم الجديدة. كلّ سيتخذ الجسد الذي يناسبه حسب ظلام روحه وسرعة تطهره وتقبله لأخطائه وظلامه. إن عوالمي كثيرة ولا زلت أغزوا المزيد لأطهره، إن هناك من الأكوان ما لا تعلمه ولا تستطيع أن تحصيه. ولهذا فكلّ روح ستجد مكانها المُناسب في العالم المناسب. ستكون المساواة بين كلّ الأرواح ولن يشعر أحدهم أنه مُختلف

عن الآخر. سيصيرون جزءًا واحدًا. سيترابطون برابطٍ واحد وبمشاعرٍ واحدة مما سيجعلهم يتفهمون اختلافاتهم وأن كل المخلوقات متشابهة فينشأ بينهم رابطة إخوة. سيكونون نحن. نحن لسنا واحد بل نحن كثير. أرواح قديمة من ملايين السنين وأرواح جديدة لا تفقه شيئاً عن حكمة الأكوان وعلومها. نعلم بعضنا ونتلاحم معًا ونسعى إلى الكمال ونطهر كلّ الأكوان من الشر والدنس.

اضطربت ملامح كريم وقبضت قسماته وقال بصوتٍ عالي ليسمعه الجميع:

- أنتَ تريد أن تفرق بين الناس عبر رؤيتك أنت للكون؟ أنتَ لست إلهًا لتحكم عليهم وتأخذ أرواحهم لتعذبها وتلقي بها في عوالمك العجيبة المُظلمة ليعيشوا خدمًا لكَ لا حول لهم ولا قوة يفعلون ما يأمرون. إن الحرية هي جزء من حياة الكائنات في العالم وإن استخدموها في الشر والأذى. الكلّ سيبعث يوم القيامة ويُحاسب على أفعاله، أما ما تفعله أنت فهو تنميط لهذه الأرواح المتنوعة والمُختلفة بخيرها وشرها، وجعلها كلها كتلة واحدة مترابطة ليس لها إرادة وكلها تنصاع لك وتطيعك كالآلات الباردة. ما الجيد أو الجميل في عالمٍ كهذا؟

علم نيتو أن كريم تعمد قول هذا الكلام ليُخيف من حوله من أفكاره الخاصة ورؤيته الكونية، وأدرك دهاءه وخبثه فتعمد أن يتحدث بصوتٍ داخل رؤوس الجميع حتى يسمعه الكل في آنٍ واحد فلا يقوم كريم بتحريف كلامه كما يشاء. فقال بصوته العميق:

- لا تخلط الأشياء ببعضها. الأرواح المُضيئة ستعيش وستبني عالمها من جديد على نمط أخلاقي وتراحمي بينها، وسيظل التنوع متواجدًا في الكون وستبقى كلّ الأجناس من مُختلف الأكوان متواجدة وتتكاثر.

أما الأرواح المُظلمة فهي لا تستحق هذه النعمة لفسادها ولأذاها العظيم لكلّ شيءٍ جميل من حولها. إنها كالجراد تأكل الأخضر واليابس وتدمر العوالم بجنونها وشهواتها ورغباتها المُظلمة وأرواحها الهشة. سأترك بعضهم يعيش على حافة العالم يُراقب الأرواح المُضيئة حتى إذا أصابها الظلام أنقض عليها سريعًا وسحبها مما سيجعل الأرواح المُضيئة تخاف من الظلم والتعسف والجور والكراهية، وسيعلمون أنه في اللحظة التي سيحاولون أن يؤذوا بعضهم البعض فإن ظلامي سيغشاهم ويهلكهم، وبهذا ستظل العوالم في سلامٍ وضياء. ستظهر الأجيال تلو الأجيال وستعود الحياة كما كانت ولكن بنورٍ وضياء وخيرٍ عظيم يغشى الأرواح فلا تتقاتل ولا تأكل حقوق بعضها البعض. إن لكم في عالمكم لعبرة. هذا العالم الوهمي الذي تعيشون فيه ويكاد أجله أن يأتي بالحروب التي لا تتوقف حتى تتأجج وتلتهب كالبراكين. أسلحة بإمكانها أن تدمر عالمكم في ومضة عين. في النهاية مصير هذا العالم هو الخراب والموت لمليارات الأرواح المُظلمة. أما أنا فسأطهر هذه الأرواح المظلمة وأعطيها غاية في الحياة، وأعطي للأرواح المضيئة الحياة التي تستحقها في عالمٍ أفضل وأعظم.. لو رأيتم العوالم التي طهرتها وكيف أصبحت الآن لعلمتم أنّ ما أفعله الصواب.

رفع نيتو يده اليمنى وبسط كفه وانفتحت بوابة بُعدية صغيرة لأحد العوالم ورأوه وكأنه الجنة إذ أن الأشجار الزرقاء والخضراء تحيطه من كلّ جانب، ويمتلأ بالأنهار والشلالات والطيور والجمال المُبهر، حتى أن الجميع فغر فاهه من شدة جماله ورونقه ونقاوته.

ولكنّ أنسٍ أحس بالذعر والهلع لهذا الكلامٍ المُخيف عن مصيره من الآن فصاعدًا، فرأى إلياس وهو يتدخل قائلاً بحنكة ليدحض نظرية "نيتو" قائلاً:

- وماذا لو كان مصير هذه الأرواح المُظلمة أو بعضها أن يتحولوا في النهاية إلى أرواحٍ مضيئة؟ ألست بذلك تسلبهم حق الحرية والندم والرجوع عما قدمت أيديهم؟ وتحكم عليهم بأن يلقوا في جحيمك الخاص؟ بعض الأرواح المُظلمة تتراجع عما تفعله وتعود إلى نقاوتها الأولى وفطرتها، وبعض الأرواح المُضيئة تنقاد إلى العتمة وتسقط إلى أسفل سافلين. أنت بذلك تسوي بين هؤلاء بحاضرهم فقط وتهمل مستقبلهم وقدرهم!

قال نيتو وهو يُغلق البوبة البُعدية:

- لو سِرنا وراء فلسفتك هذه فلن يتغير الكون أبدًا. على كلّ شيء أن ينضبطَ في سياقه الصحيح. الأرواح المُظلمة ستطهر على يدي وتحصل على حياة أعظم مما كانوا يحلمون. سيبصرون أكوانًا وعوالمًا عظيمة وسيتعرضون لشتى المعارفٍ وسيحصلون على الحكمة القديمة، ويتفقهون عن أنفسهم وكونهم جيدًا، وأما الأرواح المضيئة فستعمر الكون من جديد، وهكذا يصير التوازن بين العوالم.

-ولكنك تظلمهم بهذا، فهم يخطئون ويتعلمون ويندمون ويتراجعون. وهكذا تتعارك قوى الحق والباطل والنور والظلام دائمًا. وإذا كنت تكره الظلام فلماذا أنت من ظلامٍ وكلّ مخلوقاتك تحبُ الظلام وتتغذى على الأرواح المُظلمة؟

- الظلم ليس من شيمي، فأنا عادل لا أظلم أحدًا، ولكنك لا تفهم طريقتي في رؤية الكون بعد، فأنا حكمة الأكوان منذ زمن عتيق وحتى الآن وسأظل للمستقبل. أما كوني من ظلام فهو لأنني أخترت أن أحمل ظلام العوالم على عاتقي وأمتصه كله داخلي وأترك العالم للضياء. إنها تضحية اخترت أن أخوضها من أجل كلّ الأرواح المُعذبة في الأكوان. سأريكم ما رأيته وما أخترته.

ظهرت صور ومشاهد في عقولهم من العدم وأخذت تتابع في لقطات مُثيرة وسريعة، عن جنس قديم كان يعيش من ملايين السنين في أحد الأكوان الغريبة. كانوا سود البشرة ولهم أعين بيضاء واسعة وآذان شبيهة بآذان القط، ولا فم لهم، فكانوا يتكلمون بالتخاطر بينهم ويتناقل الأفكار، انتقلت المشاهد إلى مشهد رهيب لعالمهم وهو يحترق من جنون الحروب والدمار الذي دار بينهم حتى جمع أحد هذه الكائنات خمسة من رفاقه وقاموا بتفعيل آلة حجرية غريبة تمتلئ بالنقوش المضيئة والجواهر العظيمة وباستعمال هذه الجواهر استطاعوا أن يفتحوا بوابة لعالمٍ آخر ليهربوا من أهوال الحرب، ولكن هذا العالم كان مُحاط بالظلام والدخان والأصوات المخيفة، ظهر لهم صوت عميق في رؤوسهم ليخبرهم بأنهم قد جاءوا إلى المكان الصحيح، وعرض عليهم أن ينقذ عالمهم مقابل أن يصيروا جزءًا منه وأراهم أفكاره وعلمه فقبلوا ووافقوا فأخذ أرواحهم وضمها إلى روحه لتزداد قوته، وبعدها خرج إلى عالمهم وبدأ حملة الظلام الأولى وصار يعرف ب"نيتو" بين كل الأكوان، وهو من الكيانات الأقدم التي سكنت العوالم منذ سنوات لا يمكن أن تحصيها، وكان مصدر قوته الأعظم هي تحصيل الأرواح وضمها إليه ليتضاعف علمه وفهمه وقوته وحكمته. وأما هو فكان أحد الكيانات العظيمة القديمة التي كانت قوتها تتخطى المعقول وتتخطى حدود وعي أي كائن حي، وهو يملك من المعرفة ما لا يملكه إلا القليل، وكانت تضحيته أن قرر أن يسحب كل ظلام العالم داخله وأن يتحمله إلى أبد الدهر حتى يعيد التوازن إلى الكون بعد أن أفسدته كوارث اخوته من الكيانات العظيمة التي سكنت كل الأكوان وتحكمت بها لسنوات.

تدخل كريم مُعترضاً وحانقاً وخائفاً في آن الوقت:

- نحنُ لا نرغب بهذا العالم. صحيح أن عالمنا كان به الكثير من الشرور والظلم، ولكنه هذا ما يميزه فنحن كائنات تتعلم وتتطور وبالوقت سنصل إلى الحكمة التي قد تُبعدنا عن أخطاء الماضي، وربما لا يحدث هذا ولكن بكلّ الأحوال لا يحق لكَ أن تحكم علينا وتقودنا كما تريد بلا موافقة منّا على هذا. أنتَ تُقيد حرية الكائنات التي أعطاها الله لهم وتجبرهم على خوض طريق واحد خالي من الاختيارات والعقبات. أنت تسلبهم أهم شيء أعطاه الله لهم وهو حرية الإرادة. لقد قالت الملائكة للخالق "أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ملا تعلمون". إن حرية الإرادة وإن توجهت إلى الشر أحيانًا فإنها إرادة الخالق لخلقه ليختبرهم وأنت بهذا تريد أن تأخذ مكان الخالق وتُحدد كيف على الخلق أن يعيشوا وفقاً لإرادتك وأفكارك الخاصة.

- إن كانت هذه إرادة الصانع فوجودي هنا هو بإرادته أيضًا. لا نهتم بأن نكسب هذا الحديث لأن إرادتنا ستحكم بكلّ الأحوال، وما نراه سيسود كما ساد في العوالم التي سبقت هذا العالم، وكما أننا نعلم أن البشر كانوا ولا زالوا أكثر شيءٍ جدلاً. تحبون الجدال والسفسطة ولا تقدمون حلولاً لما أضحى إليه عالمكم من بشاعة.

أخرج نيتو من يده كتابًا أسودًا أخذ يحلق في الهواء وتتطاير صفحاته وتتقلب وحدها، فقال كريم متسائلاً ويبتلع ريقه بصعوبة:

- ما هذا؟

- إنه الكتاب الأسود.. أُسجل فيه كل أسرار العوالم، ويحتوي داخله تاريخ طويل من الصراعات بين الكيانات القديمة، ولديه القوة لفتح أبواب لم تفتح من قبل.. إنه كتابي المُقدس وسفر الأسفار.

انسحب بعض الظلام من السماء ودخل إلى الكتاب وأخذ يتشكل على هيئة حروف ويكتب ويخط الكثير والكثير من الصفحات، فأدركوا أنه يكتب كلّ المعلومات التي تخص عالمهم ويخطه بيديه عبر دخانه الأسود الذي يسجل كلّ شيء داخل ذراته وخلاياه.

تحرك نيتو من فوقهم فاهتزت الرياح من قوته وضخامته فسقطوا أرضًا ولم يتحملوا قوتها وابتعد نيتو وهو يقول لمُهند بأن يتبعه فتبعه مُهند بشغفٍ وحماس ليرى قوته وعظمته وهو يبسط سيطرته على العالم ويطهره من الرجس والظلام والألم الذي ملأه. وبينما هو يمر بجانبهم نظر أنس إلى كريم وأشار له أنه حان الوقت ويجب أن ينفذ ما اتفقوا عليه، فبادله كريم نظرة أسى وانقض على مُهند وقيده بذراعه، وسحب جهاز التحكم من جيبه على خينٍ غرة وقذف به إلى أنس الذي التقطه وركض بسرعة ناحية البوابة البعدية التي تقود إلى عالم الظلام، فأزاح مُهند كريم ودفعه بعيدًا عنه وأشار بيده إلى أنس فتحركت الظلال من الأرضٍ كخيوط ضخمة تمتد لتمسك بأنس فوقف إلياس أمام الخيوط ولأن روحه مُضيئة لم تستطع الخيوط أن تمسه وتوقفت عند قدميه فصاح مُهند في غضبٍ وقال بأعلى صوته يصيح:

- "نيتو" أوقف هذا الصعلوك وإلا سيفسد كلّ ما قمنا به.

كان نيتو قد ابتعد كثيرًا بحكم ضخامته وسرعته وعندما سمع نداء مُهند التف فورًا وانطلق بسرعة كبيرة ناحية أنس الذي كان قد دخل إلى المنشأة البحثية وهو يركض والأدرينالين يتفجر في جسده ليعطيه دفعة زائدة، وقد شعر في هذه اللحظة بأنه أمل البشرية بل والأكوان كلها.

كان الجيش يتقهقر وينسحب والفزع يملأ جنبات قلبه ويحطم معنويات أعتى جنوده وصناديده، وهم من هم في البئس وقدرة التحمل وقوة القلب التي تجعلهم يقابلون الموت كلّ يوم غير عابئين في كثيرٍ من الأحيان، ولكنهم الآن صاروا كالفئران التي تطاردها القطط والأسود، أضحوا يعلمون جيدًا ألا حول لهم ولا قوة أمام هذه الكيانات التي تفوق إدراكهم. ركضوا وهرولوا واستنجدوا وبكوا كما لم يفعلوا من قبل ورأوا الموت يحيطهم من كلّ مكانٍ، وظلت الكيانات تتصيدهم الواحد تلو الآخر وتنهش فيهم وتقضي عليهم وتُهلكهم وتعمل على إبادتهم على أكمل وجه.

ولكن في وسط هذا الهلع تذكر أحد الجنود كلمات الشيخ عامر عن الضوء وغيره، فأخرج قنبلة ضوئية وألقى بها على هذه الأشياء فانفجرت لينطلق الضوء ويغشى العيون فصرخت الكيانات بألمٍ عارم وتراجعت وجسدها يتألم وكأنها تلقت طعنة نفذت من قلبها. فلما رأى الجنود هذا تجدد الأمل في قلوبهم وأخرجوا القنابل الضوئية وارتدوا نظاراتهم الواقية للعين وألقوا بما في جعبتهم من قنابل ضوئية - والتي كانت تستعمل من قبل في التسبب بعمى مؤقت للأعداء من البشر - على الكيانات التي ظلت تتراجع أمام هذه الانفجارات الضوئية العتيدة واحترق بعضها وخر جثة ساكنة من شدة الضياء المتلألئ كالنجوم في عتمة الليل الدامس. توقف الهجوم الشرس من الكيانات وأخذت وضعية الدفاع وأعاد البشر لم شملهم وطفقوا يتقدمون تقدمًا ملحوظًا على عدوهم الذي لا يعرف للرحمة معنى. ورغم حماس الجنود وإحساسهم ببعض بوادر الانتصار إلا أنهم لم يعلموا ماذا يفعلون في الكائنات الضخمة التي تهاجم الطائرات وتسحقها الواحد تلو الآخرٍ، فوضعوا إيمانهم أن قادة الطائرات والدبابات سيتصرفون ويجدون حلاً.

أما المروحيات والدبابات فقد ظلت تقصف الكيان الضخم الشبيه بالجبال بلا جدوى، وأما الطائرات الحربية فقد أثرت تأثيرًا كبيرًا في المخلوق الطويل العملاق منحني الظهر وأخذت تقصفه بلا هوادة ولا راحة بأقوى الصواريخ وأشدها تأثيرًا حتى شرع يتراجع ويشيح برأسه ويلوح بيده في الهواء في عشوائية. ظلت المعركة في يد البشرية لبعض الوقت حتى تذبذب الهواء فجأة من حولهم بشدة وشعر الجنود ببرودة تسري في قلوبهم وتشل أوصالهم للحظات قبل أن يعود لهم إدراكهم مرة أخرى، ورأوا الظلام يشتد في السماء كموجٍ عاصف، وإذ فجأة وجدوا الكيانات المُظلمة وهي تعوي وتصرخ وتصيح وكأنها في موكب احتفال عظيم بقدوم مولود للملك أو ما يشبه ذلك، ولم يعلموا بالطبع أن هذا الصياح كان احتفالاً بقدوم مبعوث الظلام "نيتو". ازدادت حدة الظلام في الهواء وارتفعت قوة الكيانات المُظلمة بشكلٍ ملحوظ وغريب، وطفق الدخان يُحيط بالجنود من كلّ جانب ويحصد أرواحهم، والكيانات تظهر من تحت أقدامهم ومن فوقهم تسحبهم وتذبحهم وتنهش لحمهم وارواحهم وقد ازدادت سرعتها وقوتها وعتوها وبغيها. كان ينسلون من كلّ حدبٍ وصوب والجنود يلقون بالقنابل بشكلٍ عشوائي فيصيبون بعضها ويخطئون الآخر حتى اخترقت حصونهم بالكامل واضطروا للهرب والانسحاب كالفئران مرة أخرى.

أما أنس فقد أكمل ركضه ونيتو وراءه بهيبته ورهبته يندفع ليشق الهواء ولتهتز الأرض والسماء بعظمته وقوته وجبروته وقد أحس أنس بقدومه ولكنه لم يرغب في أن ينظر خلفه حتى لا تثبط عزيمته، وأطلق سيقانه للرياح وهو يدعوا الله أن يعطيه فرصة أخيرة ليُصلح ما أفسده في حياته. علم أنس جيدًا أن الولوج إلى عالم "نيتو" ليس في صالحه ولن يغير

شيئاً فلمعت في رأسه فكرة جديدة كالمصباح وسط غرفة مُعتمة. ركض وهرول وكأنه يهرب من جهنم إلى الجنة وفي قلبه أمل وعزم ورغبة في أن يُبدل كلّ شيء ويقوم بعملٍ عظيم يحفظ الناس من شرٍ مقيم. وصل نيتو إلى البوابة الصغيرة فتحول جسده إلى دخان أسود كثيف واندفع داخل المنشأة كالرياح يُطارد ويصيح صيحات مفزعة تلجلج القلوب وتهتز لها الأبدان وراء أنس الذي كاد يصل إلى البوابة ومعه مفتاحها.

تذكر حديثه مع كريم من قبل عندما كانا يمشيان وراء مُهند لمقابلة نيتو، ولمعت الدموع في عينيه وهو يتذكر كلمات كريم العطوفة رغم ما عرفه عنه من أفعال بشعة كان يخجل منها ويخفيها بكلّ ما يستطيع من سُبل، ولكن لكلّ امرئٍ نصيبه من الستر، وكلّ ما نفعله يجد طريقة للظهور إلى العلن في يومٍ من الأيام مهما أخفيناه جيداً. لمعت كلمات كريم في رأسه وزادته عزماً وحزناً، فتذكره وهو يقول:

- لكن يا أنس إن ما تفعله انتحار!

- هذه هي الطريقة الوحيدة وإلا فسنهلك جميعًا، وأنا سأموت بكلّ الأحوال سواء فعلت ذلك أم لم أفعل. هذا الشيء اللعين لن يتركني حتى يسلب روحي مني وربما يحولني إلى أحد هذه الأشياء البشعة. لا أرغب بهذا المصير البشع أبداً.

- ولكن أين ستأخذه إنه قوي في عالمه.

- أتذكر هذا العالم الذي فتحه العلماء في بداية بحثهم وعرضوه لنا كدليلٍ على وجود العوالم المتوازية قبل أن يتداخل عالم "نيتو" مع عالمنا في وقتٍ قدوم الرياح في اليوم الذي يليه؟

- نعم ولكن ما شأنه بخطتك.. أنت لا تقصد أنكَ..

- ليس هناك حلٌ آخر. إن استطعت أن أفتح هذا العالم فسيتبدل الوضع لصالحنا ويمكننا أن ننجو.

- لكن هذا سيقتلك! أأنت أحمق؟ لا بد أن هناك طريقة أخرى. لا أريد أن أفقدك يا رفيقي العزيز.

- ستظل روحي معك تحوم حولك وسأظل في قلبك وذاكرتك. كما أن هذه هي الطريقة الوحيدة لأكفر عما عملت من أشياء بشعة.

نهض كريم من على الأرض ونظر إلى أنس وهو يركض داخل المنشأة ونيتو يتبعه كذيله فصاح قائلاً بأعلى صوته ليشدد من عزمه وإرادته ودموعه تنهال كالشلالات:

- انطلق يا أنس ولا تخف.. إن الله معك.

سمع أنس كلماته تدوي بين المبنى فبكى وهو يضغط على بعض الأزرار في جهاز التحكم فصارت البوابة تتبدل ويتغير لونها وتضطرب ذبذباتها ونيتو يكاد يصل إليه، فدعا أنس أن تُفتح البوابة بسرعة وأن يكون العالم الذي يريده.

ركض أنس وهو يحمل على عاتقه مصير البشرية وكلّ الأكوان وتبدلت البوابة، ولكنّ أنس لم يعلم إلى أي عالمٍ ستقوده بسبب الضوء الذي غشيها فقفز داخلها بأقصى ما عنده فتوقف نيتو مكانه وتركه يفلت إذ إنه أدرك جيدًا أن أنس قد دخل إلى عالمٍ خطير لا يُمكنه هو نفسه أن يدخله الآن.

تراجع نيتو وخرج مرة أخرى من المبنى ونظر لمهند الذي أحس أنهُ قد خذل العظيم وقال له بنبرة متعجرفة:

- الكون يسير بقوانين ثابتة صارمة وأيّ خطأ صغير يؤدي إلى سلسلة أحداث يُصعب التنبؤ بها، ولهذا فإنني لن أسامحك على أي خطأ آخر مثل هذا.

أحس مُهند أنه يرغب بأن تبتلعه الأرض من الضيق ونظر إلى كريم وإلياس والغضب يلمع في عينيه كحممٍ لا تنطفأ. طار نيتو إلى السماء وابتعد مرة أخرى بسرعة كبيرة ناحية جيش البشر، وبعد دقائق من مقاومة جيش البشر الشرسة رأوا هذا الكيان العظيم يحلق في السماء ويغطيها ويلقي في قلوبهم الرعب، وإذ فجأة صرخت الكيانات صرخات عظيمة تحية وإجلالًا وازدادت شراستها وقوتها وانحنت في تعظيم لسيدها، وظن البشر أنهم أُحيط بهم وأن الموت قريب لا ريب فيه، فارتعدت فرائصهم وانقبضت قلوبهم واضطربت وسقط بعضهم أرضًا ولم يقدر على الحركة.

هبط نيتو إلى الأرض كملاكٍ أسود آتيٍّ من أعماق الفضاء المُظلم. وضع نيتو يده على الأرض لتظهر كومة من الضباب الأسود الكثيف المليء بوجوهٍ سوداء مُخيفة تصرخ وتعوي كالأرواح المُعذبة بملامحهم المبهمة التي تُثير القشعريرة في جسد من يراها، وبعد ذلكَ توجهت هذه الوجوه إلى الجنود وهي تصرخ وتعوي بصرخات تهتز لها الأبدان فركض الجنود من الرعب وانسحبوا ولكن الدخان كانَ أسرع فتصيدهم الواحد تلو الآخر، وكلّ من كان يلمسه خرجت روحه على الفور وتجمعت داخل الدخان، حاول بعض الجنود أن يُلقي بالقنابل المضيئة ولكن الدخان كان يبلع ضوئها ويغشاه كأنه لم يكن، فأدرك الجنود أنهم في عداد الموتى. ركضوا في كل اتجاه في فزعٍ ليس كمثله شيء، وكانوا قابوا قوسين أو أدنى من أن يمسهم الجنون. توجهت باقي المخلوقات لتتصيدهم وتفترسهم الواحد تلو الآخر حتى أُبيد الجيش عن بكرة أبيه في غضون نصف ساعة

ونيتو يُشاهد بكلّ كبرياء، وبعدها تقدم هو وحافل الظلام إلى الأمام ليستحوذوا على باقي العالم.

ارتعد كل العالم بقادته عمّا حدث للجيش الموحد وأدركوا أنهم أمام شيء لم يروا له مثيل من قبل وأحسوا أنهم إن لم يتصرفوا قريبًا فسوف يهلكون لا محالة. عقد رؤساء الدول اجتماع عاجل في الولايات المُتحدة وأتى كلّ رؤساء الدول من كلّ حدبٍ وصوب والرعب قد تملكهم، وبعد أن تجمعوا وجلسوا على طاولة الاجتماعات وشرعوا يعرضون المشكلة وطرق حلها؛ قال أحدهم أن على كلّ جيوش العالم أن تتوحد قبل أن يستمر الظلام ويتوسع ليشمل كلّ كوكبهم وأنهُ آن الأوان للبشر للتوحد وإلا فالكل سيفقد كرسيه وروحه. ولكن رئيس أمريكا أخبرهم أنه حتى ولو تجمعت كلّ الجيوش فإن ذلك لا يفيد بشيءٍ، وهذا لأنهم لا يدركون كنه الأشياء التي يحاربونها، وأن إرسال كلّ جيوش البشر قد يؤدي إلى إبادتها وبقاء العالم دون حماية. ولكن رئيس الصين رأى أن إرسال ملايين الجنود سيقضي على أي كيان كان مهما كان غريب الشكل وشديد القوى، وأن عليهم أن يستعملوا القصف الناري المُكثف بالطائرات بلا توقف وعندها فإن الحرارة الشديدة وقوة النيران ستحرق الظلام وكلّ الكيانات فيه، كما أن لديهم صواريخ بالستية عابرة للقارات سيوجهونها جميعها ناحية موقع الظلام حتى يتلاشى هذا الظلام بالكامل، اعترض بعض رؤساء الدول العربية بأنّ هذا سيقضي على الكثير من البشر في مصر وسيُحطم مدن كاملة ويمحوها من الوجود! ولكن رئيس الصين قال بكل برجماتية بأنها تضحية لا بد منها، وأنهم سيهلكون على كلّ حال أمام الظلام، فقد غطى الظلام كلّ مصر في الوقت الحالي وهرب الناس ناحية ليبيا وفلسطين. أشار رئيس الصين إلى أحد الشاشات فنظر

الجميع إليها ورأوا عبر الأقمار الصناعية صورة مباشرة لشعب مصر وهو يهرب بذعر من بين الظلام ويُهاجر في هجرةٍ عملاقة لم تحدث من قبل في تاريخ البشرية! لم يرى أحد شعباً كاملاً يُهاجر من بلده من قبل! ابتسم رئيس الصين وقال بأنه لم يتبقى أحد في مصر وأنه حان الوقت لإنهاء هذه المهزلة.

***

الفصل التاسع عشر

نيران الهلاك

توجهت كلّ الترسانات الحربية والطائرات والقذائف ناحية مصر، وانطلقت مئات آلاف الطائرات تهز السماء وتلقي بالرعب في كلّ قلوب البشر، فلم يُبصر أيّ إنسان هذا العدد الهائل من الطائرات في تاريخ البشرية يملأ السماء كالجراد ويمر من فوق كل البلدان ليل نهار للوصول إلى غايته المنشودة، وبعد ساعات طويلة من التجمع بدأت حملة قصف هائلة ستكتب في تاريخ الإنسانية ولن تنسى أبدًا. دخلت الطائرات إلى مجال الظلام وشرعت تقصف مصر بأكملها حتى احترقت عشرات المُدن وعلت النيران إلى السماء وتحولت البلد إلى جحيم من النيران المستعرة التي تشهق وتزفر وتأكل كلّ ما يحيط بها، وأحيلت الظلمات إلى ضياء من قوة النور والحرارة حتى أن صوت القصف قد وصل إلى كلّ أنحاء العالم واستطاع الكلّ أن يرى النيران وهي تعلو سماء مصر من شرفاتهم وكلّ هذا بأسلحة متوسطة القوى، ولو استعملوا الأسلحة النووية لحطموا الأرض عشرات المرات، ولكنهم لا يريدون تحطيم عالمهم بل إنقاذه،

وبعد أن انتهت الطائرات من القصف ابتعدت وانطلقت آلاف الصواريخ البالستية العابرة للقارات تحلق فوق سماء العالم في مشهد مهيب عظيم يجعل الولدان شيبا. وقصفت البلد حتى حولتها إلى رمادٍ وجعلتها في فعل كان، واندفعت النيران تتسابق لتلمس السماء وتحتضنها وكأنه وادي عملاق من النيران، واستمرت النيران ليومٍ كامل لا تنطفأ وظن الجميع أن الظلام وكلّ ما داخله قد انتهى بالكامل وأنه من المستحيل أن ينجوا أحد من هذا القصف العظيم. عادت الطائرات إلى قواعدها وتوقف القصف وراقب الرؤساء ما يحدث في مصر عبر الأقمار الصناعية وانتظروا ظهور أي جديد ورأوا الظلام قد تلاشى أمام النيران فهللوا فرحًا وأدركوا أنهم قضوا على هذا الشيء مرة وللأبد، وبعد ساعات من انطفاء النيران وعادت الشمس لتحل فوق سماء مصر المُحطمة، فأدرك الجميع أنها نهاية هذا الكابوس، ولكنّ أحدهم أخبرهم بأن يكبّروا الصورة عند أحد المواقع؛ فوجهوا أنظارهم ناحيته ليروا دخان أسود كثيف يخرج من تحت الأرض ثمّ تكون وتشكل حتى عاد نيتو لهيئته، وانتشرت الأدخنة من حوله بسرعةٍ هائلة كغازٍ تسرب من أنبوبة، وبسط نيتو يداه ونظر إلى السماء وصرخ بصوتٍ كادٍ يسحق آذانهم حتى أوقف أحدهم الصوت بعد أن نزفت آذانهم، وبعدها انتشر الظلام بقوةٍ أكبر وفي غضون دقائق عادت مصر كما هي، وخرجت جحافل الظلام من تحت الأرض، فقال رئيس أمريكا وقد شخصت عيناه من هيئة نيتو المُفزعة:

- ما هذا الشيء اللعين بحق الله؟ لقد اختبأ تحت الأرض حتى أنهينا القصف! إنه لا يُقهر!

قال رئيس فرنسا وهو يبتلع ريقه بصعوبة:

- الظلام ينتشر أضعاف السرعة المُعتادة.. خلال أيام سيسحقنا هذا الشيء ولا يمكن لأسلحتنا أن تؤثر فيه!

اقترب رئيس اليابان وقد لمعت فكرة في رأسه قد تنقذهم فقال:

- إن هذا الكيان يكره ضوء الشمس ولهذا فإنه يُغطي السماء حتى لا يضره ضوء الشمس، وبعد أن يستحوذ الظلام على كلّ كوكب الأرض لن يستطيع شيء أن يوقفه.. ولهذا علينا أن نركز ضوء الشمس عليه.. سنستخدم ألواح الأقمار الصناعية لعكس أشعة ضوء الشمس وتركيزها عليه فتصبح كالنار الحارقة على جسده إن وجهناها بتركيز كثيف ومُركز فيحرقه مرة واحدة.. إن هذه الأقمار سلاح خطير ولهذا لم يستعمله أحد بعد ولكن الوقت قد حان لذلك.

قرر الجميع أن هذا هو السلاح النهائي للقضاء على نيتو وانهاء وجوده مرة وللأبد، ولكنهم توجسوا من ألا يقضي عليه هذا السلاح أيضًا.

جهزت كل الدول الأقمار الصناعية الحربية ووجهتها إلى مصر، فتحركت الأقمار وتحركت أجزاءها والتفت ودارت بين ظلام الفضاء ونجومه المرصعة، والشمس أمامها ككرة ضخمة من اللهب. مرت دقائق حتى استعدت الأقمار والتفت ألواحها الفضية لتعكس أشعة الشمس وتركزها ثمّ توجهها ناحية مصر. فاستعدت عشرات الأقمار وعند الإشارة أطلقت جميعها أشعة الشمس المكثفة الحارقة في نفس الوقت.

وبينما نيتو وجحافله تسير وتقتل كلّ كائن حي أمامها وتقضي على الأخضر واليابس وتحيل الأرض ظلامًا فوجئوا بضوءٍ شديد يصدر من السماء في عدة أماكن متفرقة ولكنها متقاربة، وفي اللحظة التالية هبطت أحد الأشعة الصفراء على الأرض فأحرق عشرات المخلوقات السوداء

دفعة واحدة، فنظر نيتو إلى السماء وأدرك أنهُ استخف بالبشر أكثر مما ينبغي، فهم قد طوعوا عالمهم المادي لصالحهم وصنعوا الكثير من الأسلحة المُدمرة التي قد تقضي عليه وعلى جيشه إن لم يأخذ حذره. رأى نيتو الأشعة تهبط كأعمدةٍ من النور واللهب إلى الأرض فتحرق كلّ ما تلمسه وتحيل الأرض نورًا، فتحرك بسرعة ليبتعد عن مجالها فهبط شعاع ناحيته وهو يحلق فتحاشاه نيتو بصعوبة فجاءه شعاع آخر فتحولٍ إلى دخان كثيف وتفرقت أجزاءه مبتعدة ثمّ تجمعت بعد عدة أمتار بعيدا عن الشعاع، ولكنّ الأمر كان في بدايته إذ انهالت عليه الأشعة تلو الأخرى وهو يحلق من بينها ويناورها بمهارة رغم ضخامة جسمه نتيجة لسرعته الهائلة، وظلت أعمدة النور الحارقة تضرب الأرض من حوله في كلّ اتجاه وتحرق جيشه بالكامل، فيناور الأول فالثاني فالثالث بصعوبة بالغة ويفاجئ بآخر يأتيه بغتة فحاول أن يختفي تحت الأرض حتى يهدأ هذا الهجوم ولكن الشعاع كان أسرع وأصابه فاحترقت جزيئات جسده المهيب فصرخ وعوى بصوت كهزيم الرعد وأحس بجسده يحترق أمام قوة الشعاع ودرجة حرارته العالية التي بإمكانها أن تصهر أيّ شيءٍ في مجالها ثمّ تلاه شعاع آخر ليلجم جسد نيتو كنيرانٍ من جحيم فسقط على ركبتيه وصرخت الأفاعي السوداء من حوله وتلاشى بعضها من شدة الحرارة وظل هو يقاوم هذه الحرارة العظيمة حتى اختفى الشعاع فعلم أنها فرصته ليختبئ الآن حتى يستعيد قوته بعد أن ضعف جسده كثيرا من قوة حرارة أشعة الشمس، وقد أدرك جيدا أن البشر ليسوا بالكائنات الهينة التي ظن أنهُ سيهلكها سريعا ويستحوذ على عالمهم في غضون أيامٍ معدودة. وعلم أن الأمر سيحتاج إلى فترة طويلة إن استمر الأمر على ما هو عليه، ولهذا فقد قرر أن يستعمل أقصى قوته عليهم.

***

الفصل العشرون

الأبناء الأربعة

وجد أنس نفسه في مكانٍ لم يتوقعه بالكامل إذ كان كلّ شيءٍ فيه مصنوع بهندسة غير معلومة المعالم، هندسة لا بشرية حتى أن الزوايا فيها مستحيلة الحدوث حسب قوانين الهندسة البشرية.

رأى نفسه على أرضية بيضاء ناصعة كبيرة ومن حوله يرى النجوم والمجرات وكأنه على صخرة في منتصف الفضاء، ولكنها كانت تختلف في ألوانها عن نجومهم ومجراتهم. فالنجوم شديدة الزرقة أو شديدة الحمرة وبعضها كريستالي اللون أو أخضر كأوراق الأشجار، وتمتزج المئات منها في مزيج مُدهش ومبهر وخلاب. وأما المجرات فتتجمع من حوله بكافة ألوان قوس قزح في جمالٍ أخاذ يُدهش الأبصار، والسديم الكوني يتكاثف حوله كسحبٍ حمراءٍ فاقعة اللون تسر الناظرين، والكواكب والكويكبات والنجوم يتلاحمون معًا ليسردوا أجمل المعاني والألوان، ولكن ما أدهشه أكثر هو المخلوقات التي كانت تُحلق بين هذا الفضاء وكأنها تعوم تحت

الماء. فرأى كائنًا شفافًا يُشبه قنديل البحر العملاق يطير بين السديم وفي داخل جسده تلمع عدة ألوان جميلة وتمتزج وتتبدل مع كلّ حركه يفعلها، ووجد أنس منه العشرات، وأبصر كذلك بعض المخلوقات الشفافة التي تُشبه البشر ولكنها بلا ملامح تُحلق من حوله وتهتز يمينًا ويسارًا وكأنها تتراقص. ورأى طائرًا غريبًا بأربعة أجنحة تحترق بنيران خضراء وذيله مليء بألسنة اللهب الطويلة التي تمتد من خلفه عدة أمتار كعشرات الذيول. وكان كالعنقاء في الفضاء. انذهل أنس مما رآه ولولا جمال ما يراه لكان مات فزعًا، ولكنه نجى من نيتو ولن يكون هناك ما هو أكثر رعبًا من ذلك. والأغرب من هذا أنهُ رأى العالم من حوله وكأنه مكعب ثلاثي الأبعاد، فهناك مخلوقات تطير فوقه بالمقلوب وأخرى تطير على اليمين واليسار وكأنها تسير على حائط لتنتهك كلّ حرمات قانون الجاذبية، ورأى بعض الصخور والمباني البيضاء ملوية وتنقلب رأسًا على عقب. فإن كان كون البشر يبدوا كبساطٍ أو ورقة تجلس فوقها النجوم والكواكب، فهذا العالم كمكعب عجيبٍ كلّ مربع فيه يحتوي على قوانين تخصه، أو يملك جاذبيته الخاصة التي لا يتدخل فيها المربع الآخر!

لم يدري إلى أين عليه الذهاب فهو يقف على صخرة بيضاء بين الفضاء وأي خطوة يأخذها ستودي به إلى أعماق الفضاء، فأحس أنهُ قد احتجز هنا وسيموت جوعًا وحيدًا شريدًا في هذا العالم العجيب. تحرك وجسده يرتجف ناحية حافة الصخرة وهو يتعجب كيف بإمكانه أن يتنفس هنا؟ بل لاحظ أنه لا يتنفس أصلا مما أصابه بالفزع، ولكنه لاحظ أنه لم يختنق أو يمت رغم ذلك! كادت رأسه تنفجر من الأسئلة والخوف يتملكه من مصيره في هذا العالم والقلق ينهش كيانه عمّا يحدث لعالمه.

مشى بخطواتٍ رتيبة مترددة حتى وصل إلى حافة الصخرة وكان من حوله عدة صخور ومباني بيضاء متفرقة ومتناثرة بالقرب منه. بعضها يقف بالمقلوب، ورأى بعض السلالم التي كانت مقلوبة رأساً على عقب في زوايا عجيب لم يبصرها من قبل، وعندما اقترب إلى الحافة توجهت أحد الصخور البيضاء ووقفت أمامه لتشكل له طريقاً، فتراجع أنس في هلعٍ وسقط على الأرض ثمّ قام وتقدم ناحيتها ببطءٍ ووضع أقدامه عليها رويداً رويداً حتى أصبح فوقها ولم يحدث شيء، فأكمل طريقه حتى نهاية الصخرة فأتت صخرة أخرى والتحمت بالتي يقف عليها لتكمل له الطريق، فسار عليها وهو لا يدري أشرٍ يريده من هذا العجب أم خير. ضغط على نفسه وأكمل سيره إذ لم يجد سبيلاً غيره ليسلكه، وانبسطت الصخور أمامه لتشكل له طريقاً طويلاً لم يدري إلى أين يؤدي، وبعد المشي عدة دقائق هبط إليه مبنى حجري له سلالم فصعد السلالم البيضاء حتى وصل لنهايتها وبعدها وصل إلى سلالم أخرى مقلوبة ناحية اليمين متصلة بالسلالم الأولى في زاوية هندسية من عالمٍ آخر لا يمت لعالمه بصلة، فلم يدري كيف يصعد عليها، إذ أنّهُ لو حاول أن يمشي عليها فسيكون كالذي يحاول أن يمشي على الحائط، وبالتأكيد فإنه سيسقط ويهوي في الفضاء بسبب قانون الجاذبية. وقف يفكر في هذا المأزق وتعجب كيف يمكن لشخصٍ عاقل أن يبني سلالم ملوية لا يمكن لأحد أن يصعدها؟! نظر من حوله ولم يجد شيئاً، فأصابه القنوط واليأس وعلم أنه قد احتجز هنا، ولكنه تذكر أنهُ في عالمٍ عجيب كلّ شيءٍ فيه مقلوب وغريب، فمد قدمه إلى السلم وهو يلويها حتى كادت عظامه أن تلتوي معها، ثمّ مد قدمه الأخرى ورأى نفسه يقف على السلم بالمقلوب ولم يسقط إلى أسفل! فشهق واتسعت عيناه من

هذا وأحس وكأن كلّ ما حدث أنه غير زاوية سيره لا أكثر، فأكمل صعود السلم وجسده مقلوب، فرأى سلمًا آخر مقلوب حتى أن من يسير عليه فكأنه يسير على الحائط ورأسه تتدلى إلى أسفل، فقفز أنس عليه والتصق به ولم يسقط وسار وهو ينظر أسفله ويشعر بارتياب وبإحساسٍ عجيبٍ لم يجربه من قبل، فمن جرب أن يسير على حائطٍ من قبل ولم يسقط لأسفل على رقبته لتنكسر؟! استمر أنس في السير فوجد السلالم قد أصبحت لولبية فصعدها في دوائر وزوايا لا يستوعبها العقل ولا الخيال، حتى وصل في النهاية إلى بوابة نجمية مربعة غريبة مفتوحة وكأنها باب يقود إلى مكانٍ آخر، فتوجه إليها أنس وهو لا يدري ما الذي سيلاقيه داخلها من فزعٍ كوني ومن عجبٍ يجن منه أعقل الرجال.

دلف إليها فوجد نفسه على أرضٍ غريبة شفافة وكأنه يسير فوق الفضاء ويرى أسفله النجوم والكواكب والمجرات بألوانها الزاهية الخلابة. أكمل سيره وهو يطارده شعورٌ مزعج بأنه سيسقط في أيّ لحظة إلى الأسفل ويبتلعه الفضاء السحيق.

سار فترة طويلة حتى آلمته قدمهُ وفي النهاية وصل إلى غرفةٍ سوداء غريبة بابها مفتوح، فدلف إليها بحذر وهو يلتفت يمنة ويسرة مترقبًا المصيبة التي تنتظره في الداخل، وبمجرد أن دلف وجد ما ألجمه مكانه من هول المنظر، إذ رأى كيانًا ضخمًا أسودًا كلون الفضاء وبداخله تلمع النجوم والمجرات وكأن بداخله كون خاص أو أنهُ انعكاس للكون من حوله، ولم يملك أيّ ملامح تميزه، إنما كان كفضاءٍ شاسع تشكل على هيئة بشرية ضخمة، إذ كان طوله يصل إلى أربعة أمتار وكان مُقيدًا بخمسة سلاسل ذهبية من يديه وقدميه ورقبته، وكان يركع على قدميه مطرق الرأس في

صمتٍ مُطبق. فزع أنس من هيئته وتراجع في خوفٍ عارم استبد بمفاصله التي ارتعدت وتراقصت في عشوائية، فانتبه الكائن إليه وصدر صوته عميقًا وكأنه يأتي من أعماق الفضاء قائلاً:

- من أنتَ؟

ارتجفت شفة أنس وارتعد جسده بعنفٍ وتجمد مكانه وتمتم قائلاً وقلبه يختنق بين ضلوعه:

- أنا أنس.. من أنتَ؟ أو بشكلٍ أدق ما كُنهك؟

رفع الكائن رأسه ونظر إلى أنس بدونٍ أعينٍ أو ملامح وقال:

- أنا رايندیل، أقدم الكيانات العظيمة الأربعة.

- وما هي الكيانات العظيمة الأربعة؟

- إنها قصة طويلة ستجعلك تجلس معي مئات السنوات حتى أحكيها لك.. اقترب لأتعرف عليك أيها المخلوق الغريب.

تردد أنس وتراجع بتوجسٍ، فاحتار الكيان من أمره وقال:

- ما الذي يأخرك؟

- أنا لا أعرف ما أنتَ ولا أثق بك!

- وما هو مفهوم الثقة؟

- هل تمزح معي؟

- وما هو مفهوم المزاح؟ يبدوا أن عالمك يمتلك مفاهيم غريبة لا أفهمها.

- أتريدني أن أضحك من هذا الهراء؟

- وهل مفهوم الضحك شيء جيد في حالتك أم سيء؟

احتار أنس وشعر أن الأفكار تتصادم في عقلهِ حتى أن رأسه آلمته، فقال وهو يحاول أن يشرح:

- الثقة هي أن اقترب منك وأنا لا أخاف أن تقتلني أو تسلب روحي!

- آه. إذن أنتَ لا ترغب بأن أسحب روحك، ولكن لماذا سأفعل ذلك؟ إن روحك ضعيفة ولن تضيف لقوتي شيئاً. اقترب حتى أفهم ما تتحدث عنهُ من مفاهيم فأنا لا أملك هذا الخوف والمزاح والثقة والضحك، ولهذا فأنا لا أفهم دوافعك، ولكن إن لمستني فستنتقل إليّ أفكارك وذكرياتك ونظرتك لعالمك وللوجود. هلم الآن ولا تضيع الوقت فالوقت ثمين في هذا العالم.

اقترب أنس منه وقلبه يرقص على طبول خوفه لأنه علم ألا مجال للخروج من هنا إلا بالتواصل مع هذا الشيء. اقترب منه أنس خطوة خطوة وقد أحس بسلاسل تقيد قلبه، ولكنه تشجع ولمس يده فأحس بطاقة غريبة تسري بداخله ورأى نفسه يطير عبر الكون وبين النجوم وفي اللحظة التالية رجع مرة أخرى إلى مكانه.

نظر له الكيان وقال:

- يا لكَ من كائنٍ غريب، ما كل هذا التعقيد بداخلك؟ ما كل هذه الصراعات؟ مشاعرك وأفكارك وعالمك مليء بالتعقيد المُزعج. ولكنّي فهمت دوافعك وما يحركك. ولكنّي لا أشعر بما تشعر به ولا استوعب ما تستوعبه. يمكنك أن تقول أنّ لي مشاعر مختلفة بالكامل عنك لا تمت

بمشاعرك الإنسانية بصلة. فأنا لا أشعر بالخوف ولا الكره ولا الحب كما تشعر به أنتَ.

- إذن لماذا أنت مربوط بهذه السلاسل هنا؟

- لأنّي أعطي القوة لكل المخلوقات لتفجر قوتها الحقيقية.

- لا أفهم ما تقوله. كيف هذا؟

- الكيانات العظيمة الأربعة قوتهم ضخمة لا يتخيلها أي مخلوق من الأكوان المُتعددة، ولكنهم كانوا مجرد كيانات ضعيفة قبل أن يمنّ عليهم آيبريوس الكيان العظيم الأول ويعطيهم القوة ليكونوا خدمه وأولاده ويساعدوه على وضع التوازن في العالم، فقسموا هذه الأكوان بينهم ولكنّهم لم يفهموا المخلوقات التي تعيش تحت أيديهم ولهذا فإنهم كانوا يدمرونها ويشرعون بإبادتها إن بدأوا بإثارة الشغب أو إن تطلب الأمر ذلك. وكان الأب الأعظم للكيانات العظيمة لا يُرضيه هذا التدخل في حياة المخلوقات وإبادتها، واخلال نظام الكون، فحاول أن يوقف أبناءه فتحالفوا عليه وجزئوا روحه وحجزوها داخل أربعة ألواح عظيمة ووزعوها عبر الأكوان، وأما أنا فساورني الشك في حكمة اخوتي وإدارتهم للأكوان، وبالأخص عندما تبنوا بعض المخلوقات وأعطوهم القوة وجعلوهم أبناءهم وسلطوهم على الأكوان على هيئة كيانات تقتل كلّ حياة لا تراها مُناسبة أو تشعر منها بخطرٍ يُهددها في المستقبل، وبالأخص لأن أحد اخوتي يتلاعب بالأزمان ويعلم مصير كل كيان ومستقبله في حدود رؤيته، ولهذا فإنه يقضي على أي خطر قبل أن يظهر في المستقبل، وهذا عبر انتقاله بوعيه إلى المستقبل ورؤية التغيرات التي طرأت على الكون، ويحسب كل السيناريوهات الممكنة وكل البدائل التي ستؤدي إليها الأحداث. أما أنا

فقد بدأت بالتمرد عليهم وحاولت أن أعيد آيبريوس مرة أخرى، فبدأت بإعطاء القوة للمخلوقات لتدافع عن نفسها ضد أبناء اخوتي، فكلفوهم الكثير وهددوهم، ولكنهم اتحدوا عليّ وحجزوني هنا. ولكن قوتي لا زالت تعمل، فحاولت لآلاف السنين أن أحاول فتح البوابات إلى عالمي حتى يجدني أحد المخلوقات ويحررني، ولكن لم أنجح لمرة، لأن فتح البوابات صار مُحرمًا بين الأكوان.. ولكني استعملت كل طاقتي لتتبع أي بوابة تنفتح وتوجيهها إلى هنا حتى أتحرر.. كيف فتحت بوابة نجمية؟

- إنها قصة طويلة ولكنّ العلم البشري مكننا من فتح بوابات بين الأكوان أو ربما يمكنك أن تقول أنّ نيتو هو من ساهم في فتح هذه البوابات ولكنّي هربت منه.. سامحني ولكنّ قصتك غريبة كثيرا وقد أصابتني بالاضطراب ولا أستطيع أن استوعبها بعقلي البسيط.

- نيتو! أتقصد الكيان الذي أخذ عالمك وأحاله ظلامًا.

- هل تعرفه؟

- لا، ولكنّي رأيته عندما لمستك، ورأيت ما فعل بعالمك. لا أعلم ما يحصل في الكون فأنا محجوز هنا منذ زمنٍ أطول مما يستطيع عقلك أن يستوعبه، فهذا العالم الذي نحن فيه يمنعني عن رؤية ما يحصل في العوالم الأخرى. ولهذا فلا بد أن الكيانات تجددت وظهر الكثير منها بعد اختفائي، ولكنّ توجه هذا الكيان عجيب وغريب عمّا يفعله اخوتي. فهو لديه هدف يسعى إليه، ولهذا فهو يحيل العوالم إلى ظلام. فهو لا يفعل ما يفعل من أجل الإبادة كما يفعل اخوتي، وأنا لا أظن أنه ينتمي لإخوتي. إذن كيف حصل على قوته هذه وما هو هدفه الحقيقي؟

- هل يمكنك أن تمد ليّ يد المساعدة لتحرير عالمي وإنقاذه منه؟

- يمكنني هذا إن حررتني من هذه القيود.

- وما الذي يضمن ليّ أنك لست مثل هذه الكيانات المجنونة التي ترغب في الهيمنة على عالمك، وأنه بمجرد تحريرك ستخونني وتقتلني.

- وما هو الجنون؟ وكيف أخونك؟ أنت ستحررني فما الخطأ في هذا؟ كما أن عالمك أقل من أن أطمع فيه فأنا كنت أحكم آلاف العوالم التي كانت أضخم من عالمك بأضعاف.

- آه. كيف أشرح لكَ.. إنه أمر مُعقد.

- أنا لا أفهمك بالكامل أيها الإنسان، فهذا القيد يمنعني من أن أشعر بك بالكامل وأن أفقه أفكارك وأحس بمشاعرك.. أنت كائن معقد يتصارع كلّ من عقلك وقلبك وروحك ورغباتك في معاركٍ لا نهاية لها. كيف تتعايش مع هذه المشاعر المُتناقضة؟

- من أين ابدأ.. أتعايش معها لأنها تجعلني ما أنا عليه.. صحيح أن هذه الصراعات مُزعجة ومؤلمة ولكنك تعتاد عليها بعد فترة وتتعايش معها وتحاول أن تخفف منها وتتفهمها.. محاولة فهم الذات تمكنك من التحكم بها واستعمال الطرق والوسائل النفسية لترويضها ورغم هذا فستفشل من فترةٍ لفترة وعليك أن تتمسك بالخالق.

- أنتَ لست أعقد الكائنات التي رأيتها ولكنك من أعقدها بالتأكيد. فلتحررني وسأساعدك.

- وكيف أفعل هذا؟

- المسني وسأعطيك من قوتي لتحررني، وستصير من أولادي وسنشترك في الوعي والمشاعر على الرغم من أنّي لا أرغب بمشاعرك المُضطربة، ولكن هذا الحل الوحيد لأتحرر من هذه القيود الأبدية!

- أعذرني ولكنّي لدي والدٌ بالفعل ولا أحتاج لوالدٍ ثانٍ.

- هل لديك والد من الكيانات العظيمة؟ هل تعرف اخوتي؟

تنهد أنس بيأسٍ وقال:

- يا إلهي ماذا فعل بك إخوتك ليجعلوك هكذا.

- هذه السلاسل تشوش باستمرار على كياني وعالم أفكاري وتجعلني أنسى وأنا لا أنسى، ولهذا فقد أنسى من أنت بعد فترة وجيزة ونُعيد الكلام من البداية. ولكنّ هناك بعض الذكريات الثابتة التي لا يمكن محوها منّي.. والآن المسني ولتصبح من أبنائي.

ابتلع أنس ريقه وأحس كأن الكون يريده أن يُجن حتى يموت من كثرة العجب الذي رآه في هذه الفترة. جنون يليه جنون لا ينتهي، وكأن كلّ ما يعرفه لا يمثل شيء في حقيقة العوالم وما تملكه من أشياء تُخالف كلّ قوانين عقله البسيط الساذج. اقترب أنس منه وأدرك أنه لن يخسر شيء فهو بكلّ الأحوال سيموت على يدِ نيتو إن عاد. عدل ياقته ونظارته ومرر يده على شعره وأخذ يقفز وكأنه يقوم ببعض التمارين الرياضية ويهز رأسه باستمرار ليشجع نفسه، فقال له الكيان:

- أهذا هو الجنون الذي كنت تتكلم عنه؟

وضع أنس يده على وجهه وشعر بالإحراج وتحرك ناحيته وبعد أن وصل إليه، نظر الكيان في عينيه فشعر أنس برجفة طويلة تسري في

جسده وبعدها وضع يداه على يدهُ اليمنى المُقيدة فأحس بطاقة رهيبة تتخلله وذكريات كثيرة تمر من أمامه وعوالم متعددة بألوانٍ وأشكالٍ عجيبةً لا قِبل له بها، ورأى شذرات من هيئات إخوته المُفزعة ومن حربهم معه، وأحس وكأن آلاف المعلومات تدخل إلى عقله دفعة واحدة فآلمه رأسهُ حتى شعر أنهُ سينفجر من الألم فأخذ يصرخ بأعلى صوته إذ تغيرت هيئته باستمرار وتشكلت وتبدلت وكأنه يتحول إلى كائنٍ جديد يختلف كلّ الاختلاف عن هيئته البشرية الضعيفة.

***

الفصل الحادي والعشرون

الكوكب المُظلم

غضب نيتو مما فعله البشر به، وأدرك أنهُ استخف بعالمهم كثيرًا فهو ليس بالعالم السهل الذي ظنه؛ وهذا لأنهم يطوعون عالمهم المادي لصالحه ويستعملونه في الكثير من الأسلحة، ولكنه ليس بأصعب العوالم التي مرت عليه ولهذا فقد قرر أن يُطلق العنان لظلامه حتى ينهي هذه المهزلة التي جعلت مخلوقات دنيئة كهذه تسبب له هذه الإصابات. فرفع يده إلى السماء فانطلق الظلام من يدِه وتَكَتَّل إلى السماء فوقه في طبقات شديدة الصلابة يتلوها طبقات متتالية حتى وصلوا إلى سبع طبقات صلبة من التكتل الظلامي، وعندما حاولت الأقمار الصناعية أن تضرب اشعتها الحارقة اصطدمت الأشعة بالطبقات السبع ولم تستطع أن تخترقها، فانتظر نيتو بعض الدقائق حتى عاد جسده كما كان والتأمت جراحه. نظر أمامه ومد يده لتتشكل آلاف المحافل أمامه وأمرها بالتقدم، فصرخت صرخاتها المفزعة وتقدمت وطار هو معها إلى الأمام ليخترق الأفاق ويلف الكوكب بالظلام بأسرع وقتٍ ممكن حتى يصل إلى من يضربونه

بهذه الأقمار الصناعية، وفي الأيام التالية نشر الظلام والرعب في كل أفريقيا وهاجر مُعظم سكانها إلى أوروبا التي لم تعرف كيف تدخل كل هذه الأعداد الضخمة إلى بلادها ولكنهم أدركوا أن منعهم من الدخول سيسبب حروبًا ونزاعات لا قِبل لهم بها في هذا المأزق، فسمحوا لهم بالدخول والرعب قد استبد بهم من مصيرهم القادم إن لم يستطع أحد أن يوقف هذا الرعب. وقد حدثت أزمات في الطعام ونزاعات واضطرابات داخلية وحروب أهلية وشغب، أما الرؤساء فقد وقفوا عاجزين بعد أن أصبحت الأقمار الصناعية لا تجدي نفعًا، فقرروا أن يستعملوا فكرة أخيرة. فجلبوا كلّ العلماء من كلّ البلدان وطلبوا منهم أن يصنعوا في فترة قياسية سلاح ضوئي يستعمل طاقة الشمس أو الكهرباء ويقومون بشحن الكثير من البطاريات استعدادًا لاختفاء الشمس، وحددوا أن المعركة النهائية ستكون في أوروبا ضد نيتو. إما أن ينقذوا عالمهم أو أن يبادوا بالكامل. اشتغل ملايين العلماء ليل نهار وطفقوا يضعون النماذج ويستعرضونها وبعد فترة طويلة كان الظلام قد أحاط نصف أوروبا الشرقي وجزء كبير من أسيا، استطاعوا أن يصنعوا السلاح المثالي وجهزوا منه الآلاف في خلال أيام قليلة وحملوه على السفن والطائرات وذهبوا ليعسكروا في أوروبا بجيوش البشر كلها متحدة، وقد كان يبلغ عددها الملايين. تجهزت الطائرات والأسلحة الثقيلة وترسانات الصواريخ للتصدي لنيتو ووضع حد له.

ووقف الجيش على حدود ألمانيا ينتظرون قدوم الظلام ووضعوا أسلحة الضوء في أول الصف وجهزوها بالجنود، وقد كانت مدافع بيضاء طويلة بمجرد تشغيلها تضيء باللون الأزرق وينطلق منها شعاع مكثف وحارق من الضوء. وبعد ساعات قليلة رأوا الرياح الباردة تضربهم فرجفت أبدانهم من الخوف والبرودة، ومرت بعض الدقائق حتى حلّ

الظلام فأضاءوا آلاف الكشافات التي تستعمل البطاريات ووجوهها ناحية مصدر الظلام فأحالوا الظلام نوراً. قبض الجنودِ على أسلحتهم بأيدٍ واهنة ووقفت الطائرات المروحية فوقهم تهدر استعداداً لملاقاة أكبر خطرٍ كوني تعرض له البشر منذ الخليقة.

وبعد دقائق وصلت جحافل الظلام تصرخ وتركض ناحيتهم فصرخ القادة للجنود أن اصبروا فأنتم أمل البشرية الأخيرة.

بدأت الطائرات تقصفهم بالصواريخ الواحد تلو الآخر لتفجرهم من شدة حرارتها وقوة انفجارها، وانهالت عشرات الصواريخ على هذا الجيش الضخم من الكيانات المُظلمة فَعَلَت الانفجارات ووصلت عنان السماء وأغشت الأبصار من شدة نورها، ولكن الجحافل نالت الواحدة تلو الأخرى وآلاف الطيور الضخمة العظيمة تحاول أن تنقض على الطائرات فاضطرت الطائرات أن تركز عليها وتركت الأرض.

بدأت المدافع بدورها وطفقت تقصف الكيانات بقوة حتى فجرت العشرات منهم دفعة واحدة ولكنهم كانوا يخرجون كالجراد من كلّ اتجاه ولا تقل أعدادهم البتة. استمر القصف واستمر تقدم الكيانات، بأنواعها المُختلفة وقدراتها المتنوعة، وسرعان ما وصل نيتو إلى المعركة بهيئته الرهيبة ليغير من مسار المعركة. بإشارة واحدة من يده هبطت أيدٍ سوداء من الدخان من السماء وأمسكت بعدد كبير من الطائرات وسحقتها، وبحركةٍ أخرى خرجت آلاف الأيدي وسط الجنود وشرعت تسحبهم وتسرق أرواحهم حتى دب الرعب والفزع بين الجنود واضطربت الصفوف، فوجه الجنود في مؤخرة الجيش الكشافات ناحية هذه الأيدي فانحسرت الأيدي وتأذت من النور واختفت بعد أن سحبت آلاف الجنود دفعة

واحدة. وجه الجنود الأسلحة الضوئية إلى نيتو وعلموا أنهم إن قضوا عليه فسينتهي كلّ شيء، فقرروا أن يجتثوا رأس الأفعى حتى يموت باقي الجسد. وجهوا المدافع الضخمة وأطلقوا الأشعة تلو الأشعة فتفاداها نيتو بينما اصطدمت بعض الطلقات به لتحرق أجزاء من جسده فأدرك أن الأقمار الصناعية لم تكن الازعاج الوحيد الذي اخترعه البشر. انطلق نيتو ناحيتهم وهو يتفادى الطلقات الواحدة تلو الأخرى ولكنها تكاثفت عليه حتى وقف وأخرج أيدٍ سوداء ضخمة من الأرض وقفت أمامه لتحجب الطلقات عنه وتتصدى لها، وبعدها تحول نيتو إلى دخان وهبط تحت الأرض وتحرك أسفلها بسرعة ولكنه لاحظ عدة انفجارات في الطبقة الأولى من الأرض، والتي كانت عبارة عن ألغام أرضية وضعها الجيش حتى ينفجر إذا حاول أن يتحرك تحت الأرض، انزعج نيتو فهبط إلى درجة أعمق حتى يتجنب الألغام وانتظر حتى وصل أسفل هذه المدافع ثمّ صعد وانتشر دخانه حول الجنود وتحرك في كلّ اتجاه لتتحطم المدافع من حوله الواحد تلو الآخر، وتنسحب الأرواح إليه لتمده بالقوة والطاقة. وبعدها خرجت كيانات ضخمة كالثعابين والديدان من تحت الأرض تبتلع الجنود وتحطم الدبابات والمدافع وتقسم الجيش إلى أجزاء تهرب يمنة ويسرة كالفئران. فعلم الجميع أنها النهاية بعد أن تحطمت كلّ مدافع الضوء، وتلاها تحطم الكشافات عن طريق مخلوقات الأرض الرهيبة.

أصاب الرعب البشر وأدركوا أن مصيرهم السقوط أمام كيان الظلام الذي لا حدود لقوته وطاقته. تشكل نيتو لهيئته المُفزعة مرة أخرى وأطلق الأفاعي الخمسة العظيمة التي تبرز من ظهره فاندفعوا يضربن الأرض ويلتهمن الأرواح الهاربة في طريقهن حتى فزّعوا عن قلوب الجنود

المساكين الذي قادهم حظهم السيء لمواجهة شيء بهذه القوة والبشاعة. بسط نيتو يده بنشوة وقد أدرك أنه انتصر على هذا العالم أخيرا.

ولكنّ وعلى حين غرة اصطدم به شيء ما بقوة من خلفه ليصرعه على الأرض فتحطمت الأرض من ضخامة جسد نيتو وتفاجئ بدوره من هذا التغير المفاجئ، فلملم شتات نفسه وحلق إلى الهواء مرة أخرى لينظر إلى من تجرأ على لمسه فوجد كياناً مُضيئاً وجميلاً له ستة أجنحة ذهبية عريضة ويمسك برمحٍ ذهبي طويل في يده اليمنى وينظر إليه قائلاً بصوتٍ هز أرجاء المعمورة:

- لقد انتظرت هذه اللحظة منذ ألف سنة والآن حان وقت القصاص.

***

أحس أنس بالقوة تتدفق بداخله بكميات لم يكن يتخيلها في حياته وبعدها أفاق وأحس بأنه أكثر طولاً وأشد قوة فوضع يده على رأسه من الألم الذي اختفى تدريجياً حتى عاد إلى هيئته التي اعتاد عليها.

نظر له الكيان وقال:

- لقد أصبحت ابني الوحيد الآن وهذا لأن كل أولادي قد قتلوا. والآن حررني حتى نعيد النظام إلى الأكوان ونوقف اخوتي.

كان أنس قد دخل إلى أفكاره ورأى حقيقته المعقدة التي تفوق وعيه الطبيعي وأدرك أنه ليس الخطر الحقيقي في الكون، وأن نيتو ما هو إلا بداية لما هو قادم من رعبٍ كوني يتخطى المعقول والمفهوم. اقترب أنس من السلاسل العجيبة وبضربةٍ واحدة من يده قطع السلسلة الأولى ولكنه تعجب من هيئة يده الغريبة، إذ كانت مشعة بضوءٍ ذهبي لامع

وبراق وفاقع، فنظر لباقي ذراعه فوجدها مُغطاه برداءٍ مما يبدوا أنه حرير أبيض مزركش بنقوشٍ دائرية ولولبية متداخلة مع بعضها البعضٍ من الذهب والفضة، ووجهه يضيء بنفس النور الذهبي وعلى جبينه عينٌ ثالثة حمراء كالياقوت فوق عيناه البيضاوان، وينسدل شعره، الذي كانت خصلاته نصف فضية ونصف ذهبية، إلى الأرض، وأحس بشيءٍ في ظهره فرأى ستة أجنحة ذهبية طوال وعظام مُشتعلة بنورٍ شديد الجمال، قال أنس بصوته الجديد الذي كان يتردد في كلّ الأرجاء كألف صدىً:

- ما الذي حدث لي؟

قال الكيان وهو يحرر يده الأخرى ورقبته بيده التي تحررت:

- إنها هيئتك الجديدة. لقد جعلتها أجمل ما يمكن أن يُناسب عالمك. ستساعدك في مهمتك ولكنّي لا أضمن لكَ النصر فهذا يعتمد عليك أنت. أما أنا فلدي أمورٌ أخرى عليّ تسويتها.

وضع الكيان يده على الهواء وكأنه يفتح باب مِصعد بيده فتشقق الهواء وتباعدت الذرات وانفتحت بوابة نجمية في الهواءِ فقال وهو يتجه إليها:

- إذا انتهيت من مهمتك فستعرف كيف تجدني. عسى أن نلتقي قريبًا يا ابني الأعظم. ولكن عليك أولاً أنّ تتدرب هنا ألف عام حتى تتمكن من هزيمة نيتو، وبعدها اذهب إلى عالمك.

قال أنس معترضًا بحنقٍ ونفاد صبر:

- ألف عام؟ هل تمزح معي؟ سيكون عالمي قد تلاشى بالكامل وكلّ من أعرفه قد مات!

- لا. فالوقت هنا ابطأ من عالمك بكثير ولهذا اختار اخوتي هذا العالم حتى يمر الوقت بطيئًا لا يتحرك عليّ فيتشوش عالم أفكاري. سيكون قد مر بضعة أيام عندما ترجع إلى عالمك، ولكنك بالتأكيد ستشعر بالألف عام هنا بكل تفاصيلها. ولكن هذه هي الطريقة الوحيدة لتهزم نيتو ولا أمل لكَ غير هذا. إن توجهت الآن إليه فسيقتلك بكل سهولة. أما أنا فعليّ أن أنهي ما بدأه إخوتي فأنا الأقوى فيهم ولكنيّ لا أستطيع أن أضاهيهم مجتمعين ولهذا فهذه المرة سأسقطهم الواحد تلو الآخر.

دلف إلى البوابة وانغلقت وراءه فوقف أنس لا يعلم ما عليه فعله في هذا المأزق، وكيف يتحمل هذا العذاب لألف سنة حتى يعود لعالمه، فندب حظه وضرب بقبضته الحائط أمامه فتحطم على إثر ذلك وظهر الفضاء الغريب من خلفه. تنهد أنس وأدرك ألا أمل أمامه إلا أن يفعل كما أخبره هذا الكيان الغريب. وأدرك أنها فرصة للتعرف على هذا العالم الغريب ودراسته وفهمه أكثر وأيضًا حتى يفهم قوته الجديدة ويستوعبها ويتقنها.

وفي السنين التالية ظل أنس يتنقل بين هذا العالم المقلوب يتدرب ويتفحص مخلوقاته ويصادقها ويساعدها إن تطلب الأمر ويفهم قوانين هذا العالم حتى أحس أنّ وعيهُ وذكاءهُ وقوتهُ يزدادون إلى درجة لم يتخيلها في حياته، وحصل على تقدير المخلوقات وجعلته أسطورة في عالمهم، حتى مر ألف عام من التدريب الشاق والمُرهق والإحباط من بطء مرور الوقت حتى أنه يأس في أحيانٍ كثيرة أن تنتهي هذه السنوات الطوال العجاف، فقد عاش ما يعادل حياة خمسة عشر جيلاً من البشر أو أكثر فقط من أجل تحرير عالمه، وكانوا عليه أثقل من أن يقضي حياته البشرية المحدودة في أسوأ سجون العالم، ولكن كان يخفف عن نفسه بدراسة

الكون من حوله والتفكر والتأمل، وكان يحس أنه كلّ قرنٍ يمر يزداد في الحكمة والذكاء وتتعمق رؤيته وترتفع قوته ويرى الكون بشكلٍ مختلف، حتى حان وقت العودة.

***

وقف كلّ من كريم وإلياس داخل مبنى الأبحاث في أحد الغرف وبعض المخلوقات تحرسهما حتى لا يهربا بينما يجلس مهند على أحد الكراسي أمامهما وقد أغلق عينه ليراقب المعركة ضد البشر من عيون نيتو لأنه متصل به برابط روحي قوي، ومن حسن حظهم أنهم كانوا على مسافة بعيدة من هجوم الطائرات والأقمار الصناعية ولكنهم شاهدوا أثرها العظيم من أماكنهم واهتزت قلوبهم من قوة القصف وضخامته وأصواته الرهيبة حتى أنهم رأوا النيران من أماكنهم وهي ترتفع إلى السماء.

تأفف إلياس وقال لكريم وقد نفد صبره:

- هل هناك فرصة لنهرب من هنا؟

هز كريم رأسه بيأسٍ وقال:

- وإن هربنا فما الفائدة؟ إلى أين سنذهب وكيف سنقضي على نيتو إن لم تقضي عليه جيوش العالم.. علينا أن ننتظر لعلهم يتمكنون من قتله بطريقةٍ ما.

نظر إلياس إلى مُهند وصرخ فيه قائلاً:

- أيها الخائن أخبرني بما يحدث في الخارج؟

فتح مُهند عينهُ والابتسامة السوداء ترتسم على وجهه وقال:

- لا تقلق فكلّ أسلحة البشر العظيمة لم تنفع مع سيدي كما توقعت، وهو الآن يسحق آخر مقاومة قوية للبشر حتى نتحكم بهذا العالم ونطهره للأبد.

- ولماذا تحبسنا هنا؟

- لأنكما ممن سيبدئون نسل البشر من جديد عندما نسحب كل الأرواح المُظلمة من على الكوكب، ولهذا فعليّ أن أحافظ عليكما.

جلس كريم وأصابه القلق لما حدث لزوجته وأولاده ووالده ولما أصاب أنس الذي اختفى ولم يعلموا مصيره ولا مآله، وجلس يدعوا الله أن ينجيهم جميعًا.

رأي مُهند نورًا غريبًا من على يساره فوقف ليتفقده، فرأى بوابة غريبة تنفتح أمام أعينهُ فرفع حاجبه الأيمن بتعجب وتوجه إليها ليتفقدها ولكنه تفاجئ بكائن غريب يخرج منها ويفرد أجنحته الذهبية العظيمة وفي اللحظة التالية تحرك هذا الكائن بسرعة كبيرة ولكم مُهند في بطنه فبصق مُهند الدماء السوداء من فمه واندفع للخلف من قوة الضربة وحطم الحائط ليخرج من مركز الأبحاث ويصطدم بأحد الأبنية القريبة ويستقر فيها وقد أحس أن عظامه كادت تتحطم. انتبهت المخلوقات لهذا فتوجهت ناحية هذا الشيء وهي تصرخ بينما اتسعت أعين كلّ من كريم وإلياس من هذا التغير المفاجئ والجنوني في الأحداث. اقتربت المخلوقات من هذا الكيان الجميل والمضيء فمد يده إلى الأمام ليخرج من العدم أمامه رمح ذهبي فيه ثلاثة جواهر متتالية بلونٍ أحمر وأزرق وأخضر مُشع، ولهُ نصل حاد وعريض ويحتوي على خطوطٍ من النور المضيء، فقبض الكيان على الرمح بيده اليمنى

ولفهُ في الهواء بحركاتٍ سريعة ورشيقة فقفزت عليه المخلوقات لتنقض على روحه فلف رمحهُ عدة لفات ليقطعهم نصفين فيتحولون إلى ترابٍ أسود. نظر الكيان إلى كريم وإلياس وأشار إليهما بيده بأن يبقيا هنا، وتقدم إلى الخارج فرأى الكثيرِ من المخلوقات البشعة تنتظره؛ فتحرك بسرعة من بينهم وهو يحرك رمحهُ يمنة ويسرة حتى جعلهم هباءً منثورا، وبسط أجنحته الستة العظيمة المُضيئة لتلمع وسط ظلام وعتمة الليل الداكن وليهتز ويتطاير شعره الطويل اللامع من شدة الرياح، وعندما همّ أن يُحلق رأى مُهند وهو يخرج من المبنى المحطم وهو يترنح قائلاً وقد خرج عن طوره:

- لن أخذل سيدي هذه المرة وأجعلك تمر من هنا لتعكر صفوه أيها الشيء البغيض.

تكلم الكيان بصوته الجميل العذب وقال:

- لم أتخيل يومًا أن أقاتلك يا رفيقي العزيز ولكن هكذا هي الحياة.. أما أنتَ فتحتاج أن تتدرب ألف سنة مثلما فعلت حتى تهزمني.

وقعت كلماته على مُهند كالصاعقة فتمتم وقد أصابه التوتر قائلاً:

- أنس! هل هذا أنت؟ كيف أصبحت هكذا؟

- إنها قصة طويلة ولكن يبدوا أنني أصبحت روحًا مُضيئة أكثر منك.. والآن تنحى من أمامي فإن خصمي هو نيتو وليس أنتَ.

تبدلت ملامح مُهند إلى التصميم والشراسة وقال وهو يركض ناحيته والظلام يُحيط بجسده ليعزز قوته:

- لا يهمني كيف أصبحت هكذا ولكنّي لن أدعك تمر من هنا.

ركض مُهند ناحية أنس وتحرك كسرعة الظل في كل اتجاه واستغل انعدام الرؤية وشدة الرياح ليوهم أنس أنهُ في كلّ مكان في نفس اللحظة عن طريق استعمال الظلال لتتحرك في كلّ الاتجاهات فتشوش على رؤية أنس، فتبسم أنس قائلاً:

- كم أفتقد الأبعاد الطبيعية سهلة التنبؤ في عالمنا.

وعلى حين غرة جاء مُهند من خلف أنس بسرعة كبيرة لينقض عليه فالتف أنس ليفاجئه ولكمه لكمة في وجهه أسقطته أرضًا وقد أحس أن جمجمته كادت تنشق نصفين وبعدها أمسكه أنس من رقبته ورفعه وقال بأسى:

- أنتَ لا تعلم كم أضعتم من وقتي وعمري لأرجع إلى هنا مرة أخرى.. لقد كنت أنتظر هذه الفرصة من ألف عام طوال ظننت أنهم لن يمروا أبدًا من شدة طولهم وصعوبة التدريبات، ولكنهم مروا في النهاية وجئتكم من جديد.. والآن حان الوقت لتطهر من ظلامك.

أضاءت يد أنس بضوءٍ ذهبي براق غشي وجه مُهند فشرع يصرخ صرخات مُفزعة والضوء يتخلل وجدانه وخلاياه حتى أحس أنه كالمصباح المضيء وأحس بالظلام يهرب من جسده ويحل محله ضوء براق مريح أراح قلبه المضطرب وعندما أفاق كان أنس قد غادر مبتعدًا ورأى مُهند أنه قد فقد معظم قوته، فلعن حظه وضرب الأرض بغيظ وسرعان ما شعر بمسدس إلياس على رأسه من الخلف وهو يهدده أنهً إن تحرك فسيفجر رأسه على الفور.

***

الفصل الثاني والعشرون

إلى النجوم

وقف نيتو ينظر إلى هيئة هذا الشيء الذي كان قد تضخم حتى أصبح يُضاهيه حجمًا وأحس أن هناك من يهدده أخيرًا فقال بصوته الذي يدوي كآلاف الأرواح المُعذبة:

- من أنتَ أيها الشيء؟

قال أنس وهو يعدل من وضعية رمحه:

- ألا تتذكرني.. إنني الروح المُظلمة التي أفلتت من يدك منذ ألف عام.

دقق نيتو النظر إليه وقال باستهجان:

- ألف عام! إذن فهذا أنتَ! ولكنّه لم يمر على اختفاءك أكثر من عدة أيام فكيف عدت بهذه القوة؟ أم أنكَ.. يا لحمقٍ ما فعلت. هل حررت أريناديل وعقدت معه عقد قوة؟ سوف تبدأ حربًا كونية لا نهاية لها، لقد كنت أسعى إلى عكس هذا.

وجه أنس رمحه ناحية نيتو وقال:

- لقد فعلت ما كان يجب فعله لقتلك ولا هدف ليّ الآن إلا هذا.

نظر له نيتو نظرة تطق شررًا ورفع يده ليُخرج سيفًا ضخمًا شديد السواد واللمعان وكأنه مُغلف بالعاج واندفع ناحية أنس الذي رفع رمحه وتوجه إليه لترتطم الأسلحة ببعض مما أدى إلى صدمة كونية هزت الأرجاء من حولهما وأسقطت الجميع على الأرض وحطمت بعض المباني والأسلحة وسحقت بعض البشر وبحافل الظلام.

التف أنس في الهواء وهو يضرب برمحه عدة ضربات تصدى لها نيتو ببراعة ووجه بسيفه الأسود الضخم ضربة عنيفة إلى رمح أنس فصدها بدوره وتراجع إلى الخلف وبعدها اندفع برأس رمحه إلى الأمام بسرعة كالضوء ليصير الرمح وكأنه ألف رمح، فتراجع نيتو إلى الخلف وهو يتصدى لكل ضرباته بسيفه الضخم ولكنه تلقى عدة طعنات في خصره وكتفه، فأخرج أيدي من الظلال من الأرض فقبضت على أنس وأخذت تسحقه داخلها، ولكن جسده أضاء بنورٍ عظيم فتبخرت الأيدي وبمجرد أن تحرر منها وجد نيتو يندفع برأس سيفه ليطعنه فبسط يده اليسرى ليخرج حاجز من الضوء الذهبي أمامه فيتصدى للسيف الأسود، ولكن نيتو شرع يضغط بسيفه على الحاجز حتى أخذ يتشقق فخلق أنس إلى الأعلى فمرت ضربة السيف من أسفله لتصطدم بأحد الجبال فنسفته نسفاً، فخرج نيتو من بين الركام ليرى رمح أنس يطير فوقه ويتحول إلى مئات الرماح الضوئية المُشعة، فأشار أنس بيده ناحية نيتو فانطلقت مئات الرماح الضخمة والعظيمة ناحيته كالصواعق المُرسلة. صنع نيتو أمامه ثلاثة طبقات من الظلال الكثيفة لتتصدى للرماح فارتطمت فيها الرماح

الواحدة تلو الأخرى وصدمتها صدمات عنيفة وعتية حتى تحطم الحاجز الأول وظل نيتو يضغط بيده ليعزز الحواجز بالظلال ولكن سرعان ما تحطم الحاجز الثاني من كثرة الرماح التي كانت الأرض تتحطم من ضرباتها والسماء تهتز لقوتها، فتحطم الحاجز الثاني، فوضع نيتو سيفه الضخم على الأرض ورفع كلتا يداه وعزز الحاجز الأخير بكل ما يملك من قوة وظلام فتتالت الضربات عليه لتزعزعه ولكنه ظل متماسكًا وثابتًا حتى انتهت كلّ الرماح بعد أن حطمت نصف الحاجز، فأمسك أنس برمحه الوحيد في يده والتف في الهواء حول نفسه وقذفه بأقصى ما يملك ليصطدم بالحاجز الأخير ويندفع ليحفر وينهش في الحاجز، فشرع نيتو يضغط بكلتا يداه على الحاجز وهو يشعر بقوة الرمح تثقبه بلا هوادة، فصرخ بأقصى قوته وهو يدفع يده إلى الأمام ويعززه بأقصى ما يملك من قوة ولكن الرمح اخترق الحاجز وعبر إلى بطنه. تألم نيتو بشدة وكانت هذه أول مرة يحس بهذا الألم العظيم منذ آلاف السنين، وشعر بكيانه يتذبذب ويهتز ويتلاشى وأدرك أنها نهايته إن لم يتصرف، فجمع آخر قوته وقال بصوت اهتزت له قلوب البشر التي كانت تتصدى لمحافل الظل وتشاهد في نفس الوقت هذه المعركة العجيبة التي لا يفهمون منها شيئًا:

- أيها الأب أعطني بعض الأرواح التي أعطيتك إياها وإلا فلن تستطيع أن تعود إلى الوجود، وأعدك أنّي سأجمعها لكَ مرة أخرى.

انفتحت بوابة خلف نيتو وظهر منها لوح أسود ضخم منقوش عليه وجه غريب ومجهول لم يره أنس جيدًا وفي اللحظة التالية انفتح الفم المنقوش على اللوح الضخم وخرجت منه الكثير من الأرواح الشفافة لتحيط بنيتو وتتدفق داخله لتزداد قوته أضعافًا، فمد أنس يده ليطير الرمح من جسد نيتو ويعود إلى قبضته وعلم أن المواجهة الحقيقية ستبدأ الآن إذ أحس أن

حياته وحياة عالمه على المحك الآن. تدفقت الآلاف من الأرواح داخل جسد نيتو ليشعر بالقوة تنهال في عروقه وتشحن كيانه، فقال وهو يشعر بنشوة هذه القوة العظيمة:

- أعطني المزيد من الأرواح المُظلمة.

وبعد فترة وجيزة أغلق اللوح فمه وتوقف اندفاع الأرواح واُغلقت البوابة بلا عودة، فصاح نيتو صيحة اشتدت معها الرياح وانتشر الظلام يضرب الأرجاء كريح صرصر عاتية حتى اندفع أنس من قوتها إلى الخلف وأخذ يقاوم بأجنحته هذه الرياح العظيمة، وأحس أن مستوى نيتو قد اختلف تماماً. هدأت الرياح ووقف نيتو وقد أحاطته هالة مرعبة من السواد، فقال أنس وقد لفت انتباهه ما حدث وأثاره:

- من هذا الأب؟ هل تقصد الأب العظيم للكيانات الأربعة؟ إذن لهذا تعجب الابن الرابع من تصرفاتك التي لا تخدم الأبناء الثلاثة!

قال نيتو والطاقة تتدفق بداخله وتشعره بشهوةٍ عظيمة:

- لقد كنت أسعى أنا إلى تجميع الألواح وإعادة الأب الأعظم إلى هيئته الحقيقية لينتهي تسلط الأبناء وظلامهم الذي لوث العالم دون أن ندخل في حربٍ كونية أخرى مدمرة.. وسافرت عبر الأكوان أطهرها وأبحث عن الألواح وأتخلص من أبناء الإخوة الثلاثة العظام، وقد حصلت على قوتي لأهزمهم بفضل أنني عثرت على اللوح الأول وهو لوح الظلام الذي يحبس جزء من روح الأب الأعظم وقد عرض عليّ الأب الأعظم بأن أخدمه وأطهر العوالم من رجز وظلام أبناءه وإعادة جمع شتات روحه من جديد، ولقد ضحيت بكلّ ما أملك وشرعت بجمع كل ظلام الأبناء الثلاثة داخلي حتى أطهر العوالم وأنهي سيطرتهم وأرجع

الأب ليُعيد التوازن وينهي تواجدهم وفسادهم.. إن هذا الشر الذي تجده داخل كلّ مخلوق حي يرجع من تأثيرهم على الأكوان.. والآن إن كنت تريد أن تنقذ الأكوان فلتنضم لي وتخدم الأب الأعظم.

قبض أنس على رمحه وقال وهو يلوح به في الهواء:

- لن أخفيك علمًا بأنّي لا أهتم بهدفك ولا بإرجاع هذا الكيان الذي لا حد لقوته إلى الوجود إذ أنه من جلب علينا من البداية كلّ هذه المصائب بفضل اعطاءه القوة لمن لا يستحق.. ولكن إن كانت عودته ستقضي على كل هذه الأرواح وتحيل العالم إلى هذا الظلام فإنني سأوقف هذه المهزلة، فأنا عالمي لم يتعرض له بسوءٍ أحد من الأبناء الثلاثة وإنما تعرضت أنت له وقضيت عليه وحطمته، ولهذا فإن هدفي سيكون القضاء عليك نهائيًا وإرجاع الحياة كما كانت.. وأظن أنك تجمع كل هذه الأرواح لتغذي بها الأب حتى يستعيد قوته. يبدوا أنه لا يقل سوءًا عن أبناءه، ويبدوا أن هدفك الفلسفي الشريف بتطهير العالم هو مجرد صورة تخفي وراءها الحقيقة المُظلمة.

أمسك نيتو بسيفه وتحول في يده إلى منجلٍ طويل أسود، وفي لحظة وجده أنسٍ يندفع ناحيته بسرعة هائلة فرفع رمحه وبالكاد تصدى لضربته ليصيبه بعضا منها في ذراعه اليسرى فيتدفق الضوء من الجرح. وعلى حين غرة انطلقت أفاعي نيتو الخمسة من ظهره لتعض أنس من كتفه وذراعه وأقدامه فتقيده وتنفث سمومها السوداء داخله فتألم أنس ولكنه مد يده اليسرى ناحية نيتو فتشكل فيها شعاعًا براقًا من الضوء الذهبي واندفع ناحية نيتو لينسف كتفه بالكامل واثنين من الأفاعي فتراجع بين الظلام وفي اللحظة التالية جاء لأنس من خلفه فالتف بدوره وتصدى لضربته؛

فتراجع مجددًا واتاه من يمينه ثمّ من يساره ولم يدري أنس كيف يتحرك بهذه السرعة العظيمة ولكنه كان في وضعٍ لا يحسد عليه فتصدى لضرباته الواحدة تلو الأخرى.

كان الجنود على الأرض قد استعادوا سيطرتهم قليلاً بعد التدخل المفاجئ لكيان النور فأمسكوا بالمسدسات والبنادق والضوئية وشرعوا يتصيدون جيش نيتو العظيم وقد عاد الأمل إلى أرواحهم وطفقت المدافع تقصفهم وتنسفهم، بينما يتقاتل نيتو وأنس في الأعلى في قتال شرسٍ لم يرى له مثيل في الكون.

تحرك نيتو من كلّ اتجاه يضرب أنس الضربة تلو الأخرى بسرعة رهيبة أصابت أنس بالإرهاقً فقرر أنه إن بقي في هذا الوضع فسيسحقه نيتو فانطلق بسرعة كبيرة تضاهي سرعة نيتو وشرع يلتحم به في كل حين ولحظة لتتالى الضربات؛ فيصيبه تارة ويرد له نيتو الصاع تارة، حتى رآهما البشر على الأرض كنجمين من النور والظلام يتحركان في السماء بسرعة بالكاد تُرى ويرتطمان ويتباعدان ويلتحمان والسماء تهتز حولهما وترجف في معركة ملحمية لم يروا مثلها من قبل.

ظل أنس يضرب برمحه ويصد ضربات الأفاعي ومنجل نيتو حتى ابتعد وضرب أشعة من الضوء من يده اليسرى لتصدر انفجارات ضوئية وحرارية ضخمة تُغطي السماء من مداها وقوتها فيشيح نيتو بمنجله ليتلاشى الضوء ويحل محله الظلام؛ فيستمر أنس بضربات الضوء التي تتالى وتضيء السماء كشمس مشرقة ونيتو يحرك منجله في كل اتجاه ويلفه كالمروحة ويضرب النور بالظلام، فرفع يده اليسرى هو الآخر وأطلق ما يبدوَ وكأنه شعاع من الظلام فارتطم بشعاع أنس وشرعا يتدافعان وكلّ يحاول

أن يعلن عن وجوده أمام الآخر وأن يُثبت لهُ أنهُ الأجدر والأعظم؛ فاستمرت الملحمة بينهما حتى انفجرا ولم يتغلب أحدهما على الأخر.

وقف كلّ من أنس ونيتو بصمت يتفرسان في بعضهما البعض ويفكران في الخطوة التالية إذ كانت قوتهما تكاد تكون مُتعادلة، فقرر أنس أن يبذل أقصى ما عنده في هجمة أخيرة لعلها تكون القاضية.

أخذ خصلة من شعره الفضي وأخرى من الجزء الذهبي وربطهما معًا ونزع ريشة ذهبية من جناحه وأحاطهما بها وبعدها مررها على الجواهر الثلاثة في رمحه فبرقوا ببريقٍ شديد، فقال أنس:

- كيف تظن أنني عدت مرة أخرى إلى هنا؟

صمت نيتو لوهلة وهو يتأمل ما يفعله أنس ثمّ قال له بحيرةٍ:

- لا تقل لي أن الابن الرابع قد أعطاك القدرة للتنقل بين الأكوان؟

- يا لكَ من سريع البديهة.

ضرب أنس برمحه الهواء فانشق الزمكان إلى نصفين وظهرت بوابة نجمية فانطلق نيتو ليوقفه قبل أن تنفتح البوابة ولكنها أضاءت بضوءٍ خلاب غشي أعين نيتو فوضع يده على وجهه وسرعان ما شعر بأنس خلفه وقد ضربه بكف يده ضربة دفعته إلى داخل البوابة ودخل أنس وراءه، وعندما فتح نيتو عينهُ رأى أنهُ في عالمٍ غريب له زوايا هندسية غريبة ومباني بيضاء عجيبة مُوزعة توزيعًا بسبب الارتباك لأي كائن حي، فكانت تستقر في الأعلى والأسفل في اليمين واليسار وكلها مرتبطة ببعضها البعض رغم هذا التنافر في الزوايا.

قال أنس وهو يهز أجنحته بهيبة:

- مرحبًا بك في سجن الابن الرابع.. لكلّ عالم قوانينه الخاصة وإذا لم تعلمها فسوف تُربكك وتقضي عليك.

قذف أنس برمحه إلى الأعلى من بين أحد المباني المُعلقة بالمقلوب فتعجب نيتو من هذا الفعل، وسرعان ما اختفى الرمح وظهر من زاوية أخرى من خلف نيتو فتفاجئ وتحاشاه بصعوبة بالغة فاحتك الرمح بخصره ليجرحه وبعدها اختفى الرمح وراء أحد المباني البيضاء وعاد من زاوية أخرى جانبية فتحاشاه نيتو ولكنه لاحظ أن الرمح قد التف بطريقة لولبية غريبة من حوله وعاد إليه ليقطع ذراعه اليسرى، فقال نيتو بحنقٍ وغضب:

- كيف يحدث هذا؟

عاد الرمح إلى يد أنس اليمنى فقال:

- إنها قوانين هذا العالمِ، والرمح يتحرك عبرها وأنا أحفظ كل زاوية فيه وقد تدربت على هذا كثيرًا لمدة ألف عام. أما أنت فنهايتك وشيكة.

رفع أنس الرمح فوقه وحوّلهُ إلى عشرات الرماح وقذف كلّ منها في زاوية مُختلفة وقال:

- والآن فلتريني كيف ستجنبها هذه المرة.

ارتاب نيتو وأحس بأنه في ورطة فأنطلق ناحية أنس بسرعة ليطعنه ولكن أنس صعد إلى الأعلى بين المباني ومر من خلال نوافذها ودرجاتها بشكلٍ متعرج وملتوي فحاول نيتو أن يخترق المباني بجسمه ولكنه اصطدم بحاجزٍ خفي غريبٍ، فسمع صوت أنس من فوقه وهو معلق ويتدلى رأسه إلى الأسفل قائلا:

- عليك أن تطيع القوانين في هذا العالم وتتحرك من خلالها. أيّ محاولة لخرقها ستؤدي لما حدث لك الآن.

نظر نيتو من حوله فرأى رمحًا يُطارده من خلفه فضربه بمنجله فأتاه آخر من يمينه فحاول أن يضربه ولكن الرمح تحرك إلى اليمين والتف بطريقة متعرجة وكأنه افعى تتحرك على الأرض وتتلوى بجسدها ومعه رمح آخر من فوق نيتو فتراجع بدوره إلى الخلف ليتحاشاهما وكانت يده اليسرى قد التأمت من جديد ولكنه لاحظ رمحًا آخر يأتي من تحته فالتف في الهواء ولكن الرمح قطع ثلاثة من الأفاعي الضخمة دفعة واحدة فانزعج نيتو ورأى الرماح تكثر من حوله وتلتف بشكلٍ لولبي وترتد من الأمام وتعود أو تصعد لفوق وتنحرف يمينًا ثمّ تهبط إلى الأسفل وكانت حركاتها عشوائية وغريب وسريعة وقد أربكت نيتو حتى أصبح من المُتعثر عليه أن يتوقع مكان قدومها. نالت الرماح عليه لتجرحه وتطعنه وتقطع قدمه ويده وأفاعيه وتخرق كتفه حتى صرخ ونشر الظلام من حوله ليحميه منهم ولكن أنس ظهر أمامه وضربه برمحه فتصدى نيتو لها وطارده فخلق أنس ومر بين المباني فلاحقه نيتو وشعر أنه ينقلب وتتبدل رؤيته من كثرة الزوايا الغريبة التي يمر من خلالها، فخدعهُ أنس ومر من بين المباني وهبط إلى الزاوية اليمنى فارتطم نيتو بأحد الحواجز الفيزيائية وفجأة رأى نفسه محاصر بالسديم الكوني العجيب الذي جعل الرؤية شديدة التعذر عليه وكأنه داخل ضباب كثيف وبعدها وجد أنس يأتيه من الأسفل من بين السديم ليضربه فصد ضربته وبعدها وجده يأتي من يمينه في اللحظة التالية فتفاداه فأتاه من فوقه ومن يساره ومن يمينه ومن فوق يمينه حتى أربك نيتو من كثرة الزوايا العجيبة التي لا يستوعبها عقله، فطعنه أنس طعنة نفذت إلى قلبه ولكن نيتو أمسك بوجه أنس وشرع يحيطه بحاجز

من الظلام ويطفأ نوره أمام قوة ظلامة العتيدة، فأخرج أنس رمحه وصرخ وهو يضرب برمحه الهواء لينشق وتُفتح بوابة نجمية، فأخرج أنس سلاسل ضوئية وأحاطها من حول نيتو وسحبه إلى البوابة فوجدوا أنفسهم في الفضاء وأحس نيتو بحرارةٍ شديدة تلفح جسده وضوء رهيب يضربه، فنظر خلفه ليجد نجمًا مشتعلاً من النار التي تشهق وتزفر وتميز من الغيظ، فنظر من حوله وقال:

- إلى أين أخذتنا؟

قال أنس وهو يشدد السلاسل على جسده:

- إلى النجوم أو بمعنى أدق إلى الشمس التي حجبتها عن عالمنا.

شعر نيتو بالمأزق الذي أصبح فيه، فحاول أن يَنشر ظلامه في كلّ اتجاه، ولكنّ ضوء الشمس وحرارتها كان يقضي على ظلاله على الفور، فاحتضنه أنس بقوة وطار به إلى الشمس وقد أدرك أن هذا هو المكان الذي كان يريده، إنه محطته الأخيرة. نظر من فوره ليجد نيتو وهو يتلوى في الهواء ويضع يده على رأسه ووجهه وجسده يتألمان من شدة الضوء والنيران والحرارة الشديدة. فأغلق من فوره البوابة من خلفه فتلاشت تدريجيًا وكادت تختفي فحاول نيتو أن ينفك منه ويحاول أن يُحدد مكانها حتى يعود، ولكنه صار كالأعمى وسط هذا النور العظيم والحرارة الحارقة فضرب أنس بكلتا يداه فاخترق جسده وشرع يبث ظلامه وسمومه داخله، فقال أنس وهو أنفاسه تتقطع ويتأذى من داخله من حرارة الشمس العظيمة هو الآخر حتى أخذت أجنحته تحترق:

- إنك ترى وتسمع كُلّ شيء عبر كياناتك التي صنعتها، ولكنكَ لم تتوقع قط أن تقوم روح مظلمة مثلي بعملٍ عظيم كالتضحية بالنفس من

أجل أن تريح العالم من شرك. أنت لا تفهم البشر بعد ويبدوا أن حكمتك القديمة قد خانتك في فهم طبيعتنا الغريبة التي لا نفهمها نحنُ أنفسنا حتى الآن ولا يعملها إلا الله. لست إلهي لتحاسبني وتحدد مصيري، أما أنا فلي ربٌ يحاسبني وهو أرحم منك، وعسى أن يغفر لي ما قدمت يداي وأن تكون هذه النيران التي حولي هي آخر ما يحرقني في حياتي.

صاح نيتو وآلاف الأرواح في داخله تتصارع وتحاول الهرب منه وهو يحاول أن يسيطر عليها وعلى كيانه الذي لم يعد مستقراً إذ أحس أن قوته العظيمة التي حصلها من حصد مليارات الأرواح تتلاشى الآن كلها. فلعن أنس وأخذ يحاول أن يدفعه بعيداً عن الشمس ولكن أنس كان أقوى فصاح بآلاف الأصوات المضطربة وهو يقول:

- كيف يتغلب على حكمتنا روحٌ مُظلمة مثلك لا تفقه شيئاً؟ سنلعن روحك ولن تجد مستقراً للراحة أبداً.. أيها الغبي أنتَ لا تعلم ما تفعله، ستتحول الأكوان إلى جحيم إن لم يرجع الأب ليحكمها.

- يبدوا أن على الأب أن يتغير ويحل محله أب جديد يفهم طبيعة الأكوان ومن عليها.

قال أنس وهو يتألم وبعدها ابتسم وجسده يذوب من شدة الحرارة وأحشائه تحترق داخله وقال:

- لن تلعنوا أحدًا بعد الآن لأن مصيركم قد تحدد، وستموتون معي هنا. أما أنا فستشهد لي كلّ الأرواح التي سلبتم منها إرادتها بأنّي حررتها منكم ومن طغيانكم وستشهد عليكم بما فعلتموه لهم.

نظر أنس فأبصر الأرواح تهرب من نيتو تدريجيًا وتعبر الفضاء عائدة من حيث جاءت حتى صار جسده يتقلص ويرجع إلى هيئته الأولى التي كان عليها قبل أن يستمد قوته من الأب ويمر بكل هذه الأحداث التي حولته إلى ما صار عليه. وكانت الأرواح تنسل من بين البوابة التي كادت تُغلق وراءهم وتهرب من هذا المصير الذي بقيت فيه لآلاف السنوات. ولكنّ المصير كان قد تحدد بأن علت النيران وابتلعت نيتو فقال بكلّ أسى وقد علم أنها نهايته:

- لقد حطم الابن الثاني عالمي ولم ينجوا منّا إلا القليل واقسمت أن انتقم من هذا الكيان الذي حول حياتي إلى جحيم ففتشت في كل الأسرار والمعارف القديمة حتى وصلت إلى لوح الأب العظيم فأمدني بالقوة لتحريره ومساندته وقد فشلت في مهمتي بسببك وسيظل الأبناء يحطمون العالم تلو الآخر بسبب جهلك.. كان عليّ أن انتقم منه وأعيد التوازن إلى الكون.

لفحت النيران جسد أنس فتألم وهو يقول:

- فتحطم الكثير من العوالم من أجل أن تنتقم لنفسك.. هذه هي النهاية المُناسبة لك ولي.

ابتسم أنس وهو يذوب ابتسامة رضى وأغمض عينيه وأدرك أن روحه لن تموت كما أخبره كريم من قبل، بل إنها تنتقل من حالة إلى حالة، من حالة الفناء إلى حالة الخلود، ومن عالم النقص إلى عالم الكمال. وتذكر أن الروح خالدة، وأن روحه لن تعلق في ظلام نيتو الذي غمره من داخله ولكنها ستنغمس في نور الله، فالله يخرج كل المخلوقات من الظلمات إلى النور.

التف أنس وأمسك برمحه بثبات ونظر ناحية الأرض التي كانت تلمع كجوهرة في الفضاء الفسيح وقال والدموع المضيئة الذهبية تنهمر على وجهه:

- هذه هدية أخيرة لكما يا رفيقي الأعزاء. سأفتقدكما.

أمسك أنس بالرمح بقبضته بإحكام ودفع يده إلى الخلف بقوة وبعدها قذف بها بكل قوته عبر الفضاء وسط النجوم؛ فطار الرمح وشق طريقه عبر الفضاء الفسيح كشعلة مضيئة من أجود أنواع الأنوار، حتى اقترب الرمح إلى كوكب الأرض ودخل مجاله الجوي وبدأ يشع بنورٍ عظيم أزاح كل الظلام في السماء من حوله وكأنه قنديل نور في الليل يشع من منارة عابد متبتل، وما هي إلا لحظات معدودة حتى أزيحت الظلمات عن الأرض بالكامل وارتطم الرمح بالقرب من كريم والياس حتى اهتزت الأرض من حولهما من قوته، فسقطا على الأرض ثم وقفا بعد أن هبت موجة من التراب من أثر الارتطام وانتظرا حتى تلاشى التراب وبعدها وجدا الشمس تشرق من جديد في السماء وترسل بأشعتها الذهبية إلى الرمح اللامع البراق المستقر أمامهما في الأرض. كانت هدية أنس الأخيرة لهما وللبشرية.

وبينما يحترق جسد أنس بالكامل سمع صرخة نيتو ومن معه تدوي داخل رأسه وجسده يحترق بالكامل وقد أدرك أنها نهايته.

أحس مُهند وبقايا الظلام تنسحب من جسده وتتلاشى بأن سيده يكاد يهلك فصرخ بحرقةٍ قائلاً:

- لاااااا. ماذا فعلت أيها الغبي؟

جلس كريم على الأرض يبكي وهو لا يعلم ما الذي حل بصديقه ولكنه بالتأكيد أمرٌ عظيم إذ أحس بداخله أن أنس قد نجح وضحى بحياته من أجل أن يحيا الجميع. لقد قدم تضحية عظيمة لكل الأكوان وفرصة أخرى من الخالق ليصلحوا من أنفسهم. أما إلياس فسأل مُهند المقيد عما حدث وعن سر هذا الرمح العجيب، فأخبره بما رآه وما حدث لأنس وسيده فوقف متأثرًا بهذا الموقف ولم يصدق أن أنس المزعج الذي كان يتعارك معه طوال الوقت كان يملك مثل هذه الروح العظيمة الشجاعة وهذه القوة الجبارة، وقد أثر فيه هذا الحدث للأبد حتى أنه غير حياته بالكامل وساعده فيما سيأتي بعد هذا من أهوال.

صرخت الكيانات المُظلمة وتراجعت. أما الجنود فقد شعروا بالكيانات تتذبذب وتصرخ في ألم عتيد وصارت تترنح فاستغلوا هذه الفرصة وأعادوا الكرة عليهم وتوجهوا يقصفونهم بقنابل الضوء ويضربونهم بالأسلحة الضوئية ويشجعون بعضهم البعض بالثبات والصبر وأن يستغلوا كلّ فرصة سانحة قبل أن تُقوم بإبادتهم هذه الأشياء اللعينة، فانطلقوا وقد وجد الأمل سبيلاً إلى قلوبهم من جديد وسعوا بأقصى ما عندهم لدحض هذه الأشياء، وتمكنت الطائرات من إسقاط الكائنات الطائرة الضخمة، وبعد دقائق قليلة حدث ما لم يتوقعوه إذ انقشع الظلام في السماء وبرزت الشمس مرة أخرى! فصرخت الكيانات وهربت إلى الظلام والجنود يطاردونها بالقنابل والطلقات الضوئية وقاذفات اللهب وقد رقصت قلوبهم فرحًا وهللوا طربًا، وسقطت أشعة الشمس بخيوطها الذهبية فوق الكائن الضخم ضخامة الجبال فأحرقته حتى عوى وتلوى تحتها وجسده يحترق إلى أن سقط على الأرض ليهزها هزًا وبعدها تلاشى جسده واحترق تدريجيًا

بينما هربت باقي الكيانات من ضوء الشمس وتوجهت إلى أعماق المدن والجبال والتلال، حيث لا يزال الظلام يخيم عليها.

كم شعر البشر وقتها بنعمة الشمس والنور التي ألفوهما دائمًا وأبدًا فلم يعيراهما انتباهًا حتى فقدوهما. لم يستمر الوقت أكثر من ساعة حتى حل النور مُجددًا فوق العالم ليحرق كلّ الكيانات إلا التي اختبأت في أماكن لا يصلها ضوء الشمس كبعض البيوت المهجورة والجبال وغيرها ينتظرون مصيرهم الحتمي، وكان دور جيش البشر أن يعثر عليهم ويستدرجهم إلى النور حتى يقضي عليهم، ولكنه لم يستطيع أن يمسكهم جميعًا رغم إبادته لمعظمهم، ولكن الأمر كان مجرد وقت.

أما مُهند ففقد قوته بالكامل وعاد بشريًا مرة أخرى واحترق قلبه غضبًا وكرهًا وحقدًا لما حل لسيده ولفشله في تطهير العالم من ظلامه.

توجه الجيش في كلّ أنحاء العالم وأنقذ من تبقى فيها وأحرق بقايا الكيانات المُظلمة وكلّ ما وجده في عدة أيام، وجاء العلماء للبحث والتنقيب عن هذه الظاهرة من كلّ أرجاء العالم، وانتشرت الفيديوهات التي يتحدث فيها من نجوا عما رأوه من أهوال لا يفقها عقل. والكثير منهم انتهى به الأمر في المصحات العقلية لإعادة التأهيل النفسي والعلاج للصدمات البشعة التي أصابتهم. أما كريم فاستطاع أن يعثر على زوجته ووالده بعد عدة أيام من هذه الأحداث في الولايات المتحدة وسعد كثيرًا أنهم لا زالوا على قيد الحياة وشكر الله كثيرًا على نجاتهم من هذا الجحيم، ولكنه ظل حزينًا لفترة لفقدانه رفيقيه مُهند وأنس في هذا العالم العجيب الذي اتضح لهم أنهم لا يعلمون منه شيئًا، ولتحطم نصف بلده. وأما الشيخ عامر فقد عاد إلى مسجده واختراعاته وقد حظي باحترام الكثير

على الجهد الكبير الذي بذله في هذه الأزمة ولإنقاذه للكثير من الأرواح وأصبح قدوة للكثير من الناس.

وقد انتشرت الأخبار والقصص والفيديوهات والصور لهذه الحادثة، وحكى الجنود عمّا رأوه، واشتهرت أحاديثهم وشعر الناس في كلّ أنحاء العالم بالخوف العميق من وجود هذه الأشياء حولهم في نسيج الكون، وكان حديث الناس طوال الوقت عن تفسير وجود هذه الكيانات وعن سر الكائن المضيء الذي أنقذهم. فقد احتدت النقاشات بين العامة والعلماء ودارت الأبحاث والأفكار، وتقارب البشر أكثر فيما بينهم لمعرفتهم أن هناك خطر أكبر من بعضهم البعض يُهدد عالمهم، فهدأت صراعاتهم وحروبهم وتوحدت قواهم بعض الشيء مما كان له أثر إيجابي نحو تحول البشر إلى الوحدة ونبذ الحروب والشر قليلاً مما أفسد على نيتو نظريته وفكرته التي أرادت تحطيم العالم وصنعه من جديد. ففي النهاية البشر يتعلمون ويتطورون دائمًا وأرواحهم نفحة من الخالق.

أما مُهند فقد سجنه إلياس في أشد السجون حراسة ولم يُخبر الناس بما فعله رغبة منه في التحقيق معه ليفهم الكثير من الأسرار التي تشغل باله، واستطاع أن يستولي على كل أمواله التي بلغت الملايين وصنع بها أول مؤسسة بحثية للدراسات الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) في مصر، وجهزها بالكثير من المُعدات والأجهزة والمعلومات للحصول على ما يكفي من العلم من مُهند حتى يتمكنوا من التصدي لأي هجوم مُحتمل على عالمهم من الأكوان الأخرى. وسيصبح إلياس فيما بعد واجهة للتصدي للخوارق وكل ما يتعرض لعالمهم بسوء. فالكثير من الكيانات القديمة كانت تحدق بهم وتنتظر الفرصة المناسبة للدخول بعد أن هلك نيتو وارتاحوا منه، والكثير من البشر الحمقى رأوا أن واجبهم أن يحرروا هذه الأشياء ويفتحوا

الأبواب لها. وعلم إلياس أن عاجلاً أم أجلاً سيقوم بعض العلماء بفتح أبواب الجحيم عليهم مرة أخرى، فأراد أن يسبقهم ويستعد جيدًا ويحشد ما يكفي من القوة لصدهم؛ أيًا كانت أشكالهم أو هيئتهم أو العوالم التي سيأتون منها.

أما قصة أنس فظلت في الكتمان لا يعلمها أحد إلا القليل، فلم يدري أحد عن تضحيته العظيمة لإنقاذ الأرض، ولكن كريم قرر أن يُخرج قصته إلى النور في يومٍ من الأيام عبر كتابة كتاب يحكي قصتهم وكلّ ما جرى معهم من تفاصيل وقرر أن يسميه "الملاك الأسود".

أما مُهند فجلس في سجنه العميق والحنق يملأ قلبه على خسارته ولكنه وجد من يخاطره في عقله من بين النسيج الكوني ليعلن له عن وجوده فابتسم ولمعت عيناه بلونٍ قرمزي وهو يعلم أن الأمر لم ينتهي بعد، فالأب الكبير لا يزال يسعى للعودة وأولاده لن يسمحوا بذلك.

بعد مرور سنة

عبر إلياس الردهة المضاءة ببعض المصابيح الخافتة والتي تقع أسفل منشأته البحثية عن الخوارق وما وراء الطبيعة، وكان يمسك بيده كتاب الملاك الأسود الذي ألفه كريم وأصبح الأكثر مبيعًا في كل أنحاء العالم وتُرجم إلى عدة لغات. ضحك إلياس وهو يقرأ عن سخرية أنس منه مع كريم من وراء ظهره ولمعت دمعة في عينه اليمنى وبعدها وصل إلى وجهته فوجد أمامه زنزانة وحيدة ويجلس بداخلها مُهند بهدوء، توجه إليه إلياس وقال وهو يشير بكتاب الملاك الأسود في يده:

- عليك أن تقرأ هذا الكتاب سيعجبك كثيرًا.

نظر له مُهند باذدراء وقال:

- بالطبع أصبحت أنا الشرير في هذا الكتاب وأنتم الأخيار الذين أنقذوا العالم، ولهذا لا حاجة إليّ لقراءة هذه التراهات.

رفع إلياس حاجبه الأيمن وألقى عليه نظرة ماكرة وقال:

- إذن ربما يهمك أن تقرأ الكتاب الأسود والذي سجل فيه نيتو كل شيء عن العوالم الأخرى.. لقد نسيت أن أقول أننا وجدناه وهو يخضع للفحص ومحاولة فك شيفراته ولغته المُعقدة في الوقت الحالي.

وقف مُهند من مكانه من وقع الخبر وقال وكأن الحياة عادت إليه:

- إذن فلقد ألهمكم بأن تجدوه كما قال ليّ.

نظر إليه إلياس بحيرة إذ لم يفقه ما يقول، فقطع حاجز الصمت قائلاً:

- من ألهمنا بأن نجده؟

- لا يهم فأنت أجهل من أن تفهم ما يدور في هذا الكون المعقد.

- إذا ساعدتنا في فهم هذا الكتاب وكلّ ما فيه وأعلمتنا بما تعلمه عن نيتو فسأفكر في أن أخرجك من هنا وأرجعك إلى حياتك الطبيعية تحت الرقابة المُشددة.

ابتسم مُهند بمكرٍ ودهاء وقال بنشوةِ المنتصر:

- لا أحتاج إليك لتخرجني من هنا، فبوجود هذا الكتاب معك قد ضمنت طريقي للخروج بالفعل.. ألا تدري أنه سيجذب كلّ من يسعى إلى الحصول على قوة وحكمة الكيانات القديمة؟

أصاب إلياس قشعريرة غريبة وإذ فجأة سمع صوت إنذار يدوي في سائر المؤسسة البحثية وإذا بهاتفه يرن فأمسك به ورد قائلاً وقد استبد به القلق:

- ماذا يحدث.

رد الرجل على الخط قائلاً والكلمات تختنق في حلقه:

- لقد اخترقوا المنظمة وقتلوا الكثير من رجالنا وعلينا أن نحمي الرمح والكتاب الأسود.

- من فعل هذا؟

- لا أدري ولكني سأوصل هاتفك بالكاميرات الأمامية لترى ما رأيت.

فتح إلياس هاتفه فوجد الكاميرات الأمامية للمنظمة يقف أمامها خمسة أشخاص يرتدون معاطف سوداء طويلة وقبعة طويلة كقبعة الإنجليز في العصر الفيكتوري وعلى وجوههم تستقر أقنعة بيضاء لم يتبين أنس هيأتها جيدًا، فصرخ إلياس كبركانٍ ثائر:

- خمسة فقط يخترقون منظمتي؟ ما هذه الجرأة! ألا يعلمون من نحن؟ يحتاجون إلى جيشٍ ضخم ليخترقونا! فكيف لهم بهذه الجرأة! هل جاءوا من أجل الرمح أم الكتاب؟ أم أنهم جاءوا من أجل تحرير..؟

صمت برهة ولمعت فكرة مُظلمة في رأسه فالتف إلى مُهند الذي كان يبتسم ومن حوله هالة عجيبة لكيانٍ عظيم لم يشعر بها إلياس في حياته، فقال مُهند وقد لمعت عيناه بضوءٍ قرمزي عجيب:

- لم يسعني الوقت حتى أعرفك على رفاقي.

أحس إلياس ببرد قارص على قلبه فالتف وراءه ووجد من يقف في نهاية الردهة وينظر إليه بصمت، فرفع إلياس مسدسه من جيبه الأيمن ووجهه إليه وقد اتسعت عيناه من الدهشة قائلاً:

- إنه أنت!

تمت بحمد الله

***

الكنزي
ALKANZY